6



الشباب العربي ومشكلاته

تأليف

د. عزت حجازي

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

6

الشباب العربي ومشكلاته

تأليف

د. عزت حجازي



المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

المحتوى

أولاً

يمر العالم العربي الآن-بعد حقب طويلة من التعرض للتأثيرات الأجنبية، وبعد اكتشاف إمكانياته الهائلة، وبعد عديد من الأزمات على الصعيد الداخلي وفي العلاقات الخارجية-بنقطة تحول حضاري وعلى الاتجاه الذي نسير فيه من الآن يتوقف مستقبله لأجيال عديدة: أما أن ننجح في فك إسار التخلف وننطلق في آفاق التقدم الرحبة اللانهائية، نستعيد أمجادا ما زالت ذكرياتها العطرة تبعث في نفوسنا إحساسا بالمرارة والألم، إلى جانب مشاعر الاعتزاز والزهو، أو أن نجهض محاولة الخلاص فنخسر حتى القليل الذي حققناه، وقد نخسر وجودنا كله.

وبدون أية مبالغة، يمكن أن نقول أن جيل الشباب هو أمضى أسلحة العالم العربي في صراعه المصيري من أجل الخروج من كهوف الظلام وصنع مستقبل افضل. وهو فضلا عن ذلك صاحب هذا المستقبل.

غير أن الظروف التي تضع العالم العربي على نقطة تحول حاسمة في تاريخه، هي نفسها التي تضع الشباب في «أزمة». من بين أعراضها صراعهم الحاد مع جيل الكبار: نقدهم له، ورفضهم لعديد من قيمه، وتمردهم على بعض مؤسساته).

جيل الشباب العربي، إذن، هم-بالنسبة للامة

العربية-الأمل ومصدر الخطر في وقت واحد.

لقد لعب الشباب في معظم البلاد العربية دورا هاما في عملية تحديث modernization [*] بلادهم. فقد قامت الدعاوى الإصلاحية منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى الآن على جهود الشباب، وحققت ما أنجزته بفضل تضحياتهم. ومن بعض عناصر الشباب الذين سافروا إلى أوروبا في أول لقاء حديث للعالم العربي مع مدنيتها المعجزة، أو التقوا بمن استقدمتهم بلادهم من «الخبراء» الأوروبيين، كانت «صفوة التحديث» modernizing elite [2*] التي اعتمدت عليها مجتمعاتهم في الأخذ ببعض أسباب هذه المدنية، فاستطاعت أن تقاوم الانحلال. أما حركات الاستقلال الوطني ضد الاستعمار، والتي تمثل بعضها في حروب طاحنة استمر بعضها لعدة سنوات، فقد كانت حركات شبابية في أهدافها وتكوينها إلى حد بعيد.

فتاريخ المنطقة العربية حافل بالشواهد على أن جيل الشباب كان الطلائع المتقدمة في ثورتها على التبعية: حددوا أهدافها، وبلوروا شعاراتها، ووضعوا استراتيجيتها، وقدموا قياداتها والقوى العاملة فيها، ودفعوا اكبر جانب من تكلفتها البشرية، وتحملوا بصبر واختيار كثيرا من المعاناة من أجل نجاحها. ونضال كل من الشعبين الفلسطيني والجزائري مثالان فقط من الأمثلة العديدة على ذلك.

أما الآن، وبعد أن حققت حركات الاستقلال الوطني أهدافها، وتخلصت كل البلاد العربية من التبعية لدول أجنبية، وقامت فيها حكومات وطنية، فان من المؤسف أن يتجه الرفض من جانب الشباب إلى النظم القائمة، وأن تستنفد معظم طاقاتهم في تحديها والتمرد عليها، وأن يمتد التحدي والتمرد ليشملا معظم ما يمثله ويعتز به ويدافع عنه جيل الكبار، أو بعبارة أدق أن تصل العلاقات بين الجيلين، ووضع الشباب في المجتمع، إلى حالة «الأزمة».

وينظر الآباء والمربون في العالم العربي الآن إلى مرحلة الشباب-أو المراهقة-بشيء من الاهتمام والانشغال يصل إلى حد القلق. وذلك لما يواكبها وتأتي به من مشكلات سواء بالنسبة للشباب وأهله والمجتمع. (فبعد فترة طويلة نسبيا من النمو الهادئ غير الملحوظ والاستقرار الانفعالي، يصبح الفرد «غير متزن» وغير مستقر، ولا يمكن التنبؤ باتجاهات تصرفاته، غير قابل للانصياع: فهو متمرد على طلبات الأسرة يرفض تحرياتها، غير متأكد

من حقيقة ذاته، يتعامل مع الكبار بشيء من الحساسية وقدر واضح من العناد).

وليس التحول من الطفولة في اتجاه الرشد بأقل إقلاقا وإزعاجا للشاب نفسه. إذ يشغله ما يطرأ عليه من تحولات، وتحيره استجابات الآخرين غير المفهومة لها، ويضطره «الخصام» بينه وبين الكبار إلى نوع من القطيعة مع المجتمع، ويدفعه إلى ثلة الأقران.

تكمن «الأزمة» في مرحلة الشباب إذن في أمرين:

1- المشكلات التي يواجهها الشاب في فهم ذاته وقبولها، والتعامل مع الآخرين والواقع بصورة صحية.

2- المشكلات التي تنطوي عليها تصرفات الشاب لأهله والمربين. والمجتمع بعامة.

ويعقد تعامل الشباب مع الكبار بعض التصرفات غير المسئولة من جانب الشباب، وعدم اعتبار الآخرين، واستعمال أسلوب في الحديث يصل إلى درجة الوقاحة أحيانا، ولهجة لم يعدها الكبار منهم.

وفي حين أن قدرا من «الخلفة» من الشباب مع المجتمع يعد علامة من علامات الصحة والسوء، وضمانا لتحقيق نوع من التكيف أو التوافق الاجتماعي، وآلية من أهم آليات التغير الاجتماعي والحضاري، فان ما يبديه قطاع كبير من الشباب من العناد والخلاف والرفض لعالم الكبار أمر يستدعي التأمل والنظر.

(وواقع الأمر، أن الشباب أقل عدوانية وتمردا وثورة مما توحي به استجاباتهم اللفظية التي لا تخلو من اندفاع وعصبية. وهم كذلك أقل مثالية وملائكية مما يحاولون أن يظهروا هم به أحيانا).

وتحمل مرحلة المراهقة والشباب مجموعة غير هينة من المتناقضات: فالفرد اكثر ما يكون قدرة على العمل وبذل الجهد، ولكنه لا يشغل أدوار الكبار ولا أية أدوار إنتاجية، وهو في قمة التركيز على ذاته والانشغال بمشكلاته الخاصة، له طاقة هائلة على العمل العام والبذل، والى جانب مشاعر الاهتمام والحب الجارفة التي يبديها، يتبنى مواقف لا مبالاة محيرة من بعض الأمور.

وليس من الصعب تفسير حالة القلق وعدم الاستقرار التي يحس بها

قطاع كبير من الشباب. فهي ترجع «أولا» إلى النمو العضوي السريع إلى حد الإرهاق، وغير المنسق بعضه مع البعض الآخر إلى حد الإزعاج، و «ثانيا»، إلى عدم فهمهم لما يجري فيهم وحولهم ونقص خبرتهم في التعامل معه، و «ثالثا» إلى الصراع الحاد الذي يعانون منه بسبب التعارض-بل والتناقض-فيما يطلب إليهم تحمله من مسئوليات أو يتوقع منهم من التزامات من الأهل، والمربين، والأقران، وغيرهم، وأخيرا، إلى عدم كفاية ما يوفره المجتمع لهم من فرص الحياة.

غير أنه من أهم عوامل الأشكال في وضع جيل الشباب إننا كثيرا ما نحكم على قيمهم وتصرفاتهم لا بمعايير تتناسب مع مرحلة العمر التي يمرون بها وإنما بالمعايير نفسها التي نستعملها في تقييم حياة الكبار.

ثانيا

وحتى عهد قريب، تمثل رد فعل جيل الكبار في العالم العربي لرفض الشباب لبعض قيمهم وتمردهم عليهم أحيانا في الانزعاج الشديد والإدانة الحادة-على أسس أخلاقية.

وتخلف الباحثون الأفراد وأجهزة البحث المتخصصة طويلا عن الاهتمام بأزمة جيل الشباب. ولم يتحركوا إلا حين بدأ نشاط الشباب يأخذ أشكالا تنطوي على «خطورة» على إضرابات الطلبة، «وانحرافاتهم»، وجرائمهم أحيانا. فبدأت تظهر في عدد من الدول العربية تحليلات لطبيعة جيل الشباب، ومشكلاتهم، ومواقفهم من مجتمعاتهم ومن أنفسهم (سنعرض لها بالتفصيل في مواضع مختلفة من الكتاب).

إلا أن هذه التحليلات لم تصل إلى أعماق أزمة جيل الشباب في المنطقة العربية. ولذلك يلخص أحد الكتاب حالة التراث العربي في الموضوع بقوله: «والشباب العربي شباب عير مدروس عموما دراسة علمية كافية، وما نعرفه عنه أما منقول عن غيره إليه، وملصق به إلصاقا، أو هو من قبيل المرنة الفردية الشخصية. فالكثير من مفكرين والمسئولين منا عن الشباب قد قرءوا عن الشباب الأوروبي مثلا أو الشباب الأميركي أو السوفيتي، انه شباب يميل إلى الخروج على السلطة والى التمرد عليها... فسرعان ما ينقلون هذه الحالة إلى شبابنا العربي ويلصقونها به لمجرد انهم لاحظوا

ذلك أو ما يشبهه على واحد أو على بضعة أفراد متفرقين من شبابنا، دون أن يقوموا بدراسة علمية (للشباب العربي).[1].

فبعض تلك التحليلات استندت إلى انطباعات شخصية تأثرت فيها باعتبارات أخلاقية، والى أفكار مسبقة جامدة استمدتها مما تنشره وسائل الإعلام-التي نادرا ما تراعى الدقة والموضوعية، والتي لا تتردد في استعمال أسلوب الإثارة أحيانا.

أما الدراسات التي لم تتسلم لتبسيط وسائل الإعلام، واتجهت إلى التحليل الموضوعي، فقد وقع بعضها فريسة لبيانات وتفسيرات متحيزة تعمدت بعض وسائل الإعلام الأجنبية نشرها بهدف التأثير المقصود في حركة دراسة موضوع الشباب وفهمه في دول العالم الثالث.

والبحوث التي تفادت هذا «الفخ» الأخير بإهمال التراث العالمي في الموضوع-وهو بالغ الثراء-اكتفت بتحليل «سطحي» للمتشكلة، اقتصر على وصف بعض جوانبها أو بمعنى أبسط تحديد حجم بعض أعراضها، فجاءت نتائجها قاصرة لا تضيف إلى ما يعرفه الشخص العادي عنها الشيء الكثير. ولقد ركزت بعض هذه الدراسات [2] على بعد أو أبعاد قليلة من الموضوع، انحصر معظمها في العلاقة بين الوالدين والأبناء صورها المختلفة، أو الآثار التي تترتب عليها في اتجاهات الأبناء وتصرفاتهم، أو على مواقف الشباب من بعض القضايا. ومن جوانب القصور في كثير من الدراسات النفسية من هذا النوع-سواء المتقدمة منها والمتأخرة-إنها اعتمدت على الخبرة الإكلينيكية مع جماعات «الشباب غير السوي» كمصدر للمعلومات. عن جيل الشباب، ولم تتردد في تعميم قسمات مثل هذه الجماعات-التي يشيع فيها عدم التكيف وتظهر فيها بوادر الانحراف-على جيل الشباب كله، على الرغم من انه من الصعب قبول فكرة تمثيل جماعات الأقران المنحرفة له. أما الدراسات التي تناولت الموضوع بنظرة ارحب[3] وتتبعته في عدة «مجالات» هكذا سمتها-فقد جاء معظمها مجرد قوائم للمشكلات، خاليا من التحليل المتعمق.

وسواء بالنسبة للدراسات من النوع الأول إلى النوع الآخر، جاءت كلها «جزرا» منعزلة لا تربط بينها أرض واحدة: لا يمهد السابق منها للاحق، ولا ينطلق الحديث فيها من النقطة التي انتهى عندها القديم-فضاعت فرص

الاستفادة من التجارب النظرية والمنهجية، وأهدرت فرص «الاستمرارية» و «التراكم» اللازمين لنمو العلم وتطوره وخلق أرضية صلبة يمكن أن يقوم عليها التطبيق. [4]

ومن الأنصاف أن نقول أن المسئولية عن هذا الوضع «غير الصحي» ليست في المحل الأول مسئولية الباحثين كأفراد ولا أجهزة البحث المتخصصة والجامعات، فلا المناخ الحضاري العام، ولا نظام إعداد الباحثين وهيئات التدريس، ولا نظم تشغيلهم واحتياجاتهم، ولا العلاقة بين أجهزة التخطيط الاجتماعي وتنفيذ الخطط من جهة والباحثين من جهة أخرى، توفر جوا مواتيا لحركة بحث اجتماعي جادة خلاقة. (وسنعود آلتي تفصيل بعض هذه النقاط في عدة مواضع من الكتاب).

ثالثا

في تصورنا أن الشباب العربي «شباب في مشكلات» وليس شبابا «مشكلا» على الإطلاق. وشتان بين هاتين الصورتين لوضع الأزمة: ففي الحالة الأولى نتكلم عن واقع موضوعي لا يوفر فرصا كافية للإرضاء العضوي والنفسي والاجتماعي ومواجهة مطالب الحياة المتجددة، ويضع الشبان، من ثم، في أزمة. وفي الحالة الأخرى نتكلم عن جيل من الشباب يعجز-لعدم كفاية إمكاناته وربما عدم سواء نسق قيمه واتجاهاته وأساليب التصرفات-عن التكيف والتوافق مع واقع لا نشك في سوئه وسلامته.

وانه لمن قبيل التبسيط المخل أن نقول أن مشكلات جيل الشباب الآن ليست سوى أزمة نفسية حتمية هي من خصائص مرحلة معينة من مراحل العمر يتم تجاوزها بمجرد تخطي هذه السن. وليس أقل تبسيطا من هذا أن نقول أنها ترجع إلى الصراع الأزلي الأبدي بين الأجيال-جيل الكبار وجيل الشباب. فإذا جاز أن يكون لهذين العاملين دور في ظهور الأزمة وتعقدها، فانهما لا يقدمان تفسيرا لها، فضلا عن أنهما في حاجة إلى تفسير. فالأزمة لا ترجع إلى أن الفرد حين يمر بسن معينة تطرأ عليه تحولات ذات طبيعة خاصة، من أهم ملامحها «الأزمة»، والأشكال فيها لا يرجع إلى أن التغيرات جذرية وإنها تحدث بسرعة لم يعتدها الشباب.

ومن الأخطاء المؤسفة أن ننساق في تصور كل رفض من جانب الشباب

لعالم الكبار أو تمردهم عليه على أنه يصدر عن اضطراب نفسي أو عقلي أو اجتماعي. فمعظم قيادات حركات الاحتجاج و «التمرد» السياسي عناصر على درجة كبيرة من النضج، وبعضهم متفوقون دراسيا ويعيشون في ظروف اجتماعية واقتصادية غير مضطربة.

أما تصورنا للعناصر التي تعارض النظام الاجتماعي القائم بأنها «عميلة» أو «ضحية» لعناصر تخريب (أجنبية) أو أنها «منحرفة» تفتقر إلى الاستقامة، فهو خطأ فادح يسيء إلى علاقة الشباب بالمجتمع.

وأبعد ضررا من هذا أن نخلط بين السلوك الاجتماعي أو «غير المقبول اجتماعيا»-ومن أمثلته رفض الشباب لبعض جوانب عالم الكبار وتمردهم عليها-وبين السلوك المضاد للمجتمع، ومنه الانحراف الصريح والجناح. صحيح أن بعضا من الشباب-شأنهم في ذلك شأن إكبار-يرتكبون جرائم بعضها بشع، بل وثمة من يحترفون الإجرام، ولكن من غير المعقول ولا المقبول أن نأخذ جيل الشباب كله بجريمتهم.

ومثل هذا الفهم أو هذه الاستجابة من الكبار للازمة-التي يجد الشباب أنفسهم فيها والتي تدفعهم مجتمعاتهم إليها بمعنى ما-لا تساعد في حلها، بل ولا التخفيف من وطأتها.

والغضب الذي يستثيره مظهر الشباب وما يأخذون به من قيم، وما يمارسونه من ألوان السلوك، لا يجوز أن ينتهي بنا إلى أدانتهم أخلاقيا، فكثيرون منهم يصدرون في مواقفهم عن نوع نادر من الالتزام: فالقضايا التي يؤرقهم الدفاع عنها قضايا عامة لا تخصهم في المحل الأول، أو لا تعنيهم وحدهم على الأقل، وحتى أولئك الذين يعانون من مشكلات خاصة لا يطرحونها من زاوية المعاناة الشخصية دائما، وإنما كاشكالات عامة. والقصور الذي يرونه في الحياة ويرفضونه قصور موضوعي في معظم الحالات. والتصور الذي يطرحونه لفلسفة العمل واستراتيجياته وخططه قد يفتقر إلى النضج، ولكنه ينطوي على قدر كبير من الإخلاص والأمانة والوعي بالمسئولية.

هم (نقصد الشباب) إذن، ليسوا على الإطلاق «محاربين بدون قضية». فثمة أكثر من مبرر لتمردهم-حتى وان عجزوا عن طرح القضايا التي يحاربون من أجلها بشكل مقنع للكبار.

كما أنهم ليسوا محاربين أوغادا، حتى وأن تطرف بعضهم في طرح قضاياهم والدفاع عنها. ففي معظمهم من نبل القصد والأمانة والالتزام الشيء الكثير ومع هذا لا بد أن نكون على حذر من الوقوع في رؤية رومانسية تبسيطية لحركات الشباب تبهرنا فنرى فيها خلاص الإنسان، ونغفل جوانب القصور فيها. فبعض تصرفات الشباب ومحاولاتهم في النقد والإصلاح لا تصدر عن إيمان بمثل عليا مجردة، وإنما تتأثر بافتقار الشباب للتقدير الاجتماعي: وتردد المجتمع في الاعتراف بقيمته وتحميله مسئوليات الراشدين، أو تقصيره في توفير فرص الحياة الملائمة. وبعض مشاعر العطف والتأثر لبؤس الآخرين وشقائهم ليست غير صدى للإحساس بالتعاسة والحرمان.

رابعا

وبدون التقليل من أهمية التغيرات العضوية والعقلية التي تأتي بها بداية الشباب، ولا سيما الاستجابات النفسية لها (وهي متغيرات سنناقش بالتفصيل دورها في الأزمة)-فان الأزمة في تصورنا ترجع إلى تأثير عاملين أساسيين: أولهما هو النظام الجديد لتقسيم العمل[*3]-وعلاقاته--الذي يؤدي إلى انساق اجتماعية بالغة التعقيد، والآخر هو العلاقات الاجتماعية والمناخات الحضارية التي تخفق في أن تمد أفرادها بفرص حياة تؤدي إلى فهم للذات والواقع، وتقبل لهما، وتكيف صحي معهما. وبقدر ما تخفق المجتمعات في حل المشكلات التي ينطوي عليها هذين الأمرين تكون خطورة أزمة المراهقة أو الشباب وتعقدها.

وفي كثير من المجتمعات البدائية [*4] يمر المراهقون بطقوس بلوغ الحلم puberty rites [*5] ويسمح لهم-أو من يجتازها منهم بمعنى أدق-بتحمل مسئوليات الكبار والاستمتاع بامتيازاتهم. ويساعد في تحقيق ذلك أن مسئوليات الإنتاج والحرب وغيرها كلها حرف بسيطة لا يحتاج إتقانها إلى تعليم رسمي، وإنما يكفي فيه المران الذي يبدأ من عهد الحداثة. ولهذا لا تمتد فترة اعتماد الفرد على الغير طويلا، وإنما ينتقل من طور الطفولة إلى طور الرجولة أو الرشد بسرعة نسبية، وبذلك يتاح له إشباع حاجاته الأساسية إلى المركز الاجتماعي والاستقلال والعمل المنتج، ويساعد الزواج

المبكر في حل مشكلات الإشباع الجنسي.

وفي المجتمعات الزراعية البسيطة، يستتبع النمو العضوي والعقلي تحمل مسئوليات هامة جديدة لا تحتاج ممارستها بنجاح إلى تدريب شكلي مقصود. فالتدريب عليها أو على بعضها-مثل الزراعة، والصيد، والقتال، وما إليها- يبدأ في سن مبكرة من عمر الفرد، ويتم بدون حاجة إلى ترتيبات خاصة. ويوجد في عدد من المجتمعات البدائية ما يعرف باسم مراتب العمر age grades (*6) وهي فئات من السكان على أساس المرحلة العمرية-خمس أو عشر سنوات-يعيش أعضاؤها حياة متميزة بعض الشيء، ويتحملون مسئوليات ويتمتعون بامتيازات تختلف عن تلك التي لمراحل العمر الأخرى. وبهذا تحسم المجتمعات البدائية أهم مشكلات توزيع الأدوار الاجتماعية Social roles(*7) وتحديد الهوية أو الانتقال من طور إلى طور.

وفي ظل«النظام الحرفي» الذي ساد حتى عهد الثورة الصناعية كان العمل جزءا من الحياة اليومية ينبثق منها ويرتبط بها على نحو يختلف فيه اللعب مع الجد دون تقسيم شكلي جامد، ويعايش فيه الصغار الكبار دون فصل حاد لعالمي الطفولة والرشد أو الآباء والأبناء، وينتقل الفرد عبر مراحله المختلفة في تتابع معروف سلفا، ويلعب في كل منها دورا ذا قيمة إنتاجية، مسئولياته والتزاماته فيه واضحة وحقوقه وامتيازاته معروفة.

أما في المجتمعات الحديثة المعقدة، فان انتقال الفرد من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد عملية مرهقة طويلة حافلة بأنواع المعاناة والألم، زاخرة بالمشكلات. فاستقلال الفرد اقتصاديا يتطلب أعدادا معقدا ويستلزم إتقان مهارات متخصصة دقيقة لا تتوافر إلا بعد فترة مران رسمي مقصود طويلة، ينضج فيها الفرد جسميا وجنسيا وعقليا ولا يسمح له بتحمل مسئوليات الكبار ولا الاستمتاع بامتيازاتهم. وبهذا تحبط ولو مؤقتا حاجته إلى المكانة الاجتماعية والاستقلال، وتعوق عملية إشباع كثير من حاجاته الجنسية العاطفية.

والمجتمع الحديث لا يتردد في السماح للشباب بشغل أدوار الراشدين من باب العناد. فواقع الأمر أن الارتقاء النفسي الاجتماعي اصبح الآن في المجتمعات المعقدة يحتاج إلى جهد أكبر وفترة أطول وإمكانيات أوفر مما يتطلبه في الجماعات البدائية والمجتمعات الزراعية البسيطة. أي أن هناك

عديدا من الظروف الموضوعية تؤدي إلى قطع الاتصال بين مرحلتي الطفولة والرشد، وتحول-لمدة طويلة أحيانا-دون حمل الشباب لمسئوليات الراشدين، وتعقد بالتالي تحديدهم لهويتهم وتفاعلهم مع الواقع.

ويعنينا من هذه الظروف فئتان: أولاهما، مجموعة الظروف الاجتماعية: الثورة العلمية والتكنولوجية، والنظام الجديد لتقسيم العمل والتخصص الدقيق، وفترة الأعداد الرسمي أو المدرسي الطويلة-التي قد تغطى أحيانا عشرين عاما-والتحولات الهامة التي طرأت على النظام الاقتصادي، وما ترتب على كل ذلك من تغيرات اجتماعية، منها نمو قطاع الحضر، والهجرة من القرى إلى المدن، والتحول من الأسرة الممتدة إلى الأسرة النووية الصغيرة وغيرها. والفئة الأخرى: هي مجموعة الظروف الحضارية: الهوة بين التقدم العلمي والتقني من جهة والتطور القيمي من جهة أخرى: وحدوث فجوة بين الأنساق القيمة والسلوكية للكبار وتلك التي يأخذ بها جيل الشباب.

ويعقد تأثير هذه الظروف الموضوعية-الاجتماعية والحضارية-أن طرفي المشكلة أي الجيلين اللذين تجمعهما الأزمة يتصارعان بمركب نقص-بمعنى ما-في كل منهما. فالكبار-الآباء والمربون والمسئولون-ينظرون إلى الصراع على أنه يرمي إلى استلاب الأرض التي كسبوها واستقروا عليها طويلا، وأنه إدانة صريحة لأهدافهم وقيمهم وأساليب عملهم، بل وتشكيك في جدوى كل مشروعاتهم. أما الشباب فانهم يعانون من غموض هويتهم، ينكرون أنهم صغار ويصرون على أنهم تجاوزوا مرحلة الطفولة، ولكنهم يجدون انهم غير مسموح لهم بعضوية عالم الكبار بعد، فهم هامشيون marginal. ويزيد من تعقيد الأزمة أن الكبار لا يستطيعون أن يتخلصوا في تناولهم لها من تواريخهم الشخصية، ومن ثم تنعكس مشكلات ارتقائهم ومتاعبهم وطموحاتهم واخفاقاتهم على فهمهم لها، وتصورهم لأساليب حلها، وجديتهم في السعي لإزالة أسبابها.

خامسا

في تصورنا أن فهما موضوعيا ومفيدا لجيل الشباب العربي ومشكلاته يفرض على الباحث مطالب عدة، من أهمها:

١- أن يضع الموضوع كله في إطار اجتماعي اقتصادي وحضاري، فيرى

ملامح جيل الشباب العربي ومشكلاته وتمرداته في ضوء العوامل التاريخية التي مرت بها مجتمعاتهم من جهة والظروف الموضوعية التي يعيشون فيها من جهة أخرى، فقيم جيل الشباب وتصرفاته ليست مجرد نتاج لملامح عضوية أو نفسية، ولكنها-بالإضافة إلى هذا وربما قبله-محصلة لعمل قوى موضوعية عديدة أخرى.

2- أن يكون على وعي بتأثير الأفكار القبلية أو المسبقة-سواء ما اتجه منها اتجاها «رومانسيا» يرى في الشباب حلما جميلا، وما يراه جيلا قلقا ميالا إلى الانحراف.

3- ألا يقتصر في تحليله على رؤية جيل الكبار للأشكال. فهم طرف في مشكلة، وقد لا تسلم رؤيتهم لها من التحيز والتزييف ربما غير المقصودين. فمن الضروري أن تكمل هذه الرؤية بتصور جيل الشباب لواقعهم ومشكلاتهم وتفسيرهم لتصرفاتهم.

4- ألا يقف عند حدود وصف المشكلة-كما فعلت معظم الدراسات الأكاديمية [5] بل يتجاوزه إلى تفسيرها تفسيرا يربطها بظروفها الموضوعية-لسنا، بالطبع، نرفض الدراسات الوصفية أو حتى الاستطلاعية من حيث المبدأ وعلى الإطلاق. ولكننا نعتقد أن مثل هذه الدراسات أقل من حيث قيمتها النظرية والتطبيقية-عادة-من الدراسات التي تتجاوز الوصف إلى تفسير الظواهر-باكتشاف العلاقات المنتظمة التي تربطها بعدد من الظواهر أو المتغيرات الواقعية الأخرى.

5- وبالرغم من أننا نصر على أن تقدمنا العلمي والتكنولوجي-بل وتطورنا الاجتماعي-متوقف على استيعابنا العميق للتراث العالمي واستفادتنا الواعية منه، فإننا نعتقد أن معظم باحثينا ينبهرون بهذا التراث، ومن ثم يعجزون عن أن يستعملوه ببصيرة كافية، وينساقون في أحكام إطلاقي لا يفرقون فيها بين شباب العالم العربي وشباب العالم المتقدم مثلا، فيبدو حديثهم غريبا عن واقع مجتمعاتنا، غير متسق معه. قد يكون صحيحا أن الشباب عموما وفي كل البلاد لهم خواص مشتركة. ولكنه صحيح كذلك أن للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يعيشها الشباب في بلد ما تأثيرا كبيرا في أخلاقهم واتجاهاتهم وميولهم، وبالتالي سلوكهم ونشاطهم، مما يجعلهم يتميزون في ذلك عن غيرهم من شباب بلد آخر (ومثل هذا الحكم

لا ينطبق فقط على الشباب العربي في مقارنته بالشباب في مناطق أخرى من العالم، ولكنه ينطبق على مقارنات جيل الشباب في البلاد العربية بعضها البعض الآخر، وان كان بدرجة أقل).

نحن بعبارة أخرى ندعو إلى رؤية لشبابنا كما هم في واقعهم، لا من خلال تعميمات على شباب مجتمعات أخرى. وبقدر ما نوفق في تقديم هذه الرؤية تكون قيمة الجهد الذي يبذل وجدواه.

وتحاول هذه الدراسة-التي نرجو لها ألا تكون مجرد صورة من الدراسات السابقة-إن تقدم فهما موضوعيا لطبيعة جيل الشباب العربي، والمتغيرات التي تحدد قسماته، وتؤثر في حركته واستجابته لواقعة. وهي تعتمد على نتائج الدراسات السابقة-تستفيد من المادة التي تزخر بها، وتحاول تفادي الأحكام الاطلاقية التي ينطوي عليها بعضها.

ما نرمي إلى تحقيقه ليس عرض كل المادة المتوافرة في الموضوع-بأبعاده المختلفة-وتحليلها، وإنما تقديم وجهة نظر من خلال التركيز على عدد من النقاط نرى أنها تشكل أهم أبعاد الموضوع، هي-إذن-«رؤية» تقتصر على عرض الموضوع في تضاريسه البارزة، دون التوزيع في متاهات تفصيلاته التي قد لا تقف عند حد معقول.

وفي عصر اصبح فيه التخصص العلمي ضرورة تطبيقية-مع كل الأسف-قد يكون من المفرغ منه أن يقتصر الباحث على معالجة موضوع بحثه من زاوية بعينها. لان إعداده يؤهله لذلك أساسا، من جهة، ولان منظور الرؤية-منهج الدراسة وأدوات التحليل والتفسير-تختلف من تخصص إلى تخصص اختلافات لا يمكن إغفالها، من جهة أخرى. وبالرغم من هذا حاولنا ألا نلتزم في تحليل موضوع بحثنا وتفسيره بحدود التقسيم الأكاديمي للعلوم. ومن ثم يعتبر تناولنا له «تكامليا»، تعرضنا لأبعاده العضوية والنفسية والاجتماعية والحضارية، واستعنا في تحليلنا بعديد من النتائج التي انتهت إليها دراسات علم النفس والانثروبولوجيا وعلم الاجتماع.

ليست لدينا-مع الأسف-دراسات جادة كثيرة تناولت مرحلة الشباب في كليتها وفي إطارها الاجتماعي الحضاري، هذا إذا كان يوجد شيء من هذه الدراسات على الإطلاق. ومن المشكلات التي تواجه أية دراسة تحاول أن تتجاوز حدود التخصصات العلمية التقليدية، وتتناول الموضوع بصورة

تكاملية، هي أن الاتفاق ضئيل بين مواقف العلوم المختلفة-وعلم النفس وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا بصفة خاصة-من أزمة الشباب. ليس فقط لأنها تركز على جوانب مختلفة منها-على نحو ما سنرى في الفصل الأول من الباب الأول-ولكن لان اتجاهاتها في التفسير والتحليل تختلف فيما بينها إلى حد كبير.

والصورة التي تشيع لازمة الشباب-سواء بين الدارسين المسئولين أو رجال الإعلام أو الأشخاص العاديين-هي في أهم جوانبها صورة الأزمة كما تظهر بين الشباب الذكور-طلاب المدارس الثانوية والجامعات. وهو تصور ليس خاطئا تماما. ولكنه غير دقيق. فبالرغم من أن جوهر الأزمة وأحد بالنسبة للشباب المتعلم من الجنسين، فان ثمة فروقا لا يمكن إغفالها بين مواقف كل من الجنسين، وفئات المتعلمين وغير المتعلمين منها. ومن ثم فإننا لا نفضل أن نلتزم بهذا التحديد الضيق، ونحاول أن تغطى الدراسة أبعادا اكثر.

ونخصص الباب الأول لاستعراض قسمات جيل الشباب العربي العضوية والنفسية والاجتماعية، مع محاولة إبراز «المطالب» التي تفرضها على الشباب باعتبارهم في مرحلة انتقال من الطفولة والرشد. ونتبع هذا الاستعراض بمناقشة الخلفية الحضارية التي تبدأ منها مشكلات جيل الشباب-ومجتمعاتهم من قبلهم-والمتغيرات الموضوعية التي يتأثرون بها ويستجيبون لها.

ونناقش في الباب الثاني أزمة جيل الشباب العربي مع نفسه، ومشكلاته في المجتمع المعاصر-الأسرة، ونظام التعليم، وجيل الكبار، والمؤسسات السياسية، والعمل، والزواج. واخترنا للتحليل والمناقشة هذا الترتيب الذي نراه «طبيعيا» تعتمد فيه كل مرحلة على السابقة عليها وتقود إلى اللاحقة لها. وننطلق في هذا التحليل من فرض-نحاول أن ندعمه من خلال المناقشة-مضمونه أن جيل الشباب العربي جيل «مغترب» alienated ولا نقصد من مفهوم «الاغتراب» alienation دلالاته الفلسفية الوجودية وان كنا لا نقلل من أهميتها على الإطلاق-وإنما يعنينا منه عدم فهم الشباب لما يجري في نفسه ومن حوله وعدم مشاركته في التخطيط لحياته ومستقبله، وعدم مشاركته في إدارة شئون حياته، وأمور واقعة، مما يترتب عليه أن يأتي ناتج

جهده غير مقصود غالبا، ومتعارضا مع اهتماماته وإمكانياته ومصالحه في أحيان كثيرة. ونخصص مقدمة الباب الثاني لمناقشة فكرة اغتراب الشباب العربي بالتفصيل.

ونعرض في الباب الثالث لرد فعل جيل الشباب على اغترابه، فنحلل ظهور جماعات الشباب ونشأة حضارتهم الخاصة أو عالمهم الخاص بملامحه التي تميزه عن عالم الكبار. ونناقش أهم وظائفه.

ونختم برؤية موضوعية للازمة نكمل فيها رؤية جيل الشباب برؤية الطرف الآخر-جيل الكبار-للمشكلة. نقدم بعدها تصورا للنقطة التي يمكن أن ينطلق منها «العمل».

بقيت نقطة أخيرة. لقد حاولنا ألا تكون الدراسة مجرد انطباعات شخصية، فاعتمدنا في اختيار المشكلات وعرضها وتحليلها والحكم عليها والاستنتاج منها على عديد مما أجرى في الموضوع من دراسات أكاديمية جادة، بعضها يطمئن إلى سلامة الاعتماد عليه،وكثير منها ستثير تحفظات جوهرية. ومن ثم فان من الطبيعي أن تكون هذه الدراسة نوعا من طرح المشكلة بأبعاد جديدة، وفي إطار للرؤية والتحليل والتفسير لم يتردد كثيرا، ولم يختبر في الجهود السابقة. (ولهذا نعتقد أنها يمكن أن تصلح دراسة استطلاعية لدراسة أو دراسات ميدانية على شباب العالم العربي في الأبعاد التي اخترناها وبالمنهج التكاملي الذي أشرنا إليه، وبأساليب تحليل جديدة، على أن تجمع مادة الدراسة من عينة قومية تختار بحيث تسمح لمتغيرات الجنس، والمستوى الاجتماعي الاقتصادي، والبعد الحضاري، وغيرها، بالظهور و التأثير).

ومع هذا، فالدراسة ليست سجلا لآراء الآخرين في موضوعها، وإنما هي-في المحل الأول-وكما أسلفنا-وجهة نظر أو «رؤية» استفدنا فيها من جهود الآخرين في وضع المشكلة في صيغة تظهر أنها غير تقليدية.

وإذا كنا قد حملنا المجتمع العربي والحضارة العربية مسئولية أزمة جيل الشباب العربي، فإنما جاء ذلك وفاء لالتزامنا بتحليل الأزمة في إطار ظروفها الموضوعية-وانطلاقا من إيمان عميق بأن من أهم مسئوليات العلوم الاجتماعية «النقد الاجتماعي»، أي طرح الواقع الاجتماعي-بمعناه الواسع-لمناقشة موضوعية مسئولة بدونها يعجز المجتمع عن الكشف عن جوانب

القصور في تركيبه، ويخفق في تصحيح مسار حركته. وعلى حد قول فؤاد ذكريا. فان الواجب الأكبر الذي يقع على عاتق المثقفين في بلادنا في الوقت الراهن ليس... أن يبعثوا في الناس أحاسيس الرضا عن الذات، بل أن يثيروا فيهم القلق والرغبة في تجاوز أوضاعهم الراهنة [6].

ونوجه هذه الدراسة لا إلى الباحث المتخصص في موضوعها، ولا إلى الدارس التقليدي في الجامعة، وإنما إلى القارئ المثقف في العالم العربي، الذي يهمه أن يلم بقدر كاف من الحقائق عن الموضوع، وأن يقف على وجهات النظر الرئيسية فيه، بدون أن يرهق بشكليات الكتابة المدرسية المعتادة أو أن يضيع في متاهات تفاصيل دقيقة-وربما غير هامة. وهذا يجعل الكتابة صعبة بعض الشيء، فلا بد من التركيز على حقائق دون أخرى، وتفادي الاستغراق في تفاصيل محلية قد تكون غير ذات دلالة عامة، وتجاوز المناقشات الفنية البحتة، وبخاصة في موضوعي النظرية والمنهج، وعدم إثقال النص بالمصطلحات والشروح غير الضرورية. ولهذا فقد جاءت قائمة الهوامش والمراجع في نهاية كل فصل طويلة بعض الشيء، فقد أوردنا فيها بعض ما رأيناه ضروريا لتوضيح بعض الأفكار أو تدعيمها. كما أننا حرصنا على شرح المصطلحات أو المفاهيم المتخصصة التي لم نجد بدا من استعمالها، نعرض تحديد المقصود بها وإزالة الغموض من حولها. وفضلنا أن تأتي التعريفات في ذيل الصفحة.

الهوامش والمراجع

١- إبراهيم محمد الشافعي، اتجاهات الشباب في الجمهورية العربية الليبية، بنغازي، منشورات جامعة بنغازي، بدون تاريخ، ص 12.
2- انظر مثلا:
أ-جابر عبد الحميد جابر، «التعليم الجامعي في العراق وتغير القيم»، المجلة الاجتماعية القومية، المجلد الخامس (يناير 1968): ص ص 3- 18.
ب-جابر عبد الحميد جابر، «الاتجاهات النفسية للشباب نحو مركز المرأة في المجتمع العراقي»، المجلة الاجتماعية القومية، المجلد السابع (سبتمبر 1970)، ص ص 25-47.
جـ-صمويل مغاريوس، «أضواء على المراهق المصري»، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1957.
د-فتحي السيد عبد الرحيم، «دراسة لبعض المشكلات وأشكال الصراع النفسي في حياة المراهقين والمراهقات في الجمهورية العربية اليمنية»، صنعاء، 1974، دراسة غير منشورة.
هـ-فتحي السيد عبد الرحيم، «دراسة للعلاقة بين الإدراك الذاتي لمعدل النضج الجسمي وبين بعض متغيرات الشخصية في المراهقة المتأخرة»، صنعاء 1974، دراسة غير منشورة.
و-فتحي السيد عبد الرحيم، «التباين في إدراك المراهقين والمراهقات لبناء السلطة في العلاقات الأسرية وعلاقته ببعض أبعاد التوافق الشخصي الاجتماعي» صنعاء، 1974، دراسة غير منشورة.
ز-فتحي السيد عبد الرحيم. «دراسة لنمط بعض الاتجاهات النفسية في المراهقة المتأخرة»، صنعاء، 1974، دراسة غير منشورة.
ح-محمد عثمان نجاتي، «المدنية الحديثة وتسامح الوالدين، بحث حضاري مقارن، الطبعة الثانية، 1974، القاهرة، دار النهضة العربية.
ط-محمد نسيم رأفت وعبد السلام عبد الغفار وفيليب جابر سيف،»دراسة مقارنة عن شخصية المتقدمين والماديين بين طلبة وطالبات المدارس الثانوية العامة«، المجلة الاجتماعية القومية، المجلس الرابع (مايو 1967) ص ص 33-54.
ي-محمود عبد القادر محمد، «التوافق النفسي والاجتماعي للشباب الكويتي ومشكلاته»، الكويت، رابطة الاجتماعيين، 1975.
ك-محمود الزيادي، «التوافق الدراسي وعلاقته ببعض متغيرات الشخصية عند مجموعة من طلبة الجامعات»، المجلة الاجتماعية القومية، المجلد الثاني (يناير 1965): ص ص 69-85.)
ل-مصطفى احمد تركي، «الرعاية الوالدين وعلاقتها بشخصية الأبناء: دراسة تجريبية على طلبة جامعة الكويت»، القاهرة، دار النهضة العربية، 1974.
3- من أهم هذه الدراسات:
أ-إبراهيم محمد الشافعي، اتجاهات الشباب في الجمهورية العربية الليبية، بنغازي، منشورات جامعة بنغازي، بدون تاريخ.
ب-سعد جلال وعماد الدين سلطان، «مشكلات طلبة مرحلة التعليم الثانوي»، نتائج البحث الاستطلاعي، المجلة الاجتماعية القومية، المجلد الثالث (يناير 1966): ص ص 3- 37.

جـ-عماد الدين سلطان، «احتياجات طلبة وطالبات الكليات والمعاهد العليا»، نتائج البحث الاستطلاعي، المجلة الاجتماعية القومية، المجلد السادس (يناير 1969): ص ص 1- 135.-
د-عماد الدين سلطان (مشرفا)، احتياجات طلاب الجامعات، القاهرة، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية-وزارة الشباب،1971.
هـ-عماد الدين سلطان، الصراع القيمي بين الآباء وعلاقته بتوافق الأبناء النفسي، القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية و الجنائية، 1973.
و-عماد الدين سلطان، «مشكلات طلاب الجامعات»، المجلة الاجتماعية القومية، المجلد الثامن (يناير 1971): ص ص 3-38.
ز-منيرة أحمد حلمي، «مشكلات الفتاة المراهقة وحاجاتها الإرشادية»، القاهرة، دار النهضة العربية، 1965.

وسواء بالنسبة لهذه الدراسات أو تلك التي أوردناها في الهامش رقم 2، يتركز التحليل على الشباب في قطاع الحضر. ومن البحوث القليلة التي خرجت عن هذا الخط دراسة خليل ميخائيل معوض عن «مشكلات المراهقين في المدن والريف والسلطة والطموح» (القاهرة، دار المعارف، 1971)، إذ تضمنت العينة التي أجريت عليها مجموعة من شباب الريف بالإضافة إلى طلبة المدارس في المدن. غير إن نتيجة لعيوب خطيرة في أسس اختيار العينة، والتحليلات التي أجريت للمادة، والمقارنات التي عقدت، لم تبرز الفروق بين فئات الشباب المختلفة في الريف والحضر.
4- تحلل هذه الدراسات بعض ملامح الشخصية في ضوء ملامح شخصية أخرى، ومن ناحية ثانية، تعتمد على أدوات بحث تقليدية وغير ملائمة لدراسة ما تتناوله من موضوعات، هي الاستخبارات questionnaires شيوعها في التراث الأوربي الغربي-والأميركي أصلا-لا ينفي عنها العجز ولا يؤهلها لكي تستعمل في حضارات أخرى.
ومن ناحية ثالثة، فانه، بسبب ضحالة الإطار النظري وربما عدم وجوده كلية ينتهي عدد كبير من البحوث إلى مجرد قوائم طويلة مما يسمى «مشكلات الطلبة في عدد من المجالات»، هي مجرد توزيعات تكرارية-يمكن أن يطعن في دقتها-لظواهر بسيطة لا ترتبط بواقعها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي. ومن ثم يبدو الشباب موضوع هذه الدراسات-كما لو كانوا يوجدون في فراغ.
5- بالإضافة إلى الاشكالات والتعقيدات وأوجه القصور المنهجية العديدة التي أوردناها في الهامشين رقم 3 ورقم 4، وربما بسببها تواجهنا اشكالات أكثر-وأشد تعقيدا-وأعصى على الحل بالتالي-في دراسة الحاجات والمشكلات. فالأسلوب الشائع-الذي أصبح شبه تقليد الآن-هو الاعتماد على قائمة أسئلة يعتقد أنها ترتبط بمشكلات معينة تطرح على المجيبين، ويتحدد بناء على إجاباتهم (نعم) أو (لا) وجود المشكلات أو عدم وجودها. والميزة الواضحة لهذا الأسلوب تتمثل في سهولته: ففي مقدور أي باحث متوسط الكفاءة أن يجرى بحثا، فما عليه إلا أن يقدم القائمة لعينة-أو حتى مجموعة-من المجيبين، ثم تفرغ إجاباتهم في جداول، وتبدأ بعض الإجراءات الإحصائية «الطقوسية»، وهذا شائع الحدوث. والاستعمال الواسع جدا للاستخبار كأداة لجمع البيانات لا يرجع إلى حدقة وثباته-وهما معيارا الكفاءة في أدوات البحث-وإنما إلى سهولة استعماله وقلة ما يتطلبه من تكاليف وجهد.
غير أن هذا الأسلوب معيب-في نظرنا-كثيرا، وأول عيوبه أنه يعتمد على الاستجابة اللفظية التي قد تأخذ اتجاها بالإيجاب أو السلب صدفة. ونعتقد أن هذا يحدث في حالات غي قليلة، وهو

السر في توصل بعض الباحثين إلى نتائج غريبة متعارضة فيما بينها، أو مع الواقع.

ومن ناحية ثانية، وللاعتبار السابق نفسه، تترك مثل هذه الدراسات حاجات ومشكلات لا تستطيع الوصول إليها، وتنتهي بوجود نوع آخر قد لا يكون موجودا على الإطلاق.

ومن ناحية ثالثة، يساعد هذا الأسلوب و الكشف عن مدى تكرار، وتوزيع الحاجات والمشكلات، ولكنه لا يكشف عن حدتها، فضلا عن حدتها بعضها بالنسبة للبعض الآخر.

والمشكلة في تصورنا، ترجع إلى إغفال الانتقادات العنيفة والتحفظات الجوهرية التي وجهت لهذا الأسلوب، حتى من الدارسين الأميركيين أنفسهم، ويعنينا هنا نقل «قوائم موني للكشف عن المشكلات» والتوسع في الاعتماد عليها، وهي أداة يندر أن يعتمد بحث في مشكلات الشباب في بلادنا على أداة غيرها. أنظر:

Ross L. Mooney, Problem Check Lists, Columbus (Ohio):The Ohio State University Press, 1950.

وتكشف دراسة عربية عن القصور فيها وتحفظاتنا عليها حين نقول عنها: «وقد اخترنا القائمة الخاصة (بطلبة المدرسة) الثانوية من هذه القوائم أساسا لبحثنا بعد تعديلها (وكان ذلك بحذف فقرات وإضافة عدد قليل آخر). وذلك لشمولها ولأنها تحدد المشكلات تحديدا عمليا براجماتيا يوصي بالخطط العلمية لخدمات مدرسية يمكن أن تواجه بها هذه المشكلات». (حلمي، مرجع سبق ذكره، ص 37).

ولقد فطن إلى خطورة هذه الاشكالات واقر بها بعض الباحثين العرب الذين دعوا إلى طرحها للمناقشة، وحاولوا التغلب عليها، و اقترحوا لذلك الاعتماد على مادة من «التعبير الحر» للمجيبين عن ظروفهم ومشكلاتهم. غير أنه لم يتحقق شيء ذو أهمية في هذا المجال. والأمر يتطلب-فيما يتطلب-تطويرا لأسلوب تحليل المضمون content analysis، وهو-مع الأسف-غير شائع الاستعمال بين المشتغلين بالعلوم الاجتماعية من العرب. (انظر، على سبيل المثال: حلمي، مرجع سبق ذكره ص 15-17).

ومن الدراسات القليلة-بل والنادرة-التي لم تقع في فخ الاستخبار«دراسة صمويل مغاريوس التي اعتمدت على ما أسماه الدارس» المنهج الإكلينيكي أو تحليل تقارير شخصية-ذاتية-عن تاريخ الحياة. لهذا جاءت ملاحظات الكاتب وتحليلاته ذات عمق وخيال نادرين. ومما يوصف له أن تظل هذه الدراسة وحيدة في اتجاهها المنهجي، فلم تقف أثرها دراسات أخرى تطوع أسلوب «تحليل المضمون» لدراسات التواريخ الشخصية، أو تكيف هذه لتسمح بالاستفادة من أسلوب تحليل المضمون (مغاريوس، مرجع سبق ذكره).

- فؤاد ذكريا، آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص 42.

الباب الأول
خلفية عامة

مرحلة الشباب 1

حدودها وقسماتها وأصل الأزمة فيها

أولا

تبدأ مرحلة الشباب youth-أو المراهقة adolescence كما تسمى في بعض الكتابات-بتخطي مرحلة بلوغ الحلم puberty أو اكتمال النضج الجنسي-بلوغ القدرة على التناسل وتيقظ الحاجة الجنسية. ويحدث ذلك عند سن الخامسة عشرة، أو قبلها بقليل. وتغطي مرحلة الشباب مدة عشر سنوات تقريبا، فتنتهي في الخامسة والعشرين أو ما حولها. فمصطلح بلوغ الحلم يشير إلى الناحية الجنسية من النضوج أو الارتقاء development (*) والتي تتمثل في اكتساب القدرة على القذف عند الذكر والحيض عند الأنثى، بالإضافة إلى الخصائص الجنسية الثانوية. أما مصطلح المراهقة، أو بدايات النضوج البدني والعقلي والنفسي والاجتماعي، فمعناه اشمل من معنى البلوغ، وتبدأ مرحلة المراهقة. التي تغطي بضع سنوات حول سن الخامسة عشرة، بالبلوغ.

وتشهد بداية مرحلة الشباب اقتراب شكل الجسم ووظائفه من آخر درجات النضج. ومن الناحية النفسية يكاد عمر الفرد العقلي يصل إلى

قمته، ويتيقظ إحساس الشخص بأنه لم يعد صغيرا، ويطالب بتوقف معاملته على أنه صغير. ومن الناحية الاجتماعية يتأكد اعتراف الآخرين بأن الشخص لم يعد طفلا، وان كانوا يترددون في الاعتراف به كرجل. وبداية الشباب هي، بهذا، نقطة تحول.

ونفضل الوقوف بمرحلة الشباب عند سن الخامسة والعشرين أو ما حولها. لان هذه هي السن التي تحدث عندها تحولات هامة في حياة الفرد: فعندها يترك التعليم بعد استكماله-عادة-ويلتحق بعمل دائم، ويتزوج، أو يسعى إلى تحقيق ذلك على الأقل، فهو، بعبارة أخرى، يترك «فترة الطلب» ويبدأ حياة الراشدين :adulthood ينزل إلى معترك الحياة ويرتبط بعديد من المؤسسات التي يتعامل معها الراشدون، ويتغير تبعا لذلك تصوره لذاته وللآخرين والمجتمع، واتجاهاته نحوهم، وسلوكه معهم.

ولسنا نرى مبررا لتقسيم مرحلة الشباب إلى فترتين: فترة شباب مبكر تنتهي عند سن العشرين أو قبلها، وفترة شباب متأخر تغطي السنوات الباقية حتى الخامسة والعشرين. فمثل هذا التقسيم-الذي يقوم على أساس فكرة بلوغ سن الحقوق «المدنية»-هو متابعة للتصنيفات الشائعة في التراث الأجنبي، والأوروبي الغربي والأميركي بخاصة، لا نجد له داعيا في المجتمعات العربية، التي لا يمثل فيها هذا الانتقال-ويتم في مراحل تختلف باختلاف الدول-نقطة تحول هامة. وبالرغم من أننا لا ننكر أبدا يأت مرحلة الشباب تتميز بتقسيمات تختلف بها-كثيرا أو قليلا-عن نهايات المرحلة، فإننا لا نعتقد أن التقسيم إلى فترتبن يمكن أن يساعد في حل هذا «الإشكال» (وبخاصة أن الدارسين يختلفون في تعيين حدود كل من الفترتين).

وبهذا نختلف مع كثيرين أن الكتاب والدارسين حول حدود مرحلة الشباب. فثمة من يحددون بدايتها بسن الثالثة عشرة، ويطلقون عليها-حتى سن الواحدة والعشرين على الأقل-مرحلة المراهقة [1]. وهناك من يبدأها بالرابعة عشرة: ويحدد فترتها الأولى بنهاية الثامنة عشرة، ويصل بفترتها الثانية-أو المتأخرة-إلى سن السابعة والعشرين [2]. ويرى آخرون أن تغطي الفترة من سن السابعة عشرة حتى السابعة والعشرين أو ما بعدها [3]. بل إن بعض الباحثين-الذين يبدءون بها عند الخامسة عشرة-يصلون بنهايتها إلى حدود الثلاثين [4]. ويراها آخرون عصية على التحديد، تختلف بدايتها

ونهايتها من فرد إلى فرد، ومن جنس إلى جنس، ومن «ثقافة» إلى «ثقافة»[5].

ويرجع بعض هذه الفروق إلى اختلاف النقاط المرجعية أو المعايير التي يعتمد الباحثون المختلفون عليها في التحديد، من جهة، والى اختلاف السياقات أو الظروف التي ترى فيها الظاهرة، من جهة أخرى. فالبعض يهتم بالنمو الجسمي والجنسي، وآخرون يهتمون بالنمو النفسي، وفريق ثالث يركز على تغير الوضع الاجتماعي والأدوار الاجتماعية. وتختلف السياقات باختلاف الطابع الحضاري، والنظام الاجتماعي. والمستوى الاقتصادي الاجتماعي، وما إليها.

ولا يقف الاختلاف في تعيين حدود مرحلة الشباب-عادة-عند الاعتبارات الشكلية. فقد تترتب عليه خلافات جوهرية حول تفصيلات ملامح الشباب. كما سنرى.

و تحديد بداية مرحلة الشباب بالخامسة عشرة أو قبلها بقليل، وتعيين نهايتها بالخامسة والعشرين أو ما حولها-وهو ما أخذنا به في هذه الدراسة يواجه تحديا خطيرا. فهو لا ينطبق بدرجة مقبولة من الدقة على قطاع كبير من شباب الريف، بل والطبقة الدنيا في المدن في الدول العربية، وهو قطاع ينضج أفراده مبكرين عن الخامسة عشرة بعض الشيء (سنة أو نحوها) ولا يستمر عدد كبير منهم في التعليم إلى ما بعد المرحلة الابتدائية، هذا إذا لم يتوقفوا قبلها-ويلتحقون بعمل دائم-في الزراعة، أو قطاع الحرف: أو الأعمال غير الماهرة غالبا: ويتزوجون ويعولون أسرا قبل سن العشرين. وهؤلاء يمثلون الجزء الأكبر من جيل الشباب في المجتمعات العربية-التي يعيش أكثر من ثلثي سكانها في الريف.

ولولا أننا-لاعتبارات سنتكلم عنها في فقرة لاحقة-نعرض في هذه الدراسة للشباب في قطاع الحضر، ولطلبة وطالبات المدارس الثانوية أو ما في مستواها والجامعات ومعاهد التعليم العالي-وهي فئة ينطبق عليها حدود مرحلة الشباب كما حددناها-لكان هذا التحدي عقبة قد يستحيل تذليلها.

ومع التسليم بأن الحدود التي اخترناها وكذلك بعض التحليلات والأحكام التي سنقدمها قد لا تنطبق على مجتمع عربي بالذات، وقد تختلف سواء بالنسبة لبدايات المرحلة أو لنهاياتها من مجتمع إلى آخر، فإننا لا نرى

أفضل منها، ولسنا نظن أنها بعيدة عن الدقة إلى درجة تثير الشك في سلامتها أو صلاحيتها. وما دمنا نركز على مناقشة القضايا العامة، ولن نتطرق إلى تفصيلات دقيقة، فان الخلاف حول سنة أو نحوها في بداية مرحلة الشباب أو نهايتها يبدو أمرا ثانويا في أهميته.

ثانيا [6]

نود من البداية أن نبرز حقيقة بسيطة-وهامة في الوقت نفسه-وهي أن الشباب ليسوا جماعة متجانسة يتفق أعضاؤها في قسماتهم. فلما كانت مرحلة الشباب تغطي فترة من العمر تزيد على عشر سنوات عادة، وفي ضوء الاختلافات الهائلة أحيانا في الظروف التي يعيش فيها الشباب ويتأثرون بها، فان من الطبيعي أن يختلف الشباب فيما بينهم في ملامحهم العضوية والنفسية والاجتماعية. ومع هذا فانه من الممكن أن نميزهم كجماعة عن كل من جماعتي الأطفال والراشدين.

تشهد بداية مرحلة الشباب تحولات واسعة وعميقة وسريعة في ملامح جسم الشباب. إذ تتلاشى الرهافة ودقة القسمات المميزة للطفولة، وتحل محلها حالة من الفظاظة النسبية الناتجة من اختلال نسب أعضاء الجسم وأطرافه، وبخاصة نسب اليدين والساقين والأنف. ولما كان نمو البناء العظمي يسبق النمو العضلي عادة، فان الشاب يعاني لفترة من توتر بالعظام. وتزداد سعة القلب بشكل يزيد على سعة الشرايين وقوتها، مما يؤدي إلى زيادة ضغط الدم على نحو تظهر آثاره في صورة إغماء وصداع وإعياء. وتنمو المعدة وتزداد سعتها، مما يترتب عليه زيادة شهية الشاب للطعام أو شرهه بمعنى ما. ويصاحب زيادة الشهية تغيرات واسعة في عاداته والرغبات فيه: يعزف الشاب عن أطعمة أو «أطباق» كان يحبها أو كانت تفرض على قائمة طعامه في طفولته، ويقبل على أصناف لم يكن يسمح له بتناولها بحسب رغبته أو لم تكن متاحة ضمن قائمة الطعام. ويحدث ذلك بتأثير عاملين، أولهما تأكيد الشاب لاستقلاله وممارسته له، والآخر، الاحتياجات الجديدة لجسمه النامي وطاقاته «الهائلة» بالنسبة لطاقات الطفل.

كما تظهر الخصائص الجنسية الأولية والثانوية، ويصبح الشاب قادرا على التناسل، بحدوث الطمث عند الأنثى وإمكانية القذف بعد تكون الحيوان

المنوي عند الذكر، ثم تنتظم هاتان العمليتان بشكل أكثر مما تكونان عليه أول الأمر. وينمو صدر الفتاة وتصبح ناهدا، ويتسع الحوض، وتمتلئ الأرداف وتميل إلى الاستدارة، ويظهر شعر العانة. ويتغير صوت الذكر فيصير خشنا عميقا، وينمو شعر شاربه وذقنه وشعر العانة. (وتستتبع هذه التغيرات تحولات بالغة الأهمية في ميول الشخص ورغباته واهتماماته سنعود إلى مناقشتها في موضوع آخر).

وبالرغم من أن النمو أمر غير جديد بالنسبة للفرد المراهق والشاب- فانه ينمو منذ أن خلق، بل ويستمر نموه هادئا لمدة سنوات أخرى بعد المراهقة، فان تجربة النمو في مرحلة المراهقة أو بداية الشباب فريدة بمعنى ما، بالنظر إلى شمولها وسرعتها والنتائج الهامة التي تترتب عليها سواء بالنسبة للشاب نفسه أو بالنسبة للمجتمع.

ويختلف الشاب من حيث السن الذي يبدأ عنده التحول من ملامح الطفولة، وفي أي الجوانب يبدأ فيها النمو. ويتباينون في معدلات نموهم العامة، وفي معدلات نمو كل من هذه الجوانب. فبعضهم يبدأ مبكرا-بعد سن العاشرة بقليل. وبعضهم يتأخر حتى الثالثة عشرة مثلا. ومنهم من يبدأ النمو عنده بنمو الهيكل العظمي، ومنهم من يبدأ نموه بالنضج الجنسي. وبالنظر إلى أن النمو أو الارتقاء العضوي لا يتحقق بالنسبة لكل الأعضاء والوظائف بشكل متسق،-والغالب أن تتجه كل الأعضاء نحو نمط محدد: ولكن بسرعات مختلفة من عضو إلى عضو-يمر الشاب عادة بفترات يكون فيها شكل جسمه وطرق أدائه لوظائفه غريبة ومثيرة للقلق. (وتتسبب هذه الحقيقة البسيطة في حدوث قلق بالغ يصل إلى درجة الفم لدى كثير من الشباب والآباء على حد سواء. وذلك لأنهم يأخذون أية مخالفة للنمو الشائع عنه-النضج المبكر، أو المتأخر، أو غير المنسق، و ما إلى ذلك-على أنها شذوذ في النمو، مع أنه ليس هناك خط سير واضح للنمو لجميع الأفراد في جميع الحالات) على أنه أيا كانت السن التي يبدأ عندها النمو والجوانب التي يبدأ بها، فانه بعد فترة البداية يتحقق شيء من التناسق بين مختلف الأعضاء والوظائف.

ويتوقف خط سير النضوج الجنسي على عوامل كثيرة، من أهمها الجنس، والمستوى الاقتصادي الاجتماعي. إذ تصل الأنثى إلى مرحلة النضج الجنسي

مبكرة عن الذكر بمدة تتراوح بين سنة وسنتين في المتوسط. والنضج الجنسي أسرع في المستويات الاقتصادية الاجتماعية العليا عنه بين الطبقات الدنيا. (وان كان تأثير مثل هذه العوامل من التعقيد بحيث لا يمكن تعيينه بوضوح ويسر).

ليس ثمة خلاف كبير حول طبيعة التحولات البيوكيمياوية التي تطرأ على الشخص مع بلوغ الحلم وبحده. فهي تبدأ بزيادة إفراز الغدة الدرقية، وتمتد إلى المجالات والمظاهر العديدة التي استعرضناها. ولكن يثور خلاف حول دلالات هذه التحولات وتأثيراتها. وعلى أية حالة، ترجع أهمية هذه التغيرات العضوية من الناحية النفسية إلى ما لها من تأثير في الوضع الاجتماعي للمراهق، وما يترتب على ذلك من إثارة اهتمامه بذاته بوجه عام. إذ تتغير المعاملة التي يلقاها الشخص من الراشدين والإقران نتيجة لهذه التغيرات الجسمية: فمن همس، إلى ابتسامات ذات معنى معين، إلى نصائح وتوجيهات ذات اتجاه جديد. فإذا أضفنا إلى ذلك الاضطراب الذي يظهر في السلوك الحركي للمراهق حتى يعيد تنظيم عاداته الحركية بما يلائم النمو الجديد، وإذا تخيلنا أثر هذا الاضطراب في نظرات من حوله، أمكن لنا أن نتصور الأثر العميق غير المباشر الذي تتركه هذه التغيرات الجسمية في نفسية المراهق. والذي يمكن أن نلخصه في تنبيه «الشعور بالذات» إلى درجة بعيدة.

ومن ناحية ثانية تتجه القدرات العقلية للشاب نحو الاكتمال، ويقترب نموه العقلي من أعلى مستوياته (حول سن السادسة عشرة)، وتبدأ القدرات والهوايات والميول الخاصة في الظهور بوضوح لم يكن ملاحظا من قبل، وذلك بعد نمو شروطها الضرورية. وينمو الانتباه والتذكر، والتخيل، وتختلف نوعيا عن مثيلاتها لدى الطفل فيزداد مدى الانتباه وعمقه، ويقوم التذكر لا على أساس آلي، كما كان من قبل، وإنما على استنتاج العلاقات الجديدة بين الموضوعات، ويصير التخيل خصبا مبنيا على الواقع والصور المجردة، غير محصور في نطاق الصور الحسية، كما كان لدى الطفل، ويبني الشاب من أحلام اليقظة عالما يحقق فيه ما لا يستطيع أن يحققه أو ما لا يمكن أن يحققه في الحاضر (وقد يدفعه هذا إلى قراءة القصص والى الرغبة في الأسفار والرحلات إرضاء لحب الاستطلاع، والرغبة في المغامرة واكتشاف

المجهول).

وباكتمال نموه العقلي وازدهار إدارته واستعداداته وملكة النقد، يتوقف الشاب عن تقبل الأفكار والمبادئ والقيم والأشياء التي يقدمها له عالم الكبار على علاتها، كما كان يفعل في طفولته، وإنما يفكر فيها ويناقشها مناقشة «منطقية» وينقدها. وقد ينتهي به هذا إلى رفض بعضها على الأقل. وقد يصل الأمر ببعض الشباب إلى تكوين موقف من الكون والناس وذاته ليس من النادر أن يتعارض مع الصور التي تقدمها لهم الحضارة ووسائل التطبيع الاجتماعي (أو التنشئة الاجتماعية) (2*) socialization المختلفة.

وتستثير هذه التحولات السريعة الخطيرة والأوضاع التي تترتب عليها حاجات جديدة لدى الشاب. فانه، إذ يقلقه ويزعجه كونه اصبح شخصا آخر مختلفا عما كان عليه منذ سنوات قليلة، ومختلفا عن كثير من رفاق سنه، وإذ تضايقه بعض الأفكار والخواطر والرغبات الجديدة التي خلقها فيه النمو، يسعى بإلحاح شديد إلى الحصول على تقبل الآخرين-الأهل، والإقران، وغيرهم-له في وضعه الجديد. ويصبح هذا شاغلا من مشاغله الملحة. ويترتب على ظهور هذه «الحاجة» ميل إلى تجريب مشاعر الراشدين (كالعطاء، والأخذ وغيرها) وممارستها، ومعاناة ما تأتي به من استجابات وردود أفعال، وما تنطوي عليه من تقبل للمسئولية.

وتشهد مرحلة الشباب تحولات واضحة وهامة في اهتمامات الشاب الاجتماعية وسلوكه الاجتماعي. فبعد أن تستيقظ في الشاب «رجولته» وفي الفتاة «أنوثتها»، ينصرف كل منهما عن الاهتمام بالعلاقات مع أفراد من جنسه، ويتجه نحو العلاقات مع أفراد من الجنس الآخر، ويميل إلى تضييق نطاق علاقاته وتعميقها. وتصبح هذه العلاقات مركز اهتمام خاص في حياتهم، تشغلهم أكثر وتعيش أطول.

وبالنظر إلى خطورة هذه التحولات، والسرعة-وربما الفجائية-التي تتحقق بها، فإنها تترك آثارا بعيدة المدى في نفسية الشاب، الذي يصبح شخصا جديدا لا يستطيع تفسير ما يطرأ عليه من نمو ولا التحكم فيه، ويتحول من كيان يفهمه ويألفه ويستطيع السيطرة عليه إلى كيان غريب يثير حيرته وشكوكه ولا يخضع لسيطرته.

وتكون هذه «الأزمة» أكثر حدة بالنسبة لأولئك الذين يتم نضجهم مبكرا. أولا، لان النمو الجسمي والجنسي قد لا يوازيا نمو عقلي واجتماعي. وثانيا، لأنه يدفعهم إلى الابتعاد عن أترابهم والانسحاب، ومحاولة الانتماء إلى جماعات الكبار، الذين لا يبدون-عادة-ترحيبا كافيا «بالقادمين الجدد» هذا إن لم يصدوهم بالفعل. (وان كان للنضج المبكر، من ناحية أخرى، نتائج إيجابية، إذ أنه يساعد الشاب على تأكيد ذاته ويمنحه مكانة مرموقة بين أترابه الإبطاء نضوجا، ولو لفترة من الزمن).

وتدفع هذه التحولات الخطيرة، غير المفهومة أحيانا، في نفوس بعض الشباب انفعالات الخوف من الذات بعد أن أصبحت غير مألوفة لهم، والآخرين-وبخاصة الآباء-نتيجة للخلاف معهم، المستقبل الذي يبدو غامضا مليئا بالاحتمالات. وقد تبلغ هذه المخاوف-نتيجة لبعض الخبرات غير الحسية، ولفرط الحساسية.

والانفعالية المفرطة أو المتطرفة التي تبدو في سهولة الاستثارة، وقضم الأظافر، وبعض اللوازم العصبية أو العصبية الأخرى وتطرأ على الشاب وتعيش معه فترة طويلة-هي عرض من أعراض حالة عدم التكيف، وهي في الوقت نفسه سبب في عدد من مشكلات التفاعل الاجتماعي والعلاقات الشخصية بصفة خاصة. وفي حين يرجع بعض من الانفعالية الزائدة إلى التحولات العضوية التي تطرأ على كيان الشاب، فإنها ترجع في المحل الأول إلى بعض ظروف الارتقاء النفسي الاجتماعي، ومن أهمها عدم سواء العلاقات الأسرية، أو تسلط الأبوين أو أحدهما أو الإحباط المتكرر لرغبات الشاب وحاجاته، أو التوقعات التي لا يقوى الشاب على تحقيقها وبخاصة في مجال الدراسة، أو الإخفاق في التجارب العاطفية الأولى، أو ما إلى ذلك.

ويغلب على الشباب تقلب الحالة المزاجية-من الشعور الغامر بالسعادة والراحة إلى الإحساس بالانقباض. وذلك لأنهم فريسة سهلة، لأحلام اليقظة من جهة، والمخاوف والقلق والغيرة والحسد من جهة أخرى. وتكون حالة التقلب المزاجي هذه أقوى وأشد وضوحا في مراحل الشباب الأولى منها قرب نهاية مرحلة الشباب. وتختلف دواعي تقلب الحالة المزاجية من أزمة الهوية والارتقاء النفسي الاجتماعي في سنوات الشباب الأولى، إلى مشكلات

العلاقات الاجتماعية والعاطفية والتحصيل الدراسي بعد ذلك، إلى هموم الاستقرار في عمل والزواج في سنوات الشباب المتأخرة. وفي حين يعتبر تقلب الحالة المزاجية سمة من سمات مرحلة الشباب بعامة، فان حدته أقوى عند الإناث منها لدى الذكور، كما أن دواعيه تختلف باختلاف الجنس.

ويترتب على هذه التحولات حدة في الطبع تؤدي إلى سرعة الغضب، وربما الثورة على كل ما يسبب إحباطا، حتى حين يكون بسيطا. وفي بعض الحالات قد لا يتجه الغضب إلى الآخرين أو الأشياء، وإنما يتجه نحو الذات. ويزيد من تعقيد الموقف عجز بعض الشباب عن السيطرة على انفعالاتهم وترويض-أو احتواء-بعض مشاعر العدوان.

وفي حالات غير قليلة، تستثير التغيرات التي يأتي بها النمو انفعالات الغيرة والحسد نتيجة للفروق بين الشباب في ملامحهم الجسمية وقدراتهم الجنسية، مثلا. وقد يعمد بعضهم إلى سلوك «تعويضي» سوي أو غير سوي يخففون فيه من شعورهم بالنقص بالنسبة إلى غيرهم.

وباتساع شبكة العلاقات الاجتماعية واتجاهها نحو الكبار، تظهر لدى بعض الشباب مشاعر التودد نحو الآخرين والدفء العاطفي. وتصل في حالات متطرفة إلى حد التوحد identification[*3] مع البعض. ويحدث هذا بصفة خاصة من الإناث.

غير أن أخطر جوانب أزمة المراهقة أو بداية الشباب هي ما يعرف باسم أزمة الهوية identity-crisis التي تنشأ من عدم قدرة الشاب على فهم ذاته «الجديدة»، وتقبلها، والتعامل معها، وهي أزمة يتوقف على حلها استمرار نضوج الشخص بشكل سوي.

وهذا، في نظر البعض، هو مصدر كثير من المشكلات لهذه المرحلة. فمعظم مشكلاتها، كما يقول كارل يونج Carl Jung[7] رهينة بتيقظ الشعور (والذي يتم) حين يستطيع الفرد الربط الشعوري بين المحتويات النفسية، أي تكوين الأنا، ثم التمييز بين السلسلة المتصلة بين المحتويات النفسية أي الأنا، وبين الأبوين (والآخرين بصفة عامة). وهي العملية التي يسميها يونج «الميلاد النفسي»... (ويتم) في سن البلوغ، من انبثاق الحياة الجنسية. فالطفل، على حد تعبير يونج، لا يشعر بآنيته-بوضوح كاف على الأقل. فلا شيء في حياته يعتمد عليه هو، لأنه هو نفسه يعتمد على الآخرين: ويكون

محبوسا في الجو النفسي لأبويه، أو يكون بمثابة «من لم يولد بعد». وإذا صادف مشكلات في حياته، فإنها لا تحدث من التأثير في نفسه ما تحدثه في نفس الشاب. فالحالة التي تسببها مشكلة ما تنشأ عندما تظهر-جنبا إلى جنب مع مجموعة من محتويات الأنا-مجموعة أخرى لها القوة (نفسها) التي للانا، وهذا يؤدي إلى انقسام الفرد على نفسه، وهي الحالة التي تدل على وجود مشكلة.

وبهذا المعنى-في رأي كارل يونج وكثيرين من علماء النفس-تكون المراهقة أو بداية الشباب، وهي المرحلة التي تظهر فيها الأنا، هي السن التي تظهر عندها المشكلات في حياة الفرد لأول مرة.

ويميل الشباب إلى أن يكونوا-بالقياس إلى الأطفال والراشدين على السواء، وبفضل الطاقات التي يفجرها فيهم النضج الجنسي والجسمي والعقلي مندفعين وتلقائيين ومتفائلين. ولنقص تجربتهم في الحياة، ولأنهم لم يرتبطوا بعد بالتزامات وعلاقات مقيدة، فان نظرتهم إلى الحياة تتسم بمثالية (ورومانسية) وربما ببراءة لا توجد بالدرجة نفسها عند الكبار.

ولرغبتهم في اكتشاف العالم-وما زال جزء منه على الأقل مجهولا لهم، ولإحساسهم بأن وسائط التطبيع الاجتماعي، والنظام التعليمي بخاصة، تقدمه لهم في صور غير حقيقية أحيانا، فانهم يميلون إلى أن يكونوا مغامرين محبين للاستطلاع ويحسون بأن طاقاتهم الهائلة لا تؤهلهم لفهم العالم فقط بل ولتغييره أيضا، وربما أحس بعضهم بأن من مسئولياتهم تحقيق ذلك.

وبتطرفهم واعتدادهم بذواتهم، فانهم لا يرتاحون إلى الخضوع إلى «السلطة» التي يجدونها مقيدة لحركتهم كافة لإيجابيتهم. وقد يصل هذا الشعور ببعضهم إلى حد عدم احترامها وربما تحديها صراحة. وبالنظر إلى طاقاتهم الهائلة ولنقص خبرتهم في الحياة، يقبلون على ما فيها من إشباع دون أن يأبهوا كثيرا بنتائج تصرفاتهم.

ولما كانوا لم يعيشوا الماضي، فليس فيه عندهم ما يجعلهم يحنون إليه أو يعتزون به. وبما أن الحاضر ليس من صنعهم ولا يشاركون في إدارته، فليس فيه ما يدفعهم إلى التمسك به، فضلا عن الدفاع عنه. أما المستقبل فانه بهم ولهم رضوا أو أبوا، وهو مفتوح غير متعين، ومن ثم فهو مجال

خصيب لأحلامهم وآمالهم وطموحاتهم، تصور لهم طاقاتهم البكر غير المجهدة انهم قادرون على أن يصنعوا فيه المستحيل.

ولهذا تبدو مرحلة الشباب في نظر الراشدين فترة نقص في الشعور بالمسئولية وممارستها، وتمرد، بل وثورة تتجه إلى الهدم لا البناء.

ومن الناحية الاجتماعية، يتسم وضع الشباب في شبكة العلاقات الاجتماعية، علاقاتهم بأسرهم وأقربائهم والآخرين بنوع من «الهامشية» marginality. فهم قد تخطوا مرحلة الطفولة، ويحرصون على نفى انتمائهم إليها، ولكنهم لم يقبلوا بعد كأعضاء كاملي العضوية في جماعات الكبار.

وتتسم مشاعرهم واتجاهاتهم نحو الآخرين بشيء من التوزيع. فهم موزعون بين ضرورة طاعة الكبار-وربما مسايرتهم إلى درجة الانصياع من جهة، وبين تحفظاتهم الكثيرة على عالم الكبار الذي لم يشاركوا في صياغته، وليس لهم دور في إدارته، وميلهم إلى التمرد وربما الثورة عليه، من جهة أخرى. أي إن مشاعرهم نحو الكبار تتوزع بين التبعية والاعتماد، المترتبين على خبر المرحلة الطفولة، وبين الرغبة في الاستقلال وتحقيق الذات، وهي أحد مطالب النمو في سنهم. ومن هنا فان جوهر موقفهم من الكبار هو التناقض الوجداني.

ولهذا تلعب جماعات الأقران والجماعات الأخرى، دورا هاما في حياة الشباب حتى لتبدو تعبيرا عن هويتهم ومصدر أمنهم ومبعث اعتزازهم، ويصبح التكريس المتطرف أحيانا من جانب بعض الشباب لقضايا قومية أو عالمية معينة مهمة العمر.

ومما يزحم مرحلة المراهقة أو بداية الشباب بالمشكلات، أنها فترة تغير فجائي في الجماعات التي ينتمي إليها الفرد، كما يذهب كورت ليفين [(8)] Kurt Lewin «فبعد أن كان المراهق يعد نفسه، ويعده الآخرون، طفلا، أي ينتمي إلى جماعة الأطفال، أصبح لا يريد أن يعامل على أنه طفل، واصبح يحاول جديا أن ينتزع نفسه من الأمور الطفيلية، ويدخل حياة الراشدين... والتغير في الانتماء من جماعة الأطفال إلى جماعة الراشدين، هو انتقال إلى وضع يكون من الناحية السيكولوجية مساويا لدخول منطقة مجهولة...» وهذا يعني-من وجهة نظر ليفين «دخول منطقة لم يتم تكوينها بعد من الناحية المعرفية،... فدخول جماعة جديدة بمثابة دخول مجال غير مكتمل

البناء من الوجهة المعرفية». [9]

ويزيد الأمور تعقيدا أن ما يتعلمه المراهق-الشاب-من الكتب ومن الراشدين عما يجب أن يفعله يتناقض مع واقع الحياة اليومية. ولما كان لا يستطيع أن يحمل في شبابه القيم التي حملها في طفولته، فان إدراكه لمستقبله يكون غير ثابت، مما يعرضه لصراع وتوتر يشتدان كلما كانت هذه القيم وما يترتب على الصراع بينها من مشكلات في مركز رئيسي من حياته.

وفي معظم المجتمعات المعاصرة، حيث يكون التحول من الطفولة إلى الشباب في شكل «أزمة» وبدون اتصال عضوي، فان الشاب يكون في موقف الشخص الهامشي، فيصبح بمعنى ما «لأمنتم»، وهو وضع يتسم بعدم الاستقرار الوجداني، والحساسية الزائدة، والميل السلوك المتأرجح بين طرفين بعيدين، فهو أما يميل إلى الثورة أو إلى الخجل والانسحاب، في صراع دائم بين الاتجاهات والقيم.

مرحلة الشباب، هي إذن، من ناحية أولى، مرحلة تغير جذري-كمي ونوعي جذري في ملامح الشخصية.

وهي، من ناحية ثانية، مرحلة تغير سريع متلاحق لا يترك لبعض الأفراد فرصا كافية لإعادة التنظيم والتكيف. ومن ثم فهي فترة «يضطرب فيها اتزان الشخصية، ويرتفع مستوى توترها بحيث تصبح معرضة للانفجارات الانفعالية المتتالية وتختل علاقاتها الاجتماعية بأعضاء الأسرة وأصدقاء المدرسة»[10]. ومن هنا تظهر مشكلاتها التي سنتكلم عنها في الفصول التالية.

وهي، من ناحية ثالثة، عملية غير بسيطة، وإنما تتميز بدرجة عالية من التعقيد والتشابك، تتداخل فيها عوامل جسمية ونفسية واجتماعية وحضارية عديدة، تلعب-بشكل أو آخر-دوراً حاسما في تحديد مسارها ونتائجها.

ولهذا فإنها، من ناحية أخيرة، تختلف في مسارها وما يترتب عليها من مجتمع إلى آخر، ومن حضارة فرعية إلى حضارة فرعية أخرى.

وهذا ما يدعونا إلى أن نعتبر مرحلة الشباب مرحلة «أزمة» اللازمة هنا على الأقل، لا تعني الكارثة بالضرورة، بل هي لا تعني ذلك على الإطلاق-ومثل هذا الفهم هو الذي يدفع البعض إلى رفض فكرة «الأزمة»، «الأزمة»-

بعكس ذلك-تعني «مشكلا»، أي تنطوي على مشكلات إلى درجة تدعو إلى الاهتمام، وربما بعض القلق.

وليس من السهل أن نقدر حدة الأزمة بدقة، ولكنها بالقطع ليست هينة. فبالرغم من الهدوء النسبي الذي تتسم به حركة الشباب في معاهد التعليم والسير العادي للأمور في مواقع كثيرة أخرى، فان ثمة شيئا يجرى تحت السطح. وما الإضرابات والمتمردات والسلوك «غير الاجتماعي» وما إليها سوى مؤشرات على ذلك. فمعظم الشباب في مجتمعاتنا يعانون. بعضهم يعاني في هدوء أو صمت لا يكشف عن أزمتهم غير الأطباء النفسيين، أو أجهزة الشرطة والقضاء، أو بعض المربين ذوي البصيرة. والبعض الآخر تدفعه المعاناة إلى التمرد، وقد تدفعه إلى الثورة، أو حتى إلى الانتحار.

ثالثا

وهنا يثور سؤال هام: ألام ترجع أزمة المراهقة أو بداية الشباب؟ هل ترجع إلى عوامل بيولوجية ونفسية هي من طبيعة النمو، ومن ثم لا سبيل إلى تفاديها؟ أو أنها، على العكس من ذلك، رهينة بعدد من الظروف الاجتماعية والحضارية، وتكون بذلك غير حتمية بالضرورة؟ لنستعرض عددا من التفسيرات التي يضمها تراث العلوم الاجتماعية في هذا الصدد، وهي تفسيرات كانت لها آثار واسعة وعميقة في التفكير والبحث والكتابة في الموضوع منذ بداية هذا القرن وحتى الآن.

من التفسيرات المبكرة لازمة المراهقة أو بداية الشباب نظرية جورج ستانلي هول George Stanley Hall، وتعرف بنظرية الشدة والمحن [11] stress and strain، وتقوم على أساس أن الفرد-الإنسان-يلخص في حياته تجربة البشرية كلها-من البدائية، إلى فترات المعاناة وآلام والجهد، إلى مرحلة النضج التي تحققت بالمدنية الأوربية الغربية. وتعتمد النظرية على أساس بيولوجي، وتستند إلى وراثة الخصائص البيولوجية للجنس البشري التي تكمن في تركيب المورثات genes، فالطفل حتى الرابعة يمثل المرحلة «البدائية» «شبه الحيوانية» في تاريخ الإنسان. أما المراهقة وبداية الشباب فهي مرحلة «التحول الصعب» من البدائية إلى التمدين، ومن هنا تأتي العاصفة والمعاناة.

وتبعا لهذه النظرية فان مرحلة المراهقة هي فترة «ميلاد جديد»

مصحوب-بالضرورة-بعديد من التوترات وصعوبات التكيف. فهي «تشهد» بزوغ أرقى السمات الإنسانية وأكملها«، وفيها تظهر وظائف هامة لم تكن موجودة من قبل. وتتم كل خطوة ارتقائية بنوع من الانهيار للجسم والعقل والأخلاق. ويؤكد «الجنس» تحكمه وتسلطه في مجال بعد مجال، ويباشر تأثيره وفاعليته «المدمرة» من خلال صور عديدة من الرذيلة السرية، والمرض، وإضعاف الوراثة، ويسوق الروح إلى سواها أو عدم سواها، وينتهي بآلاف الشباب كل سنة إلى الانهيار... وتظهر مشاعر عديدة بالرفض تجاه البيت والمدرسة، وتنتشر حالات الهروب. وتنبثق الغريزة الاجتماعية فجأة، وتستيقظ مشاعر الحب. فهي سن تيقن المشاعر والدين، وتقلب المزاج، يبدو العالم فيها جديدا وغريبا. ويبزغ اهتمام تجاه الراشدين والعمل... ويزيد الطموح، ويظهر ميل إلى تضخيم كل خصلة وملكة، والتطرف فيها. انه «ميلاد جديد عجيب مثير».

والى حياة «الاستقرار والدعة»، والى «الجو الفيزيقي والنفسي» الذي خلقته الحضارة الصناعية، يرد جورج ستانلي هول كثيرا من «مظاهر الضعف في البنية» و «تقلب المزاج» التي بدأت-في عهده-تظهر على الشباب، والى نظام تقسيم العم ل الجديد الذي ترتب على التقدم التكنولوجي، يرجع مشكلات التدريب والتخصص وسوء التكيف في العمل التي يعانون منها.

وبالرغم من أن سيجموند فرويد Sigmund Freud[(12)] يختلف مع جورج ستانلي هول في نظرته إلى الرغبات الجنسية على أنها تبزغ في مرحلة المراهقة، فهو يميل إلى أن يراها تأخذ شكلا جديدا فقط-فانه وفق معه في التركيز على التحول العضوي والجنسي بصفة خاصة، وفي تصور المرحلة على أنها مرحلة «شدة ومعاناة» وفي إغفال اثر الواقع الاجتماعي والحضاري إلى حد يكاد يكون تاما.

ويتم الانتقال من مرحلة إلى أخرى في دورة حياة الفرد في رأي فرويد تبعا لعوامل بيولوجية، وفي استقلال واضح عن التأثيرات البيئية-الاجتماعية والحضارية. ففي مرحلة المراهقة وبداية الشباب، وهي المرحلة التي يسميها التناسلية genital، ومع بزوغ الأنا الأعلى super ego [(4*)]، تظهر لدى الفرد الصراعات العقلية بصدد الإشباع الجنسي، والغريزي بصفة عامة، وهي مرحلة إرهاق للانا ego [(5*)] بسبب عجزه عن التوفيق بين المطالب الغريزية-

مطالب اللهو id [(*6)] المتمثلة في الإشباع الجنسي الغيري-وبين مطالب الضمير-الأنا الأعلى، وهو متزمت عادة.

ويضيف فرويد إلى ذلك تصوره للمحنة والشدة في أزمة المراهقة من خلال علاقة الشاب-أو الفتاة-بالوالدين: أحدهما كموضوع للإشباع الجنسي-والعاطفي بعامة-والآخر كمنافس، وهي علاقة تنشأ في بداية مرحلة الطفولة، وتصل إلى حدود جديدة في سن المراهقة.

ولذلك تتميز مرحلة المراهقة أو بداية الشباب عند فرويد-بشدة الأعراض العصبية neurotic symptoms [(*7)] التي ترجع إلى طبيعة النمو الجنسي من الطفولة إلى المراهقة. فالرغبات الجنسية التي كانت قد هدأت أثناء فترة الطفولة تظهر مرة أخرى بقوة عظيمة، وتستيقظ الدوافع العدوانية السابقة، وتضطر نسبة من الدوافع الجنسية الجديدة إلى أن تكبت وتظهر في صورة ميول عدوانية هدامة. ويزيد من تعقيد الأزمة ما يطرأ على الشخصية من تنظيمات جديدة عديدة.

وبحسب رأي فرويد، فان كثيرا من صور السلوك الطفيلية في مرحلة المراهقة وبداية الشباب ربما كانت بقايا أو آثار لعمليات الكبت repression[(*8)] والقمع suppression [(*9)] «التي تحدث لبعض التصرفات والرغبات في مرحلة الطفولة.

وعلى حل أزمة علاقة الشاب «المشكلة» بكل من الأبوين، أو بعبارة أخرى على فك ارتباطه المرضي بكل منهما، يتوقف-في رأي فرويد-اجتيازه لمرحلة الطفولة وبلوغه مرحلة النضج الاجتماعي.

يعتبر فرويد المراهقة وبداية الشباب إذن المرحلة الأخيرة في عملية النمو النفسي الجنسي، وهذه المرحلة-التي يسميها فرويد «المرحلة التناسلية» كما ذكرنا-تتميز بملامح ارتقائية هامة، منها التحول عن عشق الذات، واحترام الواقع، ونمو الميول الجنسية الغيرية. وهي، فضلا عن هذا، فترة قلق: وبخاصة فيما يتعلق بالدوافع الجنسية التي تحملها ظروف حضارية كثيرة. (غير أن هذا الإحباط أو الكبت ليس سلبيا تماما، وذلك لأنه من خلال الإعلاء sublimation[(*10)] تتجه بعض الدوافع المكبوتة إلى مسارات مقبولة اجتماعيا. ومن هنا-في نظر فرويد-تتسع اهتمامات الفرد).

والى علماء الاجتماع والانثروبولوجيا يرجع الفضل في اكتشاف هام-

وبسيط في الوقت نفسه-مضمونه أن أزمة المراهقة أو بداية الشباب تختلف في شكلها ومضمونها وحدتها من مجتمع إلى مجتمع، ومن حضارة إلى حضارة، وأن المراهق أو الشاب يعكس في أزمته-في المحل الأول-ظروفا اجتماعية وحضارية معينة لا ظروفا بيولوجية ونفسية. فالأزمة لا تكون استجابة لتغيرات داخل الفرد نفسه، وإنما تكون نتيجة لاستجابة البقعة-أي المجتمع والحضارة-التي يعيش فيها للتغيرات التي تطرأ عليه.

وتذهب التحليلات الحضارية الاجتماعية لمرحلة الشباب إلى أن الأزمة-التي تردها التحليلات النفسية إلى تحويلات بيولوجية شبه ضرورية-ليست عامة ولا حتمية، وإنما هي تتباين باختلاف الأبنية الاجتماعية والأنساق الحضارية. وهو تفسير بدأ يشيع منذ أواخر العشرينات من هذا القرن.

ومن نماذج الدراسات الكلاسيكية في هذا المجال، دراستان لمارجريت ميد Margaret Mead، أولاهما عن المراهقات في مجتمع ساموا [(13)(*11)] Samoa). وتبدأ ميد دراستها بتساؤل هام: هل المراهقة هي-بالضرورة-فترة عاصفة وأزمة لا سبيل إلى تفاديهما؟ وفي ضوء الشواهد العديدة التي قدمتها لها الملاحظة، تجيب ميد على التساؤل بالنفي. فالفتاة الصغيرة في ساموا تختلف عن رفيقتها التي تمر بمرحلة النضج الجنسي في ناحية رئيسية واحدة، هي أنه يوجد عند الفتاة الأكبر (سنا) تغيرات جسمية لا توجد عند الأصفر. فليست هناك أية فوارق كبيرة في الوضع الاجتماعي تميز الفتيات المراهقات عن الفتيات اللائى سيصرن مراهقات بعد سنتين-مثلا-أو عن الفتيات اللائى كن مراهقات منذ سنتين.

وتفسر ميد عدم وجود المراهقة في ساموا ووجود أزمة مراهقة في المجتمع الأميركي-كنموذج للمجتمع الصناعي الحديث-بما يأتي:

١- إرخاء الزمام للنشء في ساموا، فلا ضبط عنيف في أي شيء. وهذا يجعل النمو أو عملية النضوج سهلة بسيطة. بعكس الحال في المجتمع الأميركي حيث يمتد نطاقا الضبط الاجتماعي الصارم ليشمل كل جوانب الشخصية والقيم والاتجاهات وأساليب السلوك بخاصة.

وبقدر ما يتسم التدريب على المهارات الفيزيقية بالصرامة، في مجتمع ساموا، فان التدريب على الانضباط الاجتماعي يتصف بالمرونة: فالطفل يأكل وقت أن يشاء، ويلعب على النحو الذي يحلو له، وينام حين يطيب له

ذلك، ولا يلتزم بشكليات الاحترام والتبجيل في التعامل مع أبويه والكبار. وحتى في الحالات التي تواجه فيه حاجة ما-كالجنس مثلا-بحواجز من التحريم والتجريم أقسى وأعنف مما تواجهه بها مجتمعاتنا، فان وضوح التحريمات وحسمها، «والطبيعة» التي تقابل بها، تجعل معاناة الشباب هناك منها أقل من معاناة الشباب في المجتمع الأميركي من التحريمات والقيود غير الواضحة ولا الحاسمة و «غير المنطقية» إلى حد بعيد.

2- قلة البدايل التي يكون على الشاب أن يختار من بينها، ووضوح «المجال» نسبيا في ساموا، في مقابل كثرة الأشياء التي يكون على الشخص أن يختار منها، وتعقد «المجال» وعدم وضوحه بالتالي، وتناقض الأسس التي تحكم الحالات المختلفة-بل والحالة الواحدة في بعض الأحيان-في المجتمع الأمريكي. ومن ذلك، مثلا، تعارض القيم المعلنة مع السلوك الفعلي، والتناقض بين ما يسمح به للرجل وما يسمح به للمرأة، وبين ما تستبيحه الطبقات التي تحكم لنفسها من فرص الحياة، وما تسمح به للطبقات الأدنى.

3- المساواة في المعاملة بين الأطفال بغض النظر عن ترتيب الاخوة، والسن، والجنس، وهو ما لا يحدث في المجتمع الأمريكي.

4- عدم وجود علاقة حميمة بين الآباء والأبناء في ساموا، إذ تتجه العلاقة إلى الجماعة كلها دون تخصيص قوى، بعكس الأمر في المجتمع الأمريكي، حيث تكون علاقة الآباء بالأبناء-في الطفولة بخاصة-وثيقة حميمة.

5- النظر إلى حقائق الجنس والحياة والموت، وغيرها، على أنها موضوعات تعنى الصغار كما تعنى الكبار في ساموا. أما المجتمع الأمريكي فيضرب ستارا من السرية أو الصمت على بعض الحقائق بالنسبة للأطفال والشباب، فإذا أثاروها لا يجدون غير التضليل في معظم الأحيان.

6- ويترتب على هذه الأمور كلها ندرة الأعراض العصبية والمواقف التي تبعث في النفس الخوف أو القلق أو الألم في نفوس الشباب في ساموا.

وفي دراسة كلاسيكية أخرى (14) تناقش مارجريت ميد الموضوع نفسه-أزمة المراهقة-من زاوية أخرى. وموضوع هذه الدراسة هو مجتمع المانوس Manus (12*). في هذا المجتمع يتمت ع الطفل بدرجة كبيرة من الحرية، ويعود ويمرن على الاعتماد على النفس، واكتساب خبرات حياته من تجاربه

هو: فلا شفقة زائدة ولا تدليل مفرط. وتتسم تصرفات الآباء تجاه الأبناء الأطفال بشيء من الشدة الظاهرية فقط، فهي تصدر عن رغبة في تعويد الأبناء تحمل مسئوليات الحياة واحتمال مشاقها دون تعريضهم لألم مفرط أو خطر يتهدد حياتهم. ومن ثم يكبر الأطفال أشداء صلابا.

ولا يفرق المانوس في المعاملة بين الذكور والإناث، وان كانوا يميزون بين الجنسين في تقسيم العمل وتوزيع مسئولياته.

ويحتفل المانوس بالبلوغ الجنسي عند الفتى والفتاة، وهي مناسبة تتم عندها الخطوبة للزواج، وتتفرغ الفتاة بعدها لإعداد نفسها لتحمل مسئولياتها كزوجة وأم. ويعلن للجميع عن بلوغ الفتاة الحلم-ظهور الحيض لأول مرة-بطريقة طقوسية حاسمة وواضحة لا تترك مجالا للشك أو الجهل. ولا يقتصر ذلك على أهل الفتاة، وإنما يمتد ليشمل أقاربها، ورفيقات السن، وكل الجماعة. وكما يتم إعلان بلوغ الحلم وفق طقوس محددة يشارك فيها في وقت أو آخر كل أفراد الجماعة، تعين للفتاة خلال سني الانتظار من بلوغ الحلم حتى الزواج مسئوليات وحقوق محددة. وهذه فترة انتظار قلق لا يعكر هدوءها غير بعض النزوات الجنسية للفتاة. أما الفتى فيمر هو الآخر بطقوس خاصة لتأكيد بلوغه، ثم يتجه لاكتساب مهارات مناسبة لدوره كعضو منتج مفيد للجماعة، فيتدرب على القتال والصيد وركوب البحر، ويتعلم بالإضافة إلى ذلك شيئا من السحر، الذي يرونه ضروريا لفهم أسرار الكون وحل مشكلات الحياة.

في المجتمعات البدائية وفي بعض المجتمعات الزراعية البسيطة، إذن، يتم الانتقال من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد من خلال:

1- سلسلة من الطقوس يتحقق بها-على المستوى الرمزي بالطبع-تخلى الأشخاص عن ملامح الطفولة واكتسابهم خصائص الراشدين، وتتضمن هذه الطقوس الختان، والوشم، وغيرهما، كشارات تحول.

2- الفصل بين الجنسين أو إعادة تشكيل العلاقات بينهما.

3- المعارضة التامة بين مراحل العمر المختلفة من خلال عمليات طقوسية، مثل الحب، والصيد، وما إليهما.

4- ائتمان الشخص على التقاليد والأعراف «القبلية» وحصيلة تجارب الجماعة في الحياة كالصيد، والحرب، والحب وغيرها.

5- تخفيف الضغوط الاجتماعية الخارجية على الشخص. والاعتماد أكثر فأكثر على الضبط الداخلي.

وتتضمن طقوس البلوغ الهزؤ من تصرفات الطفولة، وامتحان الفتى معنويا وماديا، وتعريضه لبعض التجارب القاسية، وربما تعذيبه بشد شعر الرأس واقتلاعه، أو الضرب فوق الرأس، أو إحداث جروح في الجسم، أو ما إلى ذلك. ولكي يجتاز الفتى الامتحان، عليه أن يتحمل هذا بدون التعبير الواضح عن الألم أو الانهيار. وإذا لم يستطع ذلك، فانه يحرم من الحقوق والامتيازات التي تمنح للبالغين، وهو أمر يجلب له العار.

وواضح أن طقوس البلوغ ليست عبثا. قد تتسم الطقوس بالنسبة للفتى من المانوس بالخشونة أحيانا، حتى لتتضمن ألوانا من التعذيب البدني والنفسي. لكنها، على عكس ما يتصور الملاحظ غير المدقق، ذات مغزى كبير في حياة الفرد والجماعة. إذ تقصد بها أمور هامة، منها:

1- اختبار قدرة الفرد على تخطي مرحلة الطفولة، ومن ثم فهي تسمح بتفادي الفشل في تحمل مسئوليات الراشدين أو الشباب.

2- تلقين الفتى مسئوليات المرحلة القادمة ومهامها، وتكرهه في خصائص المرحلة السابقة، فتساعد على تخطي مجال سابق مألوف دون أسف كبير: وتدفعه إلى إعادة التنظيم والتكيف بدرجة معقولة من الكفاءة.

3- تعلن للآخرين أن الفرد لم يعد طفلا، ومن ثم تحول دون استمرار معاملته كطفل، فهي بمثابة «بطاقة هوية».

ومن ثم فان المراهقة-والشباب-في مجتمع المانوس لا تعنى حياة جديدة، وإنما مجرد التخلص من بعض عناصر اللعب في الحياة القديمة. والفتاة لا تتحمل مسئوليات جديدة تماما، وإنما هي تتخلص من بعض المسئوليات القديمة لتؤدي المسئوليات الأخرى بكفاءة أكثر. وهي لا تدخل في علاقات جديدة تماما، ولكنها تركز على بعض العلاقات وتسقط بعضا آخر.

ولهذا كله، في رأي مارجريت ميد، يكون الانتقال من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد عبر مرحلة الشباب حاسما: قد يتضمن بعض المعاناة اللحظية، ولكنه لا يترك فرصة لحدوث أزمة. وهذا يختلف عما يجرى في المجتمعات الحديثة المعقدة.

فمن ناحية أولى، ليس ثمة إجراءات أو ترتيبات يتم بها انتقال الفرد من

الطفولة إلى المراهقة إلى الرشد، بالسهولة واليسر والهدوء نفسها التي يتحقق بها ذلك في المجتمعات البدائية. بل، على العكس من ذلك، ليس من النادر أن تتمثل استجابة الكبار للتغيرات الجسمية والنفسية التي تطرأ على الفرد في مرحلة التحول في شيء من الاستهزاء، أو على الأقل التفكه. بل إن مشكلات نموه-عيوب النمو الجسمي مثلا-قد تواجه بالسخرية، مما يسبب للشباب قلقا بالغا. (ولعل من أهم مصادر هموم المراهقات في مجتمعاتنا تعليقات الآخرين على بعض ملامحهن، وبخاصة حين يكون نمو بعض أعضائهن-كالثديين، أو الأرداف، أو شعر الرأس، أو الأنف: أو غيرها-غير مطابق لمواصفات الجمال السائدة في المجتمع، وتكون التعليقات جارحة للكبرياء في بعض الحالات).

ومن ناحية ثانية. لا توجد في الحضارات تحديدات واضحة لمسئوليات مراحل الطفولة والمراهقة والشباب. ومن ثم يجد الفرد الذي يتخطى مرحلة الطفولة نفسه في مجال غير متعين لا تزيده عملية التجربة والخطأ إلا غموضا.

ومن ناحية أخيرة، لا تحدد المجتمعات الحديثة نقطة من عمر الفرد أو تجربة في حياته ينتقل بها من الطفولة إلى الشباب أو إلى الرشد، فلا النضج الجسمي-الجنسي، ولا العمل، ولا الزواج، «بطاقات هوية» تدل على اكتمال النضج. بل إن المجتمعات تحدد أعمارا مختلفة للنضج في الحالات المختلفة. فسن المسئولية الجنائية هو السادسة عشرة، وسن التجنيد هو الثامنة عشرة، وهو سن الزواج بالنسبة للذكور، وسن ممارسة الحقوق المدنية هو الواحدة والعشرون، وسن الترشيح للمجالس النيابية هو الثلاثون، وهكذا.

وتعتبر نظرية كورت ليفين Kurt Lewin، وتعرف باسم نظرية المجال field theory(13*) محاولة للتوفيق بين التفسيرات النفسية المتطرفة والتفسيرات الاجتماعية الحضارية.

والمشكلة في المراهقة والشباب-في رأي ليفين-تكمن في أن الشاب لا يعرف بوضوح كاف من هو، وما المطلوب منه، وما المسموح له به، وما يقبل منه. وهذا مما يعكس وضعه كانسان هامشي.

والفكرة الأساسية في محاولة التوفيق، هي أن القوى الاجتماعية

والحضارية لا تؤثر في الشباب بمجرد وجودها الموضوعي، ولكنها تؤثر حين تصير جزءا من المجال النفسي لهم، سواء كان ذلك بطريقة شعورية كعلاقات الفرد بالآخرين أو بطريقة غير شعورية كوضع الفرد الطبقي مثلا.

أزمة المراهقة وبداية الشباب هي، إذن، أزمة نمو أو ارتقاء على حد تعبير مصطفى سويف.. فيها يحقق الشخص وثبة، أو نوعا من الوثبة-في نضوجه [15].. بمعنى الارتقاء فيها في اتجاهين-في الآن نفسه-اتجاه «الفردية»، واتجاه «الاجتماعية». فمن ناحية أولى، تؤدي التغيرات العضوية المفاجئة إلى قلق الشاب واختلال الاتزان الذي كان متحققا بينه وبين نفسه، وبينه وبين الواقع بكل عناصره، هذا من جهة أولى. وتؤدي، من جهة ثانية إلى تغير تصور الشخص لذاته، فبعد أن كان يكشف عن ذلك إهمال الهندام والتنسيق والنظافة إلى حد ما، ترتفع قيمته ليصبح أحيانا بؤرة الشخصية (وهو أمر يساعد في تدعيمه نظرات الآخرين والقيم الاجتماعية. وبخاصة التأكيد على «جاذبية الشكل»، مما يدفع الشاب إلى الاهتمام بشكل جسمه بالنسبة لأجسام الآخرين) على أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل يتعداه إلى شعور الشاب بالقيمة الاجتماعية للتغيرات الجسمية، أي بأنه أصبح كبيرا راشدا. ولما كانت معاملة الآخرين له تتغير بعض الشيء، فانه يبدأ في الشعور بعدم الرضا عن معاملته كطفل، ويحس بوحدة، ويندفع إلى تصرفات يؤكد بها ذاته. وقد يصل صراعه مع المجتمع إلى حد ظهور اتجاهات تكون بمثابة بذور لعدد من الانحرافات.

ومن ناحية ثانية، تنعكس التغيرات العضوية والنفسية في معظم جوانب النشاط التي يمارسها الشاب، وفي إدراكه للآخرين، وفي أحكامه الأخلاقية، وفي أسلوب تعامله مع الآخرين، وفي أحكامه عليهم، والأسس التي يدخلها في اعتباره إذ يفضل بعضهم على بعض، وفي نمط ارتباطه بأصدقائه، وغير ذلك.

أزمة المراهقة وبداية الشباب، إذن-على حد تعبير مصطفى سويف-ليست أزمة «خلفة» تامة ومعارضة وتشكك في القيم السائدة بقدر ما هي نقطة تختلف عندها الخصائص العضوية والنفسية للشخص، وكذلك وضعه في الجماعة، على نحو تصبح معه أساليب التنظيم والتكيف بين الشخص

والذات وبينه وبين الواقع غير ملائمة ولا مفيدة، وتظهر حاجة إلى أساليب تنظيم وتكيف جديدة.

رابعا

إذا سلمنا بأن المراهقة وبداية الشباب. هي «المرحلة التي تتحلل أو تنطفئ خلالها العادات التوافقية الطفيلية، وتكتسب فيها عادات توافقية جديدة تلائم المعطيات الفسيولوجية والعقلية والاجتماعية التي يعيش فيها المراهق (الشاب) بعد أن تتاح له فرص إدراكها، وهي عملية يتحول فيها الطفل تدريجيا إلى الرشد عبر حلقات متصلة من الأعداد الاجتماعي المقصود وغير المقصود [(16)]، فإننا نكون بصدد وضع «مشكل» أو حافل بالمشكلات.

ترتبط عمليات إعادة التنظيم والتكيف التي تستدعيها هذه المرحلة «بحاجات» و «مشكلات» عديدة. وهذان المصطلحان هامان ويحتاجان إلى شيء من التوضيح. أما الحاجات needs فهي حالات يعاني منها الإنسان ويترتب على عدم إشباعها-أو عدم كفاية الإشباع-توترات عضوية أو نفسية أو اجتماعية، أو كلها معا، تختلف في خطورتها بحسب أهمية الحاجة وفي شدتها بحسب درجة الإحباط. أما المشكلات problems فهي هذه الحاجات نفسها في حالة إحباطها وقد انعكست في وعي الفرد. وتتناسب المشكلات في خطورتها تناسبا طرديا مع أهمية الحاجات ودرجة عدم الإشباع. وان كنا نلاحظ أنه في حالات معينة قد يتجاوز الإدراك حدود الذات فيحدث تشويه في إدراك المشكلة والشعور بها، فتبدو وكأنها أكبر مما هي في الواقع، أو تبدو وكأنها مشكلة في حين أن التحليل الموضوعي لمعطيات الموقف... لا يدل على وجودها أو لا يدل على أنها على النحو من الشدة الذي تبدو به للفرد. [(17)]

وفي حين أنه من الممكن أن يقدم الشخص تصورا صريحا لما يواجهه من «مشكلات» ومن الممكن استنتاجها من تعبيراته غير الصريحة عنها، فان تحديد «الحاجة» لا يتحقق إلا بطريقة غير مباشرة (من خلال «مؤشرات» بديلة indicators) وهنا تواجه الباحث معضلة غير هينة، فليس من الممكن أن ترجع كل مشكلة من مشاكل الإرضاء العضوي والنفسي والاجتماعي الطفيلية

حاجة أو حاجات معينة لم يتيسر إشباعها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، ليس من النادر أن تعبر الحاجة المحيطة عن نفسها في أكثر من مشكلة.

ويتكلم بعض علماء النفس عما يسمونه «مطالب» النمو أو الارتقاء developmental tasks وهي «مهام» تظهر في فترات معينة من حياة الفرد، يؤدي نجاحه في إنجازها الطفيلية رضاه والى التوفيق في الأعمال الأخرى، بينما يؤدي إخفاقه في أدائها إلى تعاسته. واستهجان المجتمع، والتعثر في إتمام المهام الأخرى بنجاح. وبالرغم من الفوارق الهامة بين الحضارات والمجتمعات المختلفة، فان مطالب النمو حقيقة شائعة تشترك كلها فيها.

ليس ثمة اتفاق بين الدارسين المختلفين حول قائمة الحاجات التي تستتبعها عملية التحول من الطفولة إلى الرشد عبر الشباب. غير أننا يمكن من المناقشة السابقة، وفي ضوء الحديث عن جيل الشباب، أن نميز بين ثلاثة مجالات للتوافق: أولها: التوافق مع الذات (الهوية، والإرضاء العضوي والجسمي والجنسي وضبط الانفعالات والمخاوف)، والثاني: التوافق مع الآخرين في الأسرة، والكبار بعامة، والأخير: التوافق مع مقتضيات واقع الراشدين (الدراسة، والعمل، والزواج، وغيرها).

ومن ثم يمكن أن نستخلص عددا من «الحاجات» لا يثور حولها خلاف كبير. فثمة ثلاث فئات من الحاجات تظهر لدى الشاب في المجتمع الحديث هي: [18]

أولا: حاجات فسيولوجية، وهي الحاجات الخاصة بالمحافظة على التوازن الفسيولوجي الضروري للإنسان. ومنها:

1- حاجات الجسم للطعام والشراب وغيرها.

2- حاجات خاصة بالنشاط الجنسي وهي تقتضي تكوين ميول نحو الجنس الآخر، والارتباك بعلاقات به، وحل مشكلة الإشباع الجنسي الذي يتطلبه تيقظ الحاجة الجنسية.

ثانيا: حاجات نفسية، ومنها:

1- الحاجة لفهم الذات وتقبلها، أو حل «أزمة الهوية». وهو يتطلب فهم التغيرات التي تطرأ على كيان الفرد، وقبولها، والحصول على قبول الآخرين لها، وإعادة تنظيم الاتجاهات والسلوك نحوها.

2- الحاجة إلى تأكيد تمي الذات واستقلالها، ويتضمن الحصول على

الاعتراف بالاستقلال عن الوالدين والآخرين والسلطة.

ثالثا: حاجات اجتماعية، ومنها:

1- الحاجة إلى الحصول على اعتراف بتخطي مرحلة الطفولة، والانتماء إلى جماعات الراشدين.

2- الحاجة إلى الحب.

3- الحاجة إلى شغل دور ذي معنى في الحياة.

ولسنا نقصد من هذا أن نستعرض قائمة مفصلة لحاجات مرحلة الانتقال من الطفولة إلى الرشد. وإنما نحن ركزنا على أهمها-من وجهة نظر هذه الدراسة على الأقل.

ونحن لا نذهب إلى أن الحاجات التي أوردناها، حاجات فطرية، أي تظهر تلقائيا بالضرورة في عملية التحول من الطفولة إلى الرشد، بل إننا سنبين أنها ليست كذلك، أن ما نقصد إليه هو إبراز أهم الحاجات بدون مناقشة الظروف التي تنشأ فيها.

وبالرغم من أننا وزعنا هذه الحاجات في فئات، فإننا يجب أن نسارع فنؤكد أن الواحدة منها لا تكون منفصلة عن غيرها. وان كانت كل منها، في نظر البعض، «تميل إلى أن تربط نفسها بموضوعات معينة وبصرف النظر عما عداها»، وبذلك يتكون ما يسمى «مركب الحاجة» need complex «الذي قد يتحقق ويظهر في سلوك صريح، وقد لا يفعل ذلك ويظل كامنا يؤثر ولكن لا يظهر». (19)

الهوامش والمراجع

١- منيرة احمد حلمي، «مشكلات الفتاة المراهقة وحاجاتها الإرشادية»، القاهرة، دار النهضة العربية، 1965، ص 17.

2- محمود عبد القادر «التوافق النفسي والاجتماعي للشباب الكويتي ومشكلاته» المرحلة العمرية من 13 سنة حتى 18 سنة، الكويت: رابطة الاجتماعيين، 1975، ص 8.

3- مصطفى أحمد تركي، «الرعاية الوالدية وعلاقتها بشخصية الأبناء: دراسة تجريبية على طلبة جامعة الكويت»، القاهرة)، دار النهضة العربية، 1974، ص 17.

4- محمد عثمان نجاتي، «المدنية الحديثة وتسامح الوالدين: بحث حضاري مقارن»، القاهرة، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، 1974، ص 59.

5- خليل ميخائيل معوض، «مشكلات المراهقين في المدن والريف: السلطة والطموح»، القاهرة، دار المعارف، في ص 26, 6.

6- في موضوع السمات المميزة لمرحلة الشباب، انظر أيا من المراجع السابقة. وانظر كذلك مصطفى سويف، «الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي: دراسة ارتقائية تحليلية»، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة، 1970، ص 227-277.

7- حلمي، مرجع سبق ذكره، ص 18 وما بعدها.

8- المرجع نفسه، ص 19 وما بعدها.

9- المرجع نفسه، ص 20.

10- سويف، مرجع سبق ذكره، ص 227.

11- C.M.Fleming, Adolescence: Its Social Psychology. London: Routledge and Kegan Paul, 2nd edition. 1963. P 39-35.

12-ibid. P. 41- 39.

13- Margaret Mead, Coming of Age in Samoa, New York. Mentor Books 1962.

14- Margaret Mead, Growing Up in New Guinea, London Pelican Books. 1964.

غير أننا نفضل أن نكون على حذر من الاندفاع في الثقة بروايات الأنثروبولوجيين وتحليلاتهم- وتراث الأنثروبولوجيين الأول بصفة خاصة-وذلك لان جزءا غير قليل عنها صدر عن انبهار رومانس أو سذاجة أو تزييف مقصود للحضارات البدائية لم تساعد في تقويمها في كل إبعادها بصورة موضوعية دقيقة.

15- سويف، مرجع سبق ذكره، ص ص 233-247.

16- عبد القادر، مرجع سبق فكره، ص 53.

17- المرجع نفسه، ص 55.

18- اخترنا هذه القائمة من الحاجات والمشكلات بشكل تحسس بدرجة ما، فقد وجدناها بسيطة وتغطي أهم ما تتضمن القوائم الكثيرة الأخرى، التي يذهب بعضها في العصبيات إلى حد إيراد عشرات الحاجات والمشكلات بعضها غريب فعلا (كالحاجة للإذلال، والحاجة للنبذ، والحاجة

للانقياد، وما إليها).
انظر، مثلا حلمي، مرجع سبق ذكره، ص ص 2- 16.
19- المرجع نفسه، ص 8.

الحواشي

(*) الارتقاء development عملية التغير الكمي والكيفي التي تطرأ على الكائن انحي منذ الحمل حتى اكتمال النضج. وتختلف اليقظة التي يتحقق عندها النضج باختلاف الأعضاء والوظائف ففي حين يتحقق النضج الجنسي قبل سن الخامسة عشرة، يكتمل النضج العقلي حول سن السادسة عشرة ويصل النمو الجسمي آخر مراحله حول سن العشرين. أما التغير في الاتجاهات فليست له فيما يبدو حدود زمنية.

(*2) التطبيع الاجتماعي (أو التنشئة الاجتماعية) socialization العملية التي تستمر مدى الحياة والتي يتمثل بها الفرد القيم والمعايير والرموز ويتعلم ضروب السلوك التي تشيع في الحضارة فيتحول من مجرد كائن بيولوجي إلى إنسان ناضج مؤهل يشغل وضع أو أوضاع في الجماعة. وتأتي أهميتها من أن الإنسان يولد عاجزا غير مزود بمهارات التوافق والتكيف الفطرية التي تولد بها الحيوانات الدنيا. وحياة الإنسان في جماعة وتفاعله مع الآخرين وتمثله لعناصر حضارتها هي من الشروط الضرورية لتحقق عملية التطبيع الاجتماعي، بصورة طبيعية. وكما أن هذه العملية ضرورية لتحويل الفرد من مرحلة الكائن البيولوجي إلى الإنسان الناضج، فإنها لازمة لاستمرار الحضارة لأنها واسطة نقلها من جيل إلى جيل. ويختلف ناتج عملية التطبيع باختلاف تأثير الوسائط المختلفة-الأسرة، والمدرسة، وغيرهما-فيها. وبعكس ما كان يشيع في الكتابات الأولى، فان عملية التطبيع الاجتماعي لا تتوقف بعد مرحلة الطفولة وبلوغ الشباب وإنما هي تستمر في مراحل دورة الحياة المختلفة وان كانت تسير بمعدلات أبطأ وبتأثيرات أقل وضوحا مما يحدث في مراحل العمر الأولى.

(*3) التوحد Identification هو تبني الشخص للقيم والاتجاهات والعادات التي تكون لآخر-ذي دلالة-حتى يساوي بين نفسه وبينه، ويقلده أي يتصرف على النحو الذي يتصرف به. فهو عكس الإسقاط (انظر الذي صفحة 194).

(*4) ألانا الأعلى super ego هو-بمعنى ما-الضمير الذي يتجه بالشخص نحو المثالية، ويهدده أو يعاقبه بالشعور بالإثم إن هو فرط فيها.

(*5) ألانا ego هو ذلك الجانب من شخصية الإنسان الذي يتحقق به إدراك مقتضيات الواقع والاعتراف بها.

(*6) ألهو id هو جوانب الشخصية الكامنة في اللاشعوري ويضم الدوافع والرغبات-وبخاصة الجنسية-البدائية والمضادة للمجتمع. وهذه المفاهيم الثلاثة من المفاهيم المحورية في نظرية التحليل النفسي عند سيجموند فرويد.

(*7) الأعراض العصبية neurotic symptoms هي مظاهر الاضطراب السلوكي التي تنشأ من اضطراب الجهاز العصبي لأسباب نفسية في أساسها.

(*8) الكبت repression عملية كف لا شعوري للرغبات-وبخاصة الجنسية-غير المقبولة اجتماعيا وللتجارب أو الخبرات المؤلمة. وإذا كانت العملية تنجح في إبعاد مثل تلك الرغبات والتجارب من مستوى الوعي بها فإنها لا تقضي عليها. فتظل موجودة ومؤثرة وان ظهرت بصور غير صريحة.
(*9) القمع suppression العملية نفسها تقريبا ولكن تتم بطريقة شعورية أو بوعي.
(*10) الإعلاء sublimation التحول بالطاقة والرغبات الجنسية من تعبيراتها الطبيعية إلى مسارات أو أنشطة أخرى ذات قيمة أرقى في نظر الجماعة.
(*11) ساموا Samoa هي مجموعة من الجزر الصخرية البركانية تقع بين نيوزيلاندا واستراليا وهاواي يخضع بعضها للولايات المتحدة الأميركية ويخضع البعض الآخر لنيوزيلندا. يسكنها حوالي 160 ألف نسمة (في أواخر الستينات) كانوا حتى عهد قريب ما زالوا في مرحلة بدائية اقتصادها متخلف، والتنظيم الاجتماعي بسيط. يتكلمون لغة من أقدم اللغات البولينيزية. تحول معظمهم إلى المسيحية.
(*12) تعيش قبائل المانوس Manus في جزر الادميرالتي Admiralty Islands وهي مجموعة من أربعين جزيرة من توابع جزيرة غينيا الجديدة New Guinea إلى الشمال الشرقي من أستراليا، التي يتبع الجزء الشرقي منها-ويضم جزر الادميرالتي-أستراليا وحتى عهد قريب، كانت هذه القبائل. وكان تعدادها أكثر قليلا من 20 ألف نسمة في منتصف الستينات-تعيش حياة بدائية: اقتصادها متخلف، ونظامها الاجتماعي بسيط تلعب الروابط القرابية دورا حاسما فيه، والقربة هي الوحدة السياسية، ويشغل السحر والطقوس مركزا هاما في حضارتها. وهذه القبائل من أصول بولينيزية.
(*13) المجال field مجموعة القوى الخارجية بالنسبة للشخص التي تؤثر-بطريقة أو أخرى-في إدراكه للأمور وتصرفه بآرائها.. ولا تكون قوة ما عنصرا من عناصر المجال بمجرد وجودها فيه ولكنها تصبح كذلك حين تباشر تأثيرها في أي اتجاه-في الشخص. ويتميز المجال بعدم الاستقرار حين تطرأ على بنيته تحولات سريعة، في العلاقات الاجتماعية، أو الحاجات، أو الدوافع أو ما إليها.

2 المتغيرات التي تؤثر في جيل الشباب العربي

أولا

من الناحية العضوية، توجد فروق هامة بين جيل الشباب، وهو جيل يستكمل نضجه البيولوجي، وجيل الكبار الذين دخلوا في مرحلة الفقدان التدريجي للقوة العضوية، يحس أفراد الجيل الأول بطاقات هائلة تسعى إلى أن تعبر عن نفسها بقدرات شبه خارقة بالنسبة لما كانوا عليه طوال عهد الطفولة، في حين يميل أفراد الجيل الآخر-الكبار- إلى الاقتصاد في بذل الجهد والمحافظة على ما بقي من طاقات. ومن شأن هذه الفروق أن تخلق تباينا في الرغبات أو ما يرتبط منها بالجوانب العضوية على الأقل-والأكل، والجنس والنشاط العام: بصفة خاصة.

أما من الناحية النفسية الاجتماعية، فانه في حين تؤدي تجارب جيل الكبار-واخفاقاتهم بصفة خاصة-والتزاماتهم تجاه أمرهم إلى أن يتواضعوا في آمالهم ويتناولوا الأمور بشيء من «الواقعية»، فان حيوية الشباب وبراءتهم ونقص تجاربهم في الحياة تدفعهم إلى مواقف لا تخلو من «الرومانسية»

و «عدم الواقعية»، والتطرف أحيانا.

ومن الفروق الهامة التي تميز شباب اليوم عن آبائهم الكبار، أنهم-الشباب-ينضجون مبكرين عنهم بما يزيد على العام، ويتعلمون لمدة أطول، ويجمعون من المعارف والتجارب حصيلة أكبر في كمها، وتختلف في نوعها عما توافر لآبائهم.

وتمثل مجموعة الظروف الاجتماعية والحضارية التي يعيش فيها جيل الشباب الآن صيغة مختلفة بشكل واضح-إن لم تكن مناقضة-لتلك التي عاش فيها الكبار. ويصدق ذلك على العلاقات الأسرية، ونظام التعليم، والمناخ العام، وما إليها. وفي مرحلة ما قبل الاستقلال، كان الشباب يكونون مع القيادات الوطنية جبهة ضد القوى الاستعمارية. أما الآن، وبعد الاستقلال، فقد زال الاستقطاب القديم ضد الاستعمار، وأصبح الصراع بين جيل الشباب والحكومات الوطنية وجيل الكبار في المجتمع.

بعبارة أخرى، لقد نشأنا نحن الكبار وعشنا شبابنا، وحققنا هويتنا من خلال الارتقاء العضوي والنفسي والاجتماعي في عصر يختلف كثيرا عن العصر الذي يعيش فيه الشباب الآن، ليس فقط في ملامحه ولكن في وطأته ومتطلباته وإيقاعه. ومن ثم فان بعض المواقف التي يواجهها الشباب العربي اليوم والتحديات التي تنطوي عليها وأساليب التكيف معها أو حلها جديدة بغير سوابق. وإصرارنا-أو إصرار بعضنا-على أن يكون شباب اليوم صورا من شبابنا فيه إغفال لحقائق موضوعية هامة وفيه ظلم لهم في الوقت نفسه، وهو نقطة ينشأ منها سوء الفهم والتفاهم.

وبالرغم من تغاير تفاصيل أوضاع الدول العربية-ومعظمها حديثة الاستقلال وكلها «نامية»-فان المتغيرات التي تؤثر في وضع جيل الشباب فيها لا تختلف في جوهرها. ومن أهم هذه المتغيرات:

ا- على المستوى العالمي:

وضع الدول العربية غير المرضي لطموح الشباب في شبكة العلاقات الدولية. فبالرغم من أهميتها-كمصدر للمواد الخام-إلا أنها لا تملك حرية الحركة كاملة، وتخضع في سياستها الداخلية والخارجية لاعتبارات عالمية، وتتأثر أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والحضارية بمؤثرات خارجية.

2- على المستوى الإقليمي:

يسيطر «مزاج محافظ» على معظم دول المنطقة، يعوق في بعض الحالات حركتها، ويعطل تنميتها، ويعقد مشكلات تخلفها.

3- على المستوى المحلي:

يكاد الصراع الاجتماعي في «مرحلة ما بعد الاستقلال» يضع جماهير الشعب في ظروف اجتماعية واقتصادية بالغة الصعوبة-أمام طبقات بلغت مستوى مجتمع الترف الاستهلاكي وبيروقراطية متحجرة لا تحرص إلا على أن تعيش بأي زمن.

يضاف إلى هذا كله:

أ-الثورة في مجال العلم والتكنولوجيا، والتقدم الهائل للمعرفة الإنسانية وتغيير نظام تقسيم العمل.

ب-التركيب الاجتماعي الجديد لطليعة جيل الشباب.

ولقد تميزت حركة «تحديث» العالم العربي-وهي الخلفية التاريخية التي انبعثت منها الصورة المعاصرة للساحة العربية-بعدة سمات هامة، يعنينا منها هنا أربع:

أولاها: أنها لم تكن حركة ذاتية تماما، فهي لم تنبثق وتتطور نتيجة لعوامل داخلية بحتة، ولا حتى داخلية في المحل الأول. وإنما بدأت في ظل سيطرة استعمارية، وتأثرت في سيرها ونتائجها بالنفوذ الأجنبي إلى حد بعيد.

والثانية: إنها كانت وما زالت حائرة بين التراث العربي-الإسلامي-والثقافة الأوروبية الغربية، تحاول أن تجمع بينهما، دون نجاح ملحوظ وبتكلفة عالية.

والثالثة: إنها اضطرت وما زالت مضطرة-بسبب إيقاع العصر المتصاعد إلى السير بسرعة فائقة، فلم يتح لها ما أتيح للتجربة الأوروبية الغربية من الوقت والمحاولة والخطأ وإعادة التنظيم والتكيف.

والأخيرة: إنها تتم لا في حالة فراغ حضاري ودون تحد، وإنما في مواجهة حضارة أجنبية مؤثرة تمارس من خلال سيادتها ضغوطا معوقة هائلة من جهة، وتقدم نماذج تغرى على تبنيها من جهة أخرى.

وسنعرض لكل من هذه السمات بشيء من التفصيل، لا لنعالج أبعادها المختلفة وإنما لنبرز تأثيرها في تحديد قسمات الصورة الراهنة للأوضاع-الاجتماعية الحضارية بصفة خاصة-في العالم العربي، وتحديد المشكلات

التي يعاني منها جيل الشباب العربي بالتالي.

ثانيا [1]

ويمكن أن نوزع مواقف المثقفين العرب بين الحضارة الأوروبية الغربية بين ثلاثة اتجاهات رئيسية مع بعض تيارات فرعية، هي:

1- اتجاه «رفض» الحضارة الأوروبية رفضا مطلقا لأنه رآها لا تلتقي- لقيامها على العقل-في بعض ما انتهت إليه العلوم الطبيعية من نتائج-مع الدين. وهو التيار الذي شايعه عامة الناس في مختلف العصور.

2- اتجاه وسطي انطلق من نقطة احترام التراث الديني والفكر الإسلامي، ولكنه في الوقت نفسه-لم يرفض الثقافة الأوروبية-في بعض عناصرها على الأقل، ومن ثم كانت مهمته التوفيق بينهما. وقد سيطر على الفكر العربي بقدر له أن يكون الأبقى.

3- اتجاه بلغ افتتانه بالحضارة الأوروبية وعلومها الطبيعية وفكرها- الاشتراكي بخاصة-وأنه لم ير في التراث العربي-الإسلامي ما يفيد في تحقيق تقدم العرب، ومن ثم كانت دعوته إلى التبني المطلق غير المقيد للثورة الأوروبية الغربية في مجالي العلم والتكنولوجيا. ولم يتعد هذا الاتجاه شريحة صغيرة من المثقفين العرب لم يقدر لهم أن يكونوا ذوى تأثير واضح في تشكيل المناخ الفكري في العالم العربي.

وبالرغم من مرور أكثر من قرن على تمايز الاتجاهات الثلاثة السابقة، وبالرغم من تغير التيارات المؤثرة وتبدل القضايا المطروحة: فما زال من الممكن أن نوزع المثقفين-أو بمعنى أدق المفكرين-العرب بين الاتجاهات الثلاثة نفسها اتجاه سلفي، وثان راديكالي، وثالث وسطي توفيقي. ومواقعها من قضية الأصالة والمعاصرة-أو التراث العربي الإسلامي في مواجهة التراث العالمي-لا تختلف في جوهرها وأهدافها كثيرا عن الاتجاهات الثلاثة القديمة، وان اختلفت عنها في بعض التفاصيل.

وربما كان من أهم التحولات التي طرأت على شكل هذه الاتجاهات الثلاثة، أن التحدي الذي يواجهها-أو تواجهه هي بمعنى أدق-لم يعد قاصرا على الفكر الأوروبي الغربي، وإنما أصبح-رضيت هي أم لم ترض-تراث الأيديولوجيتين المتصارعتين في عالم اليوم-الرأسمالية والاشتراكية-

والمؤسسات التي قامت عليهما. هذا من جهة. ومن جهة أخرى، يلاحظ أن التراث الأجنبي من مصدريه لم يعد-بالنسبة للبعض على الأقل-يمثل نموذجا يتشكل على أساسه وبصورة سلبية الفكر العربي، وإنما أصبح-منذ منتصف القرن بصفة خاصة-يمثل تحديا أو «عقبة» علاقة الفكر العربي بها علاقة «صراعية» هدفه أن يستفيد منها-كتجربة-لكي ينضج، دون أن يفقد هويته أو يفنى فيها.

فإذا ركزنا على الاتجاه الوسطي التوفيقي وأردنا أن نقيم ما أنجزه في حركة الفكر العربي على مدى فترة القرن وثلاثة أرباع القرن الماضية، لوجدنا أن إنجازه كان متواضعا للغاية، تركز في تطعيم الحياة الفكرية العربية-التي كانت قد أصيبت بالجدب نتيجة لجمود السلفيين-ببعض الأفكار الجديدة.

ويرجع إخفاقه في خلق حركة فكرية حقيقية إلى عدة أسباب، من أهمها:

1- انه قام على أساس التوفيق بين تراثين-الإسلامي والأوروبي-لا نظن أن هناك سبيلا للتوفيق بينهما، فكل منهما نسق متكامل من القيم والأفكار والمعتقدات والنظم يتعلق بالإنسان والكون والخلق، يقوم أولهما على الإيمان شبه المطلق ويعتمد الآخر على العقل الطليق. وما زال يستهلك معظم جهده في نقاش-عقيم في أحيان كثيرة-حول قضية الأصالة والمعاصرة، لا يخرج كثيرا عن التناول القديم للقضية.

فالمعادلة التي يدعو كثير من «الإصلاحيين المعتدلين» إلى الآخذ بها، وهي الإبقاء على مجتمعاتنا بأنساق القيم وأساليب السلوك الشائعة فيها، والآخذ من التراث العالمي بما لا يتعارض مع هذه الأنساق، معادلة مستحيلة-وليست مجرد معادلة صعبة، وذلك لان التراث المتقدم وسياقه الاجتماعي الحضاري كل متكامل بدرجة ما، أما أن نقبلهما معا أنرفضهما مما ونبحث عن بديل، عن طريق ثورة تحديث ذاتية.

2- إن هذه الصيغة التوفيقية المعتدلة، وهذا هو الأهم، تعبر عن واقع معين بالنسبة للبنية الاجتماعية أو التركيب الاجتماعي للمجتمع العربي، تمثل الأرستقراطية الزراعية ثم المالية بصورة أعم مركز الثقل فيه. ومن ثم فان قضية الثورة-ثقافية كانت أو اجتماعية-غير مطروحة.

فالإنجاز الفذ الذي حققته أوروبا الغربية أولا ثم الشرقية بعد ذلك- سواء قبلناه أو رفضناه-تحقق بفضل «حركة تنوير» طرحت كل الأفكار والقيم وأساليب السلوك القديمة للفحص الموضوعي، استبقت منها ما يخدم قضية التحديث وطرحت ما يعمل على تعويقها، واستطاعت بفضل هذا المدخل- ولظروف كثرة أخرى-أن تحدث تغيرات جذرية في البنية الاجتماعية والنسق الحضاري قضت على النظام القديم «وأحلت محله النظام الجديد».

ثالثا

لا نظن أنه يوجد خلاف كبير حول ما يقال من أن سرعة إيقاع العصر تزيد بمعدلات صاعدة، ونقصد بذلك أن السرعة التي تقع بها الأحداث المميزة لملامح العصر الحاضر تزيد يوما بعد يوما.

ويمكن أن نمثل لذلك بالعلم والتكنولوجيا. إذ يقال-على سبيل المثال-أن حوالي 90٪ من كل العلماء الذين أنجبتهم الإنسانية على مدى التاريخ البشري هم من المعاصرين لنا. وان المعرفة الإنسانية لا تحتاج الآن إلى أكثر من 12 سنة لتتضاعف، في حين كانت تحتاج إلى آلاف السنين ليتحقق لها ذلك. كما أن الاختراع الذي كان يحتاج إلى عدة قرون ليطبق أصبح يجد طريقه إلى التطبيق في حوالي عشر سنوات. (2)

وفي حين احتاج الإنسان إلى أكثر من عشرين قرنا بعد اكتشاف الزراعة وممارستها ليبدأ التصنيع، فانه قد احتاج إلى قرنين اثنين فقط ليستكمل ثورة التصنيع الأولى. وفي حين أنه احتاج إلى أكثر من قرنين لينتقل من عصر الفحم إلى عصر البخار، ثم إلى قرن ليبدأ عصر الكهرباء، فانه لم يحتج إلى أكثر من نصف قرن ليكشف عن سر الذرة ويطوعها. وفي الحقب الثلاث التي مضت من أول استخدام القوة الناتجة عن انشطار الذرة، ثم اختراع الكومبيوتر، حدثت تطورات كانت حتى أقل من نصف قرن لا ترد حتى على خيال أكثر العلماء تفاؤلا.

ومنذ بداية التاريخ البشري وحتى القرن التاسع عشر لم يستطع الإنسان أن يزيد من سرعة قدرته على الانتقال بأكثر من أربع مرات؟ وفي الربع الأول من هذا القرن لم يستطع أن يحدث تحولا مفيدا حتى تم اختراع الطيران. وبالطيران الأسرع من الصوت والصواريخ اختزل الإنسان المسافات

بمعدلات لم نكن نحلم بها. أما التلفزيون فانه لم يتوسع في نطاق المعرفة وحجمها كما فعلت المطبعة، ولكنه أحدث تحولا نوعيا في عملية نشر المعرفة، فأصبحت عملية لا تعتمد على الكلمة المقروءة وإنما تتم من خلال الصورة والكلمة المسموعة.

وبفضل السبق الذي حققته بعض الدول في مجالي العلم والتكنولوجيا، فإنها تعيش ثورة في الإنتاج والاستهلاك بدون كثير من المعاناة أو سوء التكيف. صحيح أن الأمر يتطلب منها أن تعدل استجابتها للأحداث، ولكن السرعة التي تتم بها ثورة العلم والتكنولوجيا لا ترهقها، لأنها هي نفسها-أو نحوها-السرعة التي يتغير بها المجتمع أو معظم مؤسساته.

أما في الدول العربية-والدول النامية بصفة عامة-فان الإسراع المتزايد للتقدم العلمي والتكنولوجي، وعجزها عن أن تتحرك بالسرعة ذاتها التي تتحرك بها المجتمعات المتقدمة صناعيا يؤديان إلى نتائج هامة، تمنينا منها اثنتان: أولاهما الارتباك، وصعوبة إعادة التنظيم، وسوء التكيف التي تؤدى إليها الحركة السريعة. والأخرى اتساع الهوة التي تفصل بينها-بين الدول العربية والنامية-وبين الدول المتقدمة.

صحيح، أن بلادا عربية مثل مصر-قد بدأت عملية التحديث منذ أكثر من قرن وثلاثة أرباع القرن، وهذه مدة كانت تكفي لكي تحقق الخلاص من التخلف، وتدخل العصر الحديث، وتستقر فيه. وصحيح أن دولا أخرى، مثل سوريا ولبنان وبعض بلاد المغرب العربي، بدأت عملية التحديث منذ أكثر من قرن. ولكن ظروفا صعبة كثيرة لم تسمح لها بأن تحقق في هذه المدة-الطويلة نسبيا-ما كان يمكنها أن تحققه في ظل ظروف أخرى.

وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية (1939-1945) بل وحتى منتصف القرن الحالي، لم تكن دول عربية كثيرة-وبخاصة دول شبه الجزيرة العربية-قد بدأت اتصالها بالعصر الحديث، وكانت ترزح تحت نير حكم أجنبي أو تعاني من تسلط قوى محلية محافظة.

وفجأة، ونتيجة لاكتشاف البترول وتعاظم قوة بعض الدول نتيجة للعائد من استغلاله تجاريا[3]، أتيح لعدد من الدول العربية أن تبدأ رحلتها مع عملية التحديث. ولم يمض وقت طويل حتى وجدت نفسها في غماره، أرادت ذلك أو لم تره. فالكويت ودول الخليج والعراق وليبيا والجزائر،

وجدت نفسها ذات قوة اقتصادية هائلة نسبيا من ناحية، وقادرة ماديا على الاستفادة من نتائج الثورة العلمية والتكنولوجية من ناحية أخرى، فلم تتردد.

يستطيع «القادمون الجدد»، أو الدول التي بدأت عملية التحديث متأخرة- ومنها الدول العربية كلها-أن يستفيدوا من الثورة العلمية والتكنولوجية التي حققتها الدول المتقدمة دون أن يعانوا ما عانته الدول التي سبقت، ولا أن يتحملوا التكاليف البشرية والمادية التي تحملتها. ذلك يحدث بالفعل. وليست مصانع البتروكيماويات والإلكترونيات ومحطات الاستقبال من الأقمار الصناعية، التي تقام في شبه الجزيرة العربية وفي كثير من مناطق العالم العربي، سوى شاهد من شواهد عديدة على ذلك.

ولكن طرح القضية بهذا الشكل يغفل أبعادا هامة أخرى فيها، فالدول المتقدمة تحتفظ بالكشوف العلمية الجديدة سرا لبعض الوقت، كما أنها لا تتنازل عن التكنولوجيا المتطورة بسهولة إلا في مجال السلع الاستهلاكية. ومن ثم، ففي حين تستطيع الدول العربية أن تحصل على أحدث موديلات السيارات وطائرات الركاب وأدوات الاستعمال المنزلي وما إليها، فإنها لا تحصل من السلع الإنتاجية أو الرأسمالية-كالمصانع مثلا-إلا ما هو متخلف بعض الشيء وتوشك الدول المتقدمة أن تتخلص منه.

ثم إن البنية الأساسية-أو التركيب الاجتماعي-لمعظم الدول العربية التي تتميز بزيادة سكانية لا تواكبها زيادة مماثلة في الخدمات-مما يؤدي إلى تدهور بحض فرص الحياة. ونسبة الأمية المالية، والاحتفاظ بقيم تقليدية غير مواتية لعملية التنمية، وتسلط بعض العناصر «الطفيلية» أو ناقصة الكفاءة والوعي السياسي، لا تساعد في تحقيق الثورة الاجتماعية، بل ولا النمو الاقتصادي. ولهذا لا تتردد مجتمعاتنا كثيرا في استيراد آخر صيحة في مجال التكنولوجيا-فمصانعنا وأجهزة الخدمات عندنا تستفيد من التقدم التكنولوجي وتحاول ألا تتخلف عنه، ولكن حين يأتي الأمر إلى قيم الحرية الشخصية والحريات العامة وبعض الأنساق الحضارية نغلق أعيننا، ونصم آذاننا عن تجارب المجتمعات الأخرى بحجة المحافظة على تراثنا الحضاري وصيانته من الضياع.

ومن هنا يمكن القول أنه بالرغم مما يبدو من إمكانيات استفادة بعض الدول العربية من الثورة العلمية والتكنولوجية، فان عددا من الظروف

العالمية والمحلية تضع في طريقها عقبات حقيقية.

رابعا

ليس ثمة شك في أن الظروف المحلية والقومية والعالمية التي يعيش فيها أو يتأثر بها جيل الشباب العربي الآن تختلف اختلافا جوهريا-في النوع والكم-عن تلك التي عاشت فيها أو تأثرت بها أجيال سابقة.

كانت معدلات التغير الاجتماعي الهادئة-أو المعتدلة-حتى منتصف القرن الحالي مثلا-تسمح بدرجة من الاستمرار بين الأجيال، يتلقى اللاحق منها عن السابق التراث دون عناء كبير، ويتوصل إلى أساليب توافق وتكيف جديدة بشيء قليل من الألم، وينتهي إلى إعادة التنظيم من غير كثير من المعاناة.

أما الآن، فان التغير الاجتماعي-بسرعته الفائقة وشموله وعمقه-يأتي دائما بأوضاع ليست لها سوابق، مما يجعل التكيف معها أو إعادة التنظيم بينها أمرا يكاد يكون مستحيلا. وبعد أن فقدت الخبرة الماضية جزءا كبيرا من قيمتها وفعاليتها أصبحت كثير من وسائط أو أدوات التطبيع الاجتماعي في غير اتساق مع العصر، لا تستطيع أن تقدم تفسيرا مقنعا للواقع المتغير، ولا أن تفيد في التعامل معه. ومن هنا تفقد كثيرا من قيمتها وهيبتها في نظر الشباب.

فعلى سبيل المثال، يتراكم بفضل التقدم العلمي السريع كم هائل متزايد من المعارف والخبرات، تعجز نظم التعليم-النظامية، كالمدرسة، وغير النظامية-كأدوات الثقافة والإعلام-عن استيعابها وتقديمها للشباب ومساعدتهم على تمثلها والاستفادة منها، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، تترتب على الثورة التكنولوجية تغييرات جذرية في نظام تقسيم العمل تتخلف أجهزة اتخاذ القرار وتنفيذه في المجتمع عن استيعابها والاستجابة لها. فيجد الشباب أنفسهم عاجزين بالتالي عن التكيف معها.

كان توزيع الأدوار الاجتماعية-وتحديد القيمة الاجتماعية بالتالي-في المجتمعات البدائية، وحتى الزراعية البسيطة-يقوم على أساس السن، وبعد المرور بطقوس معينة. ومن ثم كان الأطفال يكتسبون حقوق الشباب ويتحملون

مسئوليتهم بمجرد تخطي «الحلم» ونجاحهم في «طقوس التكريس». وهو تحول لم يكن ينازعهم فيه أحد اللهم إلا في حالات نادرة-الإخفاق في طقوس التكريس. أما في المجتمعات الحديثة المعقدة، فان توزيع الأدوار الاجتماعية يستند إلى محتكات أخرى مثل التعليم الرسمي (في المدرسة) والمهارات الشكلية المتخصصة، وغيرها، وهي محتكات قد لا تتفق مع معيار السن، بل وقد تتعارض معه في بعض الأحيان.

ولقد ظهرت بوادر أزمة جيل الشباب حين لم تعد القوة العضلية أهم متطلبات الأداء الكفء للعمل المنتج، وتوقف الارتقاء البيولوجي عن أن يكون في حد ذاته العامل الحاسم في صلاحية شخص ما لشغل دور معين. وتكتسب الأزمة أبعادا جديدة الآن. فلم يعد تخطي سن الشباب وبلوغ الهرم من العوائق في استمرار تحمل عديد من المسئوليات الاجتماعية الهامة بعكس ما كان يحدث قديما، وذلك بفضل التقدم العلمي والتكنولوجي، وبعد أن أصبح دور الإنسان في عديد من العمليات الإنتاجية والخدمية دور التحكم والضبط لأجهزة تعمل ذاتيا.

وكمثال، لا يسمح للشاب الذي يرغب في ممارسة التدريس في الجامعة بتحقيق طموحه إلا بعد اجتياز مراحل التعليم الرسمي المختلفة-في تسلسلها الطبيعي، ودون تخطي أية مرحلة منها حتى يحصل على الدكتوراه في تخصص ما (لا يسمح له بتجاوزه عادة).

والالتزام بمثل هذه المعايير-على الرغم من عقمه أحيانا-هو أمر ضروري تحمه تحولات جذرية طرأت على المعرفة الإنسانية (حجمها وتصنيفاتها) وعلى نظام تقسيم العمل في المجتمع.

ومع التطورات الحديثة في نظام تقسيم العمل والتخصص اختفت أو كادت العلاقة العاطفية الوثيقة القديمة بين الإنسان ومهنته، ولم يعد يحس بحاجة لان يراها تعيش وتستمر من خلال آخرين، من خلال الأبناء أو التلاميذ. وبتعقد النظام الاقتصادي والتفكك النسبي للعلاقات الأسرية القديمة، لم يعد الآباء يرون في أبنائهم تأمينا أو نوعا من التأمين لمستقبلهم هم أو لم يعودوا يرونهم كذلك بالدرجة نفسها التي كانوا يرونهم بها قديما.

ثانيا، ساعدت الثورة العلمية والتكنولوجية في إسقاط الحواجز التي فصلت مناطق العالم بعضها عن البعض الآخر في عصور سابقة، حتى لقد

أصبحت كلها تكون عالما واحدا صغيرا، يزداد صغرا حقبة بعد حقبة-تتأثر أجزاؤه المختلفة بالأحداث في أي جزء منه، وان كان بمعدلات وعمق متفاوتين من حالة إلى حالة. فالتقدم الهائل في وسائل الاتصال والمواصلات قد ساعد الشباب على تخطي حدود المحلية والإقليمية وعرضهم لتأثيرات عالمية: فالراديو، والتلفزيون يستقبلان الإرسال العالمي الآن مباشرة من الأقمار الصناعية، والصحف اليومية، والكتاب، والأسفار، وغيرها، تساعد في تحطيم الحصار الذي فرض على عقول الشباب وعواطفهم، وتضعهم في دوامة الأحداث العالمية، أرادوا أو لم يريدوا. ومن ثم فان حركة «الهيبيز»، وتمردات الطلبة في الولايات المتحدة الأميركية في أوائل الستينات، و «الثورة الثقافية» في الصين في منتصف الستينات، وثورة الطلبة والعمال في فرنسا في أواخر الحقبة نفسها، لم تقف عند حدود المجتمعات التي وقعت فيها، وإنما صارت-بكل القضايا التي دافعت عنها، والشعارات التي رفعتها، والجهود التي بذلتها، والنجاحات التي حققتها، والاخفاقات التي تعرضت لها-جزءا من تراث الشباب في معظم أنحاء العالم العربي.

وثورة العلم والتكنولوجيا، وخاصة في مجال المواصلات والاتصال-والتي يدركها الشباب اكثر مما يفعل الكبار عادة-تهز كثيرا من القي والأفكار وأساليب السلوك التي ينشأ عليها الشباب، وبخاصة في الحالات التي تبدو فيها الهوة واسعة وعميقة بين القيم والأفكار والتصرفات التقليدية من جهة، وبين نبض العصر من جهة أخرى.

الشباب العربي-على حد قول أحدهم-بدأ يدرك بوضوح وأسى الفرق بينه وبين شباب الدول المتقدمة.

ويترتب على هذا نتائج هامة، منها إن كثيرا من الشباب العربي يجدون أنفسهم في دوامة عنيفة لصراع حاد بين الأفكار والأيديولوجيات من الإلحاد إلى الهوس الديني ونظم ناضجة من العقيدة، ومن صيغ للديموقراطية-الشكلية أحيانا-يتمتع فيها الناس بحريات واسعة-إلى نظم تقوم على درجة من القمع والإرهاب لم يشهد التاريخ لها مثيلا. ويعيشون في ذعر من وسائل التدمير الحديثة التي يمكنها في لحظة طيش وجنون-لها سوابق كثيرة-أن تقضي على كل ما حققته البشرية في تاريخها من منجزات، ويتألمون للحروب المحلية التي تعصف بملايين النفوس البريئة وتعود ببعض

المجتمعات إلى فقر العصور الوسطى وإظلامها، ويأسون للفشل الذي يصيب بعض الثورات الحالمة، والظلم الذي تعيش فيه شعوب بأكملها.

وثمة، من ناحية ثالثة، الصدمة الحضارية التي ترتبت على فتح العالم العربي للتأثيرات الأوروبية الغربية من أوائل القرن الماضي، ثم لتأثيرات أخرى من منتصف هذا القرن.

وفضلا عن التحولات الخطيرة التي أحدثها لقاء العالم العربي بالحضارة الأوروبية، حدثت تطورات حادة من أهمها:

1- أزمة ثقة بالتراث العربي الإسلامي أو بالصورة التي يقدم بها للشباب بمعنى 31. ق. وبخاصة بعد الهزائم التي منيت بها حركة التحرر الوطني، ثم التحديث، في الصراع مع الاستعمار ثم الإمبريالية والصهيونية.

2- الإحباطات القومية التي يحس بها الشباب-بصفة خاصة-نتيجة للتخلف الفكري والاقتصادي والاجتماعي على الأقل بالقياس إلى الدول المتقدمة في العالم، واتساع الهوة التي تفصل بينها وبين العالم العربي يوما بعد يوم.

3- الوعي بالأزمة «والبحث عن هوية» اللذان ولدهما الصراع والإحباطات.

هذه التغيرات العميقة وتأثيراتها الواسعة، تستثير في الأجيال المختلفة استجابات ومشاعر متباينة. فالأطفال يحسون بها أو لا يستوعبونها بمعنى أدق. والكبار يتحصنون بما لهم من سلطة وسطوة ضدها، ومن ثم لا تؤرقهم كثيرا. أما الشباب وهم الجيل الأكثر معاناة منها، فهم يحسبون بها ربما بوضوح اكثر مما يفعل الكبار، ولا يستطيعون تجاهلها لأنها تتصل بحاضرهم ومستقبلهم.

وثمة، من ناحية أخيرة، الصدمة التي يتعرض لها قطاع كبير من الشباب يهاجر من الريف ليستقر في المدينة أو يولد في المدينة لآباء من أصول ريفية، فيواجهون-إلى جانب الهوة التي تفصل مجتمعاتهم عن الدول المتقدمة-هوة أخرى بين أسلوب حياة نشأوا فيه والفوه، وآخر لم يألفوه ويضطرون للتكيف معه. وإذا كانت عملية الانتقال من الريف إلى الحضر في دول العالم الصناعي لم تعد تنطوي على مشكلات ذات أهمية، فإنها في حالة الدول النامية-والعالم العربي-تمثل نوعا من الأزمة بالنظر إلى الفروق النوعية الهائلة بين أسلوب الحياة في الريف العربي-وهو يعيش أقرب إلى العصور

الوسطى-وأسلوب الحياة في المدن-وهي لا تختلف في بعض ملامحها عن أكثر العواصم الأوروبية تقدما.

ولا يحمل المهاجرون من الريف أو البادية إلى المدينة آثار ثقافات بدائية انحدرت من عصر الخرافة فقط، ولكنه يحمل معه تخلف وهموم أهله وثقافاتهم. وفي المدينة لا يبذل جهد جاد لتحرير «التراث» من الخرافة والدجل، بل أن أجهزة الثقافة والإعلام تدعم الخرافة والدجل أحيانا (ولا يهم أن يكون ذلك بقصد أو بدون قصد).

لا أحد-جادا-سيدعو إلى رفض التراث، ولكن ثمة إحساسا بحاجة ماسة إلى الوقوف منه موقفا نقديا انتخابيا يطرحه للتحليل والمناقشة الحرة من جهة، ويختار منه ما يدعم الحركة في طريق التقدم ويطرح كل ما يكرس التخلف من جهة أخرى.

ونأتي إلى الوضع السياسي في العالم العربي. ففي مرحلة ما قبل الاستقلال، تحالفت مختلف القوى الوطنية وجيل الكبار والشباب معا في معركة التحرير، التي تحمل جيل الشباب الجانب الأكبر من أعبائها. وبعد الاستقلال تطلعت الحكومات الوطنية-تسيطر عليها الطبقة الوسطى عادة-إلى حالة من الاستقرار والوحدة تمكنها من إعادة البناء والانطلاق في آفاق التقدم. و اقتضى هذا كف ثورية جيل الشباب، واحتواء حركته، حتى لقد اصبح الاستقطاب بين نظم الحكم وبينه أحد معالم الحياة السياسية في الدول العربية.

وحين يقيم الشباب حصاد السنوات الطويلة من البذل والعطاء والطموح والأمل، يصلون إلى نتيجة بالغة الخطورة والأثر: فهم لم يحرموا من جني حصاد تعبهم فقط، ولكنهم يحسون بأنهم خدعوا وضللوا. فالتقدم الاقتصادي-على أهميته-لم يؤد إلى تحسين مستوى معيشة الطبقة الدنيا-والقطاع الأدنى من الطبقة الوسطى، بل أن مستوى معيشتها قد انخفض بمعنى ما. والتقدم الاقتصادي-وهو متواضع على أية حال-لم يصاحبه تطور حضاري أو تنمية اجتماعية، وما زال التخلف الثقافي والفكري وتخلف العلاقات الاجتماعية قويا إن لم يكن قد ازداد بفضل اتساع الهوة بين مجتمعاتنا والدول المتقدمة.

ويعيش جيل الشباب أزمة الصراع العربي الإسرائيلي، وهو صراع مهين

إلى حد كبير-بالرغم من بارقة الأمل التي خلفتها الجولة الأخيرة فيه-(حرب أكتوبر 1973).

ولقد كان عدم الاستقرار الذي تميزت به الحياة السياسية في كثير من الدول بالمنطقة العربية عاملا حاسما في تعقيد الموقف وزيادة حدة الأزمة الحضارية. ولسنا نقصر مفهوم عدم الاستقرار السياسي على الانقلابات والثورات-وهي كثيرة على أية حال. ولكنا نمده ليشمل التحولات الجذرية في السياسة أو الاستراتيجية العامة للدولة. فانه بعكس الحال في الدول المتقدمة، ترتبط السياسة العامة للدول في منطقتنا بشخص الحاكم وفلسفته السياسية، ومن ثم تختلف باختلاف الحكام. وحتى في عهد حاكم واحد، ليس من النادر أن تحدث تحولات جذرية على السياسة العامة للدولة. ومن شأن هذا كله أن يخلق حالة من عدم الوضوح وأن يهدر كثيرا من الوقت والمال والجهد، وأنه تسبب في إضعاف الروح المعنوية للشباب.

وحين يلاحظ الشباب أن مشروعاتهم في الحياة تتعثر وتعاق، يصل شك بعضهم ويأسهم إلى حدود متطرفة، إلى «حدود الشك في أن يكون هناك حلم جديد بأن يتمسك الإنسان به ويعيش على أمل تحقيقه، وهذا ينتهي ببعضهم إلى الضياع». بل إن الشك والضياع يمتدان في بعض الحالات ليشملا «الذات» نفسها.

فنموذجا الذكورة والأنوثة قد فقدا الكثير من مضمونهما الذي كان سائدا راسخا منذ حوالي نصف قرن، لكن مضمونهما الجديد لم يتحدد بعد بصورة واضحة. وظروف التربية والحياة الاجتماعية والاقتصادية لا تتيح في كثير من الأحيان تحديد نموذج الراشد ومسئولياته في وقت مبكر، بما يطيل آتك الفترة المرهقة التي يقضيها المراهق في صراع حول اكتساب مكانة مستقرة بين الراشدين» [4]. غير أن هذا كله لا يعني أن الشاب يتجه إلى «خلفة» تامة من الواقع الاجتماعي، بصفة خاصة، بل على العكس من ذلك-تكشف اهتمامه وقلقه عن رغبة في إعادة تنظيم علاقاته بالآخرين التي أفسدتها أزمة بداية الشباب، ولم تعد صالحة في شكلها القديم لتنظيم تفاعله مع الواقع.

الشباب العربي، إذن، يعيشون في مناخ من الانومي anomie [*]-على حد بعض التعبيرات السسيولوجية-تضعف فيه القيم التي استقرت طويلا حتى

لتمتلئ الحياة بالمتناقضات-وبخاصة تناقض أنساق القيم بين الأجيال المختلفة وتناقض الحياة اليومية مع نسق القيم والمعايير-إلى حد أن يتعذر الاتفاق على شيء مشترك يلتزم به المجتمع.

في مثل هذه الظروف، يحس الشاب، من ناحية، بأنه وحده لا يجد عونا من المجتمع في اختيار أهدافه وتحديد سلوكه. وهذا ليس نتيجة للحرية التي يوفرها له النظام الاجتماعي، ولكن بسبب عدم اهتمام المجتمع به. ويواجه الفرد أزمة، لكون أهدافه وقيمه وتصرفاته التي يعتبرها أخلاقية مشروعة، غير متفقة مع ما سار عليه المجتمع في الماضي، وتكون الأزمة أشد حين يواجه الشاب ضرورة الاختيار من بين بدائل عدة.

ومن ناحية ثانية لا يبقى للخبرة القديمة المتراكمة مع تقدم السن الفائدة أو السلطة أو المهابة التي كانت لها قديما. ومن ثم يفقد الكبار-الآباء والمربون وغيرهم-السطوة التي كانوا يكتسبونها بمجرد تقدمهم في السن.

ومن ناحية ثالثة، تفقد عديد من الضوابط الاجتماعية التقليدية-كالأسرة والجوار وما إليهما-معظم ما كان لها عن سلطة وقوة. وهو وضع ينعكس على فاعلية الضوابط الرسمية-كالشرطة، والمحاكم، وما إليهما-التي لا تقوى وحدها على تحقيق الاستقرار والهدوء. وتفقد وسائل التطبيع الاجتماعي كالأسرة والمدرسة وغيرهما-جزءا كبيرا من فاعليتها وهيبتها، نظرا لتعارض ما تنادى به من قيم، وما تقبله من ألوان السلوك بعضه مع البعض الآخر.

الهوامش والمراجع

1- بالنسبة للفقرة (ثانيا) أنظر:
على المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1798- 1914، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 1975. وكذلك، لويس عوض، «المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث، المبحث الثاني، الفكر السياسي والاجتماعي، القسم الأول من الحملة الفرنسية إلى عهد إسماعيل»، القاهرة، معهد البحوث و الدراسات العربية العالية، 1963.
2- انظر على سبيل المثال:

Mircea Milta, «New Approaches in Scientific Thinking», The Social Future (Bucharest) Special .19- 15. Issue, August 1974. Pp

3- بحسب احدث الإحصائيات، بلغ متوسط الدخل الفردي في الكويت 510ر11 دولارا أمريكيا، وفي دولة الإمارات العربية 480ر10، وفي قطر 320ر8، وفي ليبيا 080ر5، وفي المملكة العربية السعودية 010ر3، وفي البحرين 440ر2، وفي عمان 070ر2، وفي العراق 280ر1، وفي الجزائر 780 دولارا (صحيفة الأهرام (القاهرة) عدد 3 مارس 1977)، وبعض هذه المتوسطات من أعلى متوسطات الدخل الفردي في العالم.
4- مصطفى سويف، الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي: دراسة ارتقائية تحليلية القاهرة، دار المعارف، الطبقة الثالثة، 1970، ص 234.

الحواشي

(*) الانومي anomie; anomy هي تلك الحالات التي تفتقر منها الحياة الاجتماعية إلى القيم والمعايير الواضحة اللازمة لتوجيه السلوك، أو تكون ثمة قيم ومعايير ولكنها متعارضة بعضها مع البعض الآخر بشكل يؤدي إلى البلبلة والارتباك، أو توجد ظروف لا تسمح للأفراد بالانتماء للجماعة انتماء ذا معنى بالنسبة لهم. وفي مثل هذه الحالات يشعر الشخص بأنه فاقد الفاعلية عديم التأثير.

الباب الثاني

هل هو جيل مغترب؟

مقدمه

في طبيعة اغتراب الشباب العربي

ظهرت فترة الاغتراب alienation لأول مرة في الفكر المسيحي في العصور الوسطى. ولكنها لم تتبلور كمفهوم فلسفي إلا في الفلسفة المثالية الألمانية في أواخر القرن الثامن عشر حين قصد بها أن تلخص أزمة الوجود الإنساني في «النظام الجديد»-النظام الصناعي في صيغته الرأسمالية. وترددت الفكرة في مذاهب فلسفية واجتماعية عديدة. حاول بعضها أن يعطيها معنى أكثر تحددا وموضوعية بتحليلها، لا في حدود علاقة الإنسان بذاته، ولكن من خلال علاقته بالواقع، والواقع الاجتماعي على وجه الخصوص.

وتقوم فكرة الاغتراب على أساس التمييز بين «وجود» الإنسان و «جوهره» وعلى أن وجود الإنسان بصورته التي نراه عليها في المجتمع الحديث لا يتفق مع جوهره أو ما هو من حقيقته، وإنما هو يختلف عنها بل ويتعارض معها. فما هو كائن لا يتفق مع ما ينبغي أن يكون.

والإنسان المغترب [1] alienatedهو الإنسان الذي لا يحس بفاعليته ولا أهميته ولا وزنه في الحياة،

وإنما يشعر بأن العالم (الطبيعة، والآخرين، بل والذات)-على عكس ذلك- غريب عنه: يوجد بعيدا عنه وفوقه، حتى ولو كان من خلقه هو.

فعلاقة الإنسان «المغترب» بالحياة الاجتماعية هي كعلاقة الإنسان البدائي بالصنم: يخلقه أو يصنعه بيديه، ثم يرفعه فوق نفسه. ويتحول إلى مجرد عبد له لا تخرج علاقته به عن عبادته. وبقدر ما يتفانى الإنسان في عبادة الصنم-الذي قد يكون الدولة، أو الأسرة، أو أية مؤسسة اجتماعية أخرى-يزداد خضوعه له ويزداد احتقاره لنفسه، أي تقليله من شأنها، بل وتحقيره لها.

وفي نشاطاته الاجتماعية المختلفة لا يحقق الإنسان المغترب ذاته، وإنما يفقدها، ولا يشعر سعادة فيها، وإنما يعاني من شقاء وتعاسة، ولا ينمي مهاراته وخبراته، وإنما يفقدها، ولا يحقق استعداداته وإمكانياته، وإنما يخسرها.

و نحن نظن أنه لا خلاف على أن الهدف الذي ينبغي أن ترمى عملية الالتقاء إلى تحقيقه هو الإنسان الكامل أي الإنسان وقد تحققت كل إمكانياته وازدهرت كل ملكاته: يعرف ذاته ويرضى عنها أو يقبلها بل ويسعد بها، ويدرك الواقع ويستطيع أن يتعامل معه في علاقة عمل منتج مشبع نفسيا، ويفهم الآخرين ويمكن أن يقيم معهم علاقات صحية مرضية لهم ومشبعة له في الوقت نفسه، علاقات يجد فيها احترام لذاته بقدر ما يضع فيها من تقدير للغير.

والإنسان المغترب كما يتحقق الآن هو أدنى مما يمكن أن يكون، أي أقل كثيرا مما تسمح له إمكانياته، أو هو ليس كما ينبغي أن يكون، أي أن استعماله لإمكانياته يأخذ شكلا لا يساعد في تحقيقها وازدهارها.

وبهذا المعنى يمكن أن نقول أن شيئا من الاغتراب كان نصيب الإنسان في كل عصر من عصور التاريخ، المكتوب على الأقل. ولكن يبدو أن اغتراب الإنسان بدأ يأخذ أبعادا جديدة خطيرة في العصر الحديث بعد أن استقر النظام الصناعي الجديد، وظهرت الدولة الحديثة أو النظام الجديد للدولة.

وبشيء من التجاوز، يمكن أن نقول أن الإنسان في مجتمعاتنا يولد في حالة اغتراب. فمعظم الإناث يولدن غير مرغوب فيهن، وكثيرون من الذكور يولدون لان آباءهم لا يعرفون كيف يتوقفون عن النسل، يولدون كنتائج غير

مقصودة في أحيان كثيرة. ولا يتردد الأهل في مثل هذه الحالات عن مصارحة الأبناء عن أنهم لم يكونوا يريدونهم.

وفي مراحل الارتقاء المختلفة لا يتحمل الأهل والكبار لكافة مسئولياتهم في معاونة الأبناء في فهم ما يطرأ عليهم من تغيرات وقبوله والتكيف الناجح معه ومن ثم يخفق الأبناء في إدراك معنى ما يحدث لهم ودلالاته، بل انهم قد يرفضونه، يرفضون ذواتهم-حين يجدون أن ما يجري فيهم ولهم يصير مادة للتفكه والسخرية من الكبار. وحين يفقد الأهل والكبار قدرتهم على توفير الفهم السليم والدفء العاطفي والتوجيه الناضج للأبناء، يفقد هؤلاء قدرتهم على تحقيق التوافق والتكيف وإعادة التنظيم اللازم.

وتتجه التربية بالأبناء لا إلى تحقيق ملكاتهم وصقل مواهبهم وإرضاء طموحاتهم ولكن إلى صبهم في قوالب بالشكل الذي يرضى عنه الكبار ويقبلونه، فمواد الدراسة لا تلتقي مع اهتماماتهم، ولا تجيب على تساؤلاتهم بل ولا تساعدهم في فهم الواقع فهما موضوعيا سليما. ومنهج الدراسة يبعد بهم عن الواقع ويعزلهم عن التجربة الحسية ويكون فيهم نوعا من سوء الفهم لهما والتعالي عليهما. وفضلا عن هذا فانه يقدم لهم النظام الاجتماعي القائم باعتباره «معطى»، يرتفع على النقد ولا يقبل المناقشة.

والجانب الأكثر إلحاحا من أزمة الشباب هو في نظر بعض علماء النفس العزلة التي تترتب على ضعفه أمام مجتمع منظم قوي قاهر. وهي عزلة لا سبيل إلى حلها-في تصور هؤلاء-إلا بتحقيق نوع من الوحدة الحقيقية القائمة على «الحب والتعاطف والتعاون بين الناس». غير أن هذه الوحدة تبدو مستحيلة بالنظر إلى ضغط المجتمع على الناس، ودفعهم إلى المسايرة والانصياع، وهو اتجاه لا يؤدى فقط إلى الحيلولة دون تحقيق وحدة حقيقية بين البشر، وإنما يتسبب أيضا في تعويق نمو ميول الحب والإبداع لديهم. وهذا تطور مرضى يتسبب في كثير من الانحرافات في المجتمع الحديث.

ويمكن أن نتكلم عن اغتراب الشباب العربي في ضوء حقيقة موضوعية بسيطة-وهامة في الوقت نفسه-وهي أن شبكة العلاقات والتنظيمات الاجتماعية التي يرتبطون بها لا تقوم على أساس تقدير موضوعي سليم لظروفهم واهتماماتهم وإمكانياتهم، ولا يسير العمل فيها بحيث يحقق مصالحهم ويرضي طموحاتهم. ولا يقتصر هذا على الأجهزة التي لا يلعب

الشباب دورا حاسما فيها، مثل أجهزة وضع السياسات العامة واتخاذ القرارات الهامة وتنفيذها: وإنما يمتد ليضم الأجهزة التي تعتمد عليها جهودهم كالتنظيمات السياسية، بل وتلك التي تقوم-في وثائق إنشائها-من أجلهم: كنظام التعليم، ومنظمات الشباب، وما إليها.

بل إن هذه «الأزمة» التي تبدو في علاقة الشباب ببعض التنظيمات الاجتماعية تمتد لتشملهم. فالعمل الذي يتاح لهم لا يلتقي في أغلب الأحيان مع استعداداتهم وخبراتهم وميولهم وتطلعاتهم بل وقد يتعارض معها. ومن ثم يصبح العمل نشاطا ثقيلا على النفس غريبا عنها، يمارسه الشخص بالرغم منه-بمعنى ما-من أجل أن يعيش لا من أجل أن يستمتع به. ويعجز مثل هذا النوع من العمل في مساعدة الإنسان في تفتح إمكانياته وتحقق ملكاته، بل انه يدفع فيه إحساسا بالسلبية تجاه الواقع واتجاها باللامبالاة. وبهذا الأمر المدمر للعمل إلى علاقات الشخص بالآخرين فيعزله عنهم بل ويضعه ضدهم ويضعهم ضده. وبهذا لم يعد العمل جزءا من الإنسان يحقق له ذاته وإنما هو نشاط يفقد فيه ملكاته الذهنية وقدراته الجسمية ولم يعد مرضيا له، وإنما هو يد فع فيه إحساسا بالتعاسة، إذ لا سيطرة له عليه بل لا مصلحة له فيه، لم يعد يساعده في أن يلعب دورا ذا معنى في الجماعة بل انه يضعه في صراع مع الآخرين.

ولا يخلو هذا الوضع من مرارة وقسوة، لأنه يحدث في الوقت الذي تزداد فيه أهمية الشباب وخطورة دورهم في الحياة. وربما كان هذا الوضع يحدث بسبب زيادة أهميتهم وحيوية دورهم في الحياة. فمن ناحية، تزداد أهمية جيل الشباب العددية ونسبته في التركيب السكاني لمعظم المجتمعات العربية، ويزداد تعليمه وثقافته ووعيه بفاعليته وكفاءته في ممارستها، وتزداد بالتالي قدرته على التأثير في سير الأمور في المجتمع. ومن ناحية أخرى، ولهذه الأسباب نفسها، يزداد حرص جيل الكبار على احتواء الشباب وكف حركته أو توجيهها في مسارات معينة. وتستحمل في هذا عديد من الأساليب من الترغيب والرشوة إلى القمع والقهر.

ومن ثم ففي حين اصبح الشباب أداة الدولة في مباشرة سلطانها وتحكمها على المستويين المحلي والعالمي وتأكيدهما، يتضاءل وضعه الحقيقي في صنع القرارات المؤثرة وتنفيذها.

فنمو سلطة الدولة وتعاظم شأن الكبار فيها يتمان على حساب سلطة جيل الشباب وفاعليته. ومن هنا فان أي تدعيم لوزن إحدى السلطتين يتم على حساب الأخرى.

وحين تتهاوى أحلام الشباب وطموحاته كأوراق شجرة أدركها خريف عاصف بعد عمر جد قصير، فليس غريبا أن يقف بعضهم موقفا معارضا لعالم الكبار. وقد يصل بهم الأمر إلى حد التمرد عليه والثورة ضده، وأن يبحثوا عن التعويض والسلوى في عالمهم الخاص عالم الشباب-رفاق السن والأزمة-يحققون فيه ذواتهم، ويعيشون فيه الحياة على نحو يرضيهم.

الهوامش والمراجع

١- أنظر مثلا:

Erich From, Karl Marx's Theory of Alienation. in Dennis H. Wrong and Harry L. Gracey, eds: Readings in Introductory Sociology, New York The Macmillan Co., 1967. Pp. 219-227; and. Ellis D. Evans and Thomas H. Potter, Identity,. Crisis: A Brief Perspective, in Ellis D. Evans, ed. Adolescents: Readings in Behavior and Development,. Hinsdale, Ill.: The Dryden Press, Inc. 1970. Pp 68-52.

3 آلام النمو الأولى وأزمة الهوية

أولا

استعرضنا في فصل سابق (الفصل الأول من الباب الأول) التغيرات العضوية-الجسمية والجنسية بخاصة-والنفسية الواسعة العميقة التي تطرأ على الشخص منذ بلوغ الحلم، وتصل إحدى نقاط التحول الهامة مع بداية الشباب. وأشرنا إلى بعض ما يترتب عليها من تأثيرات في وضع الشباب. وذكرنا من هذه التغيرات والتأثيرات:

1- تلاشى رهافة ودقة القسمات المميزة للطفل ليحل محلها شيء من الفظاظة-المؤقتة على الأقل-الناتجة عن اختلال نسب أعضاء الجسم وتغير ملامحه. وأشرنا إلى بعض ما يترتب عليها من آلام وإحساس بالإعياء، فضلا عن الخوف والقلق.

2- بزوغ مظاهر الجنس الأولية والثانوية، وما يترتب عليها من حاجات وأحاسيس ومخاوف جديدة.

3- اكتمال النضوج العقلي,و ظهور قدرات و مهارات جديدة مثل التذكر والتصور والخيال.

4- تغير الانتماء من جماعة الطفولة في اتجاه

جماعة الراشدين.

إن حرص الشباب على تخطي مرحلة الطفولة وبلوغ مرحلة الرشد ليس مجرد نزوة شخصية، وإنما هو «مطلب» من مطالب النمو أو الارتقاء. وعملية الارتقاء النفسي الاجتماعي ليست نتيجة تحقق آلي لاستعدادات فطرية موروثة، وإنما هي عملية تتوقف سرعتها وخط سيرها ومحتواها على علاقات الفرد بالآخرين-الأسرة، والرفاق، وغيرهم-و بالمنظمات الاجتماعية المختلفة، وبأنساق القيم والتقاليد والعادات الشائعة.

ومن أهم المشكلات التي تأتي بها بداية الشباب ما يتعلق بفهم الشباب لما يجري في كيانه من تحولات والتكيف معه وقبوله.[1]

وتتم معظم التحولات الضاوية-وبعضها في غاية الأهمية-بفجائية لا تتفق مع بدء النمو خلال مراحل النمو الأولى-الطفولة-بحيث لا تترك للشخص الوقت الكافي لتأملها واستيعاب دلالاتها، وإعادة تنظيم تصوراته ومواقفه وتصرفاته بازائها.

وفيما يتعلق بالشاب نفسه، تأتي مشكلات النمو العضوي في فترة المراهقة والشباب من، أولا: السرعة الملحوظة التي تتم بها والتي تحدث عقب فترة من النمو الهادئ الذي لا يكاد يلحظه الفرد ولا الآخرون، ثانيا: عدم التماثل في نمو أعضاء الجسم المختلفة أو نمو هذه الأعضاء بسرعات متفاوتة، مما يترتب عليه أن الشاب قد لا يقبل شكله، ولا يقدر على تحقيق التوافق الحركي لبعض الوقت، ثالثا: التحولات العضوية غير الصحية كانخفاض النبض، وارتفاع ضغط الدم، وانخفاض نسبة استهلاك الجسم للأكسجين، رابعا: وأخيرا: مشكلات النضج المبكر والبلوغ المتأخر.

والأخطر من هذا أن استجابة الكبار لهذه التحولات لا تنطوي عادة على تقدير كاف لأهميتها ولا تساعد الشباب على فهمها. بل إنها لا تخلو في أحيان كثيرة من مواقف غير صحية في نتائجها، وبخاصة حين تتناول بعض هذه التغيرات كمادة للتفكه، بل والسخرية. ومن قبيل ذلك، الاستجابة للنمو السريع لهيكل المجسم أو خشونة الصوت، وعيوب جسمية كالقصر المفرط أو الطول أو النحافة أو البدانة، أو البشرة غير الصافية، وبعض المظاهر الجنسية الثانوية مثل صغر الثديين عند الفتاة أو عدم ظهور شعر الذقن والشارب عند الفتى، أو توزيع الشعر على جسم كل منهما، وما إلى

ذلك.

وتختلف مواقف الآخرين من مثل هذه الأمور ووعيهم بما تنطوي عليه من اشكالات واهتمامهم بها باختلاف المستوى الاقتصادي الاجتماعي، والتعليم، وما إليهما، عادة. كما أنها تتأثر باختلاف المعايير الشائعة في الحضارة، فالنحافة المعقولة في الفتاة قيمة جمالية في المستويات الاقتصادية الاجتماعية العليا وبين المتعلمين، ولكنها ليست كذلك بين الفئات الدنيا وبين غير المتعلمين.

وسواء كان موقف الآخرين من بعض ملامح الشاب هو السخرية والتفكه، كما يحدث غالبا، أو كان الشفقة والعطف، كما يكون أحيانا، فانه لا يساعد الشاب على فهم ما يجري في كيانه، ويجعله يتردد في قبول بعض ملامحه، وقد يميل في الحالات المتطرفة إلى رفضها-وهو إحساس غير صحي في هذه المرحلة بالذات تترتب عليه تعقيدات كثيرة في موقف الشخص من نفسه والآخرين وتعامله معهم.

ولا يقتصر الأشكال في التغيرات العضوية على فهمها وقبولها، وإنما يتعداه إلى بعض ما يترتب عليها من آثار ونتائج. فنمو الهيكل العظمي بسرعة تفوق لسرعة نمو العضلات المتصلة ببعض أجزائه يتسبب في حالات كثيرة في خلق إحساس بالتوتر العصبي.

كما أن ازدياد سعة القلب بشكل يفوق نمو سعة بعض الشرايين المتصلة به وقوتها يؤدي إلى زيادة ضغط الدم على نحو تظهر آثاره في صورة نوبات من الإغماء والصداع، فضلا عن الإحساس بالإعياء. ويعاني عدد من الشباب من اضطرابات في الجهاز الهضمي: ويبدو بعضهم أكولا وربما شرها لإقباله الشديد على الطعام، نتيجة لنمو المعدة وزيادة سعتها بدرجة كبيرة (وان كانت مشاغل بعض الشباب وهمومهم قد تذهب ببعض شهيتهم إلى الطعام حتى لا يتناولون منه ما تتطلبه أجسامهم النامية، فيتعرضون للهزال وتشحب ألوانهم-لفترات على الأقل). وفضلا عن هذا كله، تواجه الفتاة مشكلات الحيض أو الطمث، وما قد يأتي به من ارتباك وإجهاد، وما يسببه لها من قلق، وبخاصة في حالة عدم الانتظام والاضطراب (وهي حالة شائعة الحدوث في السنوات الأولى بعد البلوغ مباشرة) وليس من النادر أن تبلغ بعض هذه المشكلات من الشدة حدا تصبح فيه معوقة للشاب-الفتى والفتاة-

عن ممارسة حياة هادئة منتجة، هذا بالإضافة إلى ما يترتب عليها من الاستعداد للإصابة بعدد من الأمراض وضعف المقاومة لبعضها.

وتنعكس هذه المشكلات-حتى حين لا تكون في حقيقتها بالخطورة التي ترى بها-على حالة الشاب المزاجية وقدرته على الإنتاج. فيتعطل سير حياته العادية بسبب ملازمة الفراش، أو يبدو منسحبا وانطوائيا غير قادر على التركيز الكافي سواء في قاعة الدرس، أو الاستذكار، أو العمل، قلقا على نفسه سواء في تحمل مسئوليات الحاضر أو بالنسبة للمستقبل، مهموما تبدو له المشاكل البسيطة معوقات خطيرة. فالفتاة، على سبيل المثال، لا تعرف أن اضطراب الحيض أمر شائع بين رفيقات سنها، فترى نفسها غير طبيعية وتقفز إلى استنتاجات مقلقة بشأن مستقبلها كامرأة. وهذا يفسر عددا من حالات التخلف في التحصيل الدراسي بين الفتيات في المرحلة الثانوية أو المتوسطة.

وبالإضافة إلى هذا كله، قد تمنع هذه المشكلات الشاب من ممارسة بعض الأنشطة المحببة إلى نفسه مثل الرياضة أو النشاط الاجتماعي أو ما إليهما.

وتميل الإناث إلى أن يكن اكثر حساسية، وبالتالي أكثر تعرضا لهذه المشكلات وأكثر معاناة منها من الذكور، على أساس أن الملامح الجسمية متغير له وزن في شخصية الأنثى أكبر من وزنه في تقدير قيمة الفتى، بالإضافة إلى خصائصها الفسيولوجية المتميزة-وبخاصة ما يتعلق منها بالحيض. ويصدق هذا بصفة عامة على الشكوى من الصداع، والإحساس السريع بالتعب، و فقدان الشهية للأكل، والدوار (أو الدوخة) والإحساس بالخمول.

وفضلا عما تسببه هذه المضايقات الصحية من آلام، فإنها تصيب الفتاة بالإجهاد وتعطلها عن الدراسة أو التحصيل. والأخطر من هذا القلق إلى حد الهم، وتوهم استحالة الشفاء، وبخاصة حين تمتد الشكوى من بعض هذه الأعراض، كالصداع، وفقدان الشهية للأكل-لمدد طويلة، أو حين تكون الشكوى مما لا سبيل إلى عمل شيء جزري بصدده «كالعيوب الخلقية». ويتعدى تأثير هذه الأمراض نطاق الفتاة ذاتها ليؤثر في علاقتها الاجتماعية تأثيرا سلبيا (وبعض مصادر الشكوى كعيوب الكلام، أو ما إليها، يضع

الفتاة موضع السخرية في مواقف كثيرة).

ومن ناحية العمر، يبدو أن حدة بعض هذه المشكلات تزيد في بداية الشباب عنها في المراحل المتأخرة منها-حين يكون الشخص قد وصل إلى فهم افضل لذاته وتقبلها «على علاتها». وان كان الأمر يتوقف في جزء كبير منه على الأقل-على السياق الاجتماعي الحضاري، ووضع الشخص فيه، وإمكانياته الأخرى.

وقد تكون بعض المشكلات الصحية وهمية. فليس من النادر أن يتوهم الشاب-وخاصة في بداية المرحلة-ضعف الصحة والمرض. وهذه ظاهرة يبدو أنها تشيع في الإناث أكثر من انتشارها بين الذكور. ومن ثم يتردد منهن عبارات مثل أشعر أن الله قد أصابني بجميع الأمراض التي توجد في العالم «وإذا مرض إنسان وحكي أمامي عن أعراض (مرضية)، استمر في التفكير فيه، ويساورني الشك في أنني مريضة بهذا المرض». هذه الأوهام بالمرض تنتج عن بعض الأعراض المرضية الخفيفة التي تترتب عن ميل الشباب للاستهتار بصحتهم فهم يهملون كثيرا من متطلبات السلامة، وينظرون إلى الاحتياطات التي كانت تعرض عليهم في طفولتهم على أنها بدون مبرر.

ثانيا

يأتي النضج الجنسي في المراهقة وبداية الشباب بعديد من الحاجات والاشكالات، يتعلق بعضها بفهم الشاب لما يجرى في كيانه، ويتصل بعضها بقبول ما يحدث، ويرتبط بعض ثالث بضرورة العثور على متنفس للطاقة الجياشة الجديدة.

وعلى الرغم مما يبديه بعض الشباب إزاء النضج الجنسي والحاجات التي تدفعها فيهم من هدوء أو عدم التفات، فانهم في حقيقة الأمر يستنفدون جزءا كبيرا من طاقاتهم الجسمي والذهنية ومما لديهم من وقت في التفكير فيها والانشغال بالبحث عن حل لمشكلاتها.

يستلزم النضج الجنسي نوعا من التكيف مع مشكلات الجنس: فهمها والتوصل إلى مدخل سليم أو صحي لحلها. ويتمثل هذا التكيف في نمو ميول جنسية غيرية ترى الإشباع الجنسي وتبحث عنه في الجنس الآخر،

وفي اتجاهات إيجابية تجاه الجنس الآخر، وفهم لدور الذات ومسئولياتها في الإشباع الجنسي وممارسة هذا الدور بقدر كاف من الإحساس بالمسئولية والرضا.

غير أن النضج الجنسي والاتجاهات الإيجابية نحو الجنس الآخر لا تكفي وحدها لاستجابة صحية من الفرد لنداء الجنس، فسواء في حالة الأنثى أو الذكر تتطلب الاستجابة الجنسية نوعا من الاستثارة بالإضافة إلى ظروف عضوية وغددية معينة. والعوامل التي تحول دون وجود استثارة جنسية، ومن ثم تعوق الاستجابة الجنسية، لا تؤدي فقط إلى حرمان الشاب من إشباع حاجة عضوية ملحة، ولكنها تؤدي أيضا إلى تكوين اتجاهات غير صحية تجاه الجنس الآخر.

فبعد بلوغ الحلم ووصول قمة النضج الجنسي-أي القدرة على التناسل- تكون الحاجة الجنسية قد بلغت قمة يقظتها، ويتجه الميل الجنسي نحو الجنس الآخر، ويصبح على قمة اهتمامات الشاب أن يوفق في العثور على رفيق. ويترك الاهتمام بالجنس الآخر-كموضوع للإشباع الجنسي-تأثيرات واضحة في سلوك الشباب: تزداد عنايتهم بملابسهم وزينتهم، ويحاولون الظهور بمظهر الراشدين. وتترك خبراتهم العاطفية بصماتها على توفيقهم في الدراسة أو تعثرهم فيها، ويصاب بعضهم بصدمات حقيقية عند زواج من يحبون من غيرهم.

ويندر أن تقوم العلاقات العاطفية الأولى للشباب-والمراهقين بخاصة- على أسس من دقة الاختبار أو الاعتبارات التي يأخذ بها الراشدون عند اختيارهم لشريك الحياة. فتصرفات الشباب في هذا المجال تجارب أولية في ميدان جديد عليه تصدر عن أحاسيس غامضة غير محددة.

ويغلب على بعض هذه العلاقات طابع «عذري» يرتبط بالتحريم الديني والاجتماعي وبالمثالية والرومانسية اللتين تعدان من سمات مرحلة الشباب الأولى بصفة خاصة. على أن أشكال التقليد الرومانسي الخيالي لا يبقى طويلا بالنسبة لأغلب المراهقين، فان التأثيرات الجنسية الصريحة لا تلبث أن تتسلل إليهم وتفرض وجودها القوى عليهم، ويزداد تأثرها وجذبها لانتباههم على مر الأيام. وتتطور نظرتهم إلى الجنس والمرأة، ويتطلعون إلى اكتساب الخبرات في ميدان الحياة الجنسية ومن ثم يتجه المراهق تدريجيا

إلى الاستقرار في عواطفه، والى التخصيص في علاقاته والى الاختيار الذي يقوم على أصول وأسس تقترب من مقاييس الكبار.

ويستثير موضوع الجنس مشاعر حادة، عادة. وينطوي موقف المجتمع منه-ومن الجنس عند الشباب بصفة خاصة-على تناقضات لا تخلو من غرابة. فمن ناحية أولى، لا يوجد اتساق بين دعاوى التطهر والتعفف التي تدعو إليها القيم والمعايير الاجتماعية في الظاهر وبين الانشغال به والانغماس فيه-إلى درجة الاستغراق أحيانا في الممارسة الفعلية. ومن ناحية ثانية، يوجد التناقض بين الاهتمام الشديد به وبين تفادى طرح مشكلاته للتحليل والمناقشة إلى حد اعتباره من المحرمات. وهذا التناقض الغريب لا يقتصر على منابر التفكير العادية: الصحافة، والإذاعة، والتليفزيون، والكتاب، وإنما يمتد ليشمل طريقة تفكر الدارسين أنفسهم، فهم نادرا ما يتناولونه بالبحث، وان تناولوه فبسطحية لا تطرح مشكلاته لتخصص موضوعي أمين. هذا الموقف المصطنع الجد قد يرضى بعض الفئات الاجتماعية، ولكنه يواجه برفض مطلق من معظم الشباب الذين يحسون أن رغباتهم الجنسية أشد من أن تمنع، وتساؤلاتهم بصدد الجنس ملحة إلى درجة أنه من الصعب عليهم أن يتجاهلوها. (ومن ثم، تستثير ممارساتهم الجنسية، بل وحتى الأسئلة التي تلح عليهم، أحاسيس قوية بالذنب والألم تصل في بعض الأحيان إلى حد الحظ من قدر الذات).

ومن ناحية ثانية، فان بعض الإشكال في أمر الجنس والرغبات الجنسية لدى الشباب، يكمن في الارتباط بينها وبين اكتشاف الذات، وتقديرها، وقبولها. فالرغبة الجنسية تكون، في صورها الأولى على الأقل، عارمة تستثير الفضول وتدفع في الشاب إحساسا بالنضج. ومن ثم تكون الممارسات الجنسية الأولى-بالإضافة الذي المتعة الجنسية والنفسية التي توفرها-نوعا من تأكيد نضج الشخص: تخطيه مرحلة الطفولة ودخوله عالم الرجولة أو الأنوثة. وعن قيمة محورية في الحضارة العربية المعاصرة، شأنها في ذلك شأن كثير من الحضارات. ومن ثم كان الفضول وحب الاستطلاع الذي تخلفه الرغبات الجنسية، وكذلك خوف الشخص على حالته بالقياس الذي الآخرين من أن يكون أقل منهم أو مختلفا عنهم، وهو خوف لا يفيد في تخفيفه إغفال الرغبات الجنسية ولا حتى الإعلاء الذي يدعو إليه البعض،

هذا إن لم يساعدا-نعنى الإغفال والإعلاء-على تأكيد الخوف وتحويله الذي نوع من القلق.

وهناك، من ناحية ثالثة، حرص الشخص على اختبار قيمته في نظر الآخرين-رفاق السن بالطبع، والجنس الآخر بصفة خاصة-وتأكيد هذه القيمة-والممارسات الجنسية أو الدعوة إلى هي نوع من أساليب الاختبار.

ويضاف الذي هذا كله أن بعض القيم الشائعة في حضارة الشباب لا تلتزم بما يعتبرونه «نفاقا» في حضارة الكبار أو انفصالا بين قيم التطهر والتعفف من جهة، والممارسة الفعلية من ناحية أخرى، حضارة الشباب-على العكس من ذلك-تؤكد حقهم في إرضاء رغباتهم، بعضهم من موقف معارضة فكرة «الكف» في حد ذاتها، والبعض الآخر من منطلق التجريب واكتساب الخبرة في أداء أدوار الراشدين.

السلوك الجنسي للشباب، إذن، لا يصدر-بالضرورة-عن «الانفلات» الذي يصوره به بعض الكبار، ولا طلب اللذة الذي يفوقهم الكبار فيه، وإنما هو استجابة لعدد من الدوافع، بعضها غير جنسي. وهذا يفسر ما يلاحظ من أنه بالرغم من أن معظم الشباب يميلون إلى عدم رغباتهم الجنسية، فانهم في الممارسة الفعلية قد يكتفون بالحب «الرومانسي» الذي يقف قبل الاتصال الجنسي الكامل، ويجدون فيه إشباعا، أو بعض الإشباع بمعنى أدق.

وينطوي الموقف من موضوع الجنس عند الإناث على تعقيد اكثر منه عند الذكور، فثمة مشكلة ازدواج المعايير فلا يستساغ أن تبدى المرأة مثل اهتمام الرجل بالجنس، ولا أن تصر على الاستمتاع فيه بالدرجة التي يفعل بها الرجل، ومن ثم يسمح للرجل عادة بما يحرم على المرأة. وهذا الأمر يبدو واضحا في الإصرار على «العذرية» في المرأة، وفي تأكيد قيمة خبرة الرجل الجنسية قبل الزواج «صحيح أن هذه الخبرة في الرجل غير مستساغة صراحة، ولكنها مقبولة ضمنا»، وهذا أمر تفسره بعض الإناث على أنه تكريس لوضعهن الأدنى في العلاقات الاجتماعية، وتفهمنه على أن المجتمع لا يرضى لهن في أمر الجنس بأن يكن اكثر من موضوع للإشباع الجنسي للرجل. ورفض بعض النساء لهذا الازدواج في المعايير-وبصفة خاصة لتحديد المجتمع لوضعهن في العلاقات الجنسية-هو السر فيما يلاحظ من ثورة من جانبهن لا على مجتمع الكبار فقط، بل وعلى جنس الذكور بصفة عامة.

وهذا يبدو للبعض «نسبيا» ويسبب لهم كثيرا من الانزعاج.

بهذا المركب المعقد من الدوافع، وبقدر غير قليل من البراءة أحيانا-أمام عدد ضخم من الحواجز والموانع-يبحث الشباب عن حل لمشكلات الجنس دون جدوى. (فمن المفارقات الطريفة-التي تدعو إلى التأمل العميق-أن معظم الحضارات تشجع-بل وتستلزم اكتساب الخبرة والمران قبل تحمل ممارسة أية مسئولية مهما بلغت من الروتينية. ولكن هذه الحضارات نفسها تقمع بكل عنف وإصرار محاولات اكتساب الخبرة في الممارسة الجنسية وبخاصة بالنسبة للإناث).

فالجنس في المجتمعات العربية من «المحرمات»، فهو ليس من موضوعات الحديث «المحترمة» بين الأبناء والآباء والكبار والصغار بعامة. ولا تتعرض له برامج التعليم في مراحل الدراسة المختلفة، ولا تتناوله وسائل الثقافة الأخرى، ولا تعرض له وسائل الإعلام التجارية إلا بالاستغلال الأثري المسف. ومن هنا تلهب التحولات الجديدة التي يأتي بها النضج الجنسي خيال الشاب، وترهق عقله الأسئلة الكثيرة التي تثيرها هذه التحولات، دون أن يجد من يساعده في الفهم، فضلا عن تقديم العون للتصرف السوي.

بل إن هذه الحاجات الجديدة الملحة لا تجد غير الصد في معظم الحالات، فالمجتمعات العربية-الحضرية بخاصة-ما زالت تميل إلى الفصل بين الجنسين، فالاختلاط بين الجنسين الذي يسود في مرحلة الطفولة وحتى ما قبل البلوغ بقليل، يتوقف بفعل مقصود من الكبار، وتقام حواجز قوية بين عالم الذكور وعالم الإناث لا في المواقف العامة-المدرسة، والنشاطات الرياضية والثقافية وغيرها-فقط، ولكن في سياق الأسرة أيضا، ويستنفد المجتمع جزءا كبيرا من طاقاته وإمكانياته لإقامة الحواجز وحراستها (ويمتد الفصل إلى المرحلة الجامعية في بعض الحالات، إذ ترتب بعض الجامعات برامج دراسية منفصلة لكل من الجنسين).

ومن مصادر قلق الشباب وهمومهم الاعتقاد الذي تدفعهم فيهم القيم والممارسات الاجتماعية في أن الحب يتعارض مع الدين، وانه ليس مجرد «عيب»، ولكنه من «الجرائم». وبالنظر إلى الإلحاح الشديد والحاجة إلى الحب يعيش الشباب أزمة طاحنة موزعين بين إلحاح عواطف يرونها بريئة قوية، وتخويف يصل إلى حد رهيب.

وتأخذ مشكلات العلاقة بين الجنسين عند الشباب صورا شتى، تبدأ بالشكوى من عدم وجود فرص للاتصال بالجنس الآخر، (وقد يصل الأمر إلى حد تحريم الاتصال بالجنس الآخر كما في حالة بعض الفتيات)، وعدم وجود فرص صحية مناسبة.

وفي بعض الحالات توجد فرص للاختلاط بالجنس الآخر، ولكن الشباب يتجنبونها ويتحاشونها بدافع «الإحساس بالعيب» الكامن في أعماق نفوسهم، أو نتيجة لخبرات أسرية غير صحية تركت اتجاهات مريضة نحو الجنس الآخر، أو لنقص المهارات الاجتماعية، أو لعيوب شخصية. غير انه من أهم ما يثير تردد الشباب في إقامة علاقات مع الجنس الآخر-الجهل الفاضح بأمور الجنس.

وفي حالات قليلة يؤدي الإحباط في أول تجربة عاطفية إلى مضاعفات في القيم والمشاعر والتصرفات نتيجة لعدم وجود فرص ملائمة لتجاوز التجربة، والتغلب على آثارها. ويفوت على كثير من الشباب إن من طبيعة مشاعرهم في هذه المرحلة عدم الاستقرار والتقلب.

تشكو فتاة «المجتمع لا يعرف الصداقة البريئة بين الفتى والفتاة، وتتهم كل فتاة تكلم فتى بأنها سيئة السلوك». وتقول ثانية «لماذا لا يسمع للحب بأن ينمو ما دام طاهرا». وتحتج ثالثة «لماذا إذا تصادقت بنت مع شاب يلومون البنت؟».

ولا يخلو موقف معظم المجتمعات العربية من موضوع الجنس-القيم المتصلة به وأساليب التصرف حياله-من الغاز يدعو إلى الدهشة، وقد يدفع البعض إلى الاستنكار. فما زالت كثير من معالم حضارتنا العربية تدور حول الجنس، بل ويتركز بعضها في الجنس. «فالفحولة»، وتقاس بالقوة الجنسية-ما زالت من أهم معاير الرجولة، وما زالت خبرات الرجل الجنسية قبل الزواج مادة للتباهي بين الراشدين، بغض النظر عن المستوى الاقتصادي الاجتماعي والتعليم وغيرهما. وما زال جمال المرأة أو أنوثتها باعتبارها موضوعا للإشباع الجنسي للرجل، من أهم مقومات رصيدها في الحياة. وما زال مدخل المرأة إلى عالم الرجل والى المجتمع بصفة عامة يتم عن طريق أنوثتها في المحل الأول. وما زال عدد من المؤسسات الاجتماعية التجارية، والإعلامية، والترويحية وغيرها، المشروعة بل «والمحترمة» تعتمد

على الإثارة الجنسية للرجل باستعمال جوانب من أنوثة المرأة. وتصل الإثارة واستغلال أنوثة المرأة إلى حد الإسفاف-وربما الإفساد-في حالات غير نادرة.

ومن هنا، يجد بعض الشباب-على الأقل-أنفسهم ضحية نوع من «الشكلية». إذ يترتب على الألغاز الذي يحاط به الجنس، والكف الذي يتعرض له معظم الرغبات الجنسية منذ عملية بزوغها الأولى، نتائج خطرة في تصور الشباب للجنس، واتجاهاته نحو العلاقة بين الجنسين، وتصرفاته أو سلوكه بازائها.

أما الكف فانه يؤدي على المدى الطويل، من ناحية أولى، إلى تربية نوع من الخجل الشديد من الحديث في المسائل الجنسية، قد يصل إلى حد الشعور بالإثم من مجرد التفكير فيها. ويؤدي-من ناحية ثانية، إلى الارتباك الواضح في سلوك الشاب في حضور أشخاص من الجنس الآخر، وقد يؤدي الخوف من الارتباك إلى سلوك الانسحاب في حضور الجنس الآخر (مما يخلق في بعض الناس شعورا خاطئا بأن الشخص متكبر، في حين انه في حقيقته خجل من التصرف الذي قد يؤاخذ عليه) وقد يصل الارتباك إلى حد كف كامل للتصرفات، أو وقوع صاحبه في عديد من التصرفات التي تصدر دون إرادة لها ولا سيطرة عليها، ثم إلى خوف شديد من الاتصال بالجنس الآخر. وفي بعض الحالات-المرضية-يصل الأمر بالشاب إلى حد النفور من الجنس الآخر. كنوع من الدفاع ضد الاختلاط الذي لا يجد الشاب نفسه قادرا على التصرف فيه بنجاح، والاحتفاظ للذات بكبريائها، فضلا عن إشباع الحاجات التي ينشد من اجلها الاتصال. وفي حالات غير قليلة يقوى النفور من الجنس الآخر، ويصل إلى حد الرفض القاطع نتيجة لخبرة مؤلمة أو غير صحية-(وحالات الفشل في الحب، أو الخيانة، أو الطلاق، أو غيرها، شائعة تتكرر كل يوم) ولا يجد الشاب من يأخذ بيده ليتجاوز الأزمة. وهذا التطور اكثر شيوعا بين الإناث منه بين الذكور[2].

وبسبب هذا الألغاز الذي تحاط به أمور الجنس في المجتمعات العربية، تجهض محاولات الشباب حتى لفهم ما يجرى في كياناتهم ومن حولهم وإعداد أنفسهم لممارسة أدوار الراشدين في هذا المجال بوعي وفهم ومسئولية واختيار.[3]

فبعض الشباب يشعرون برغبة ملحة لا تقاوم في أن يعرفوا عن الجنس من مصادر يطمئنون إليها، ويطالبون بألاّ يتركوا فريسة خطأ ما يصل إليهم من معلومات من خبرات محدودة، أو ما تقدمه لهم مصادر قد تشوه حقيقته. وتصل الحيرة والقلق إلى درجة حرجة حين يكون الشاب في شك حول ما إذا كان نموه الجنسي طبيعيا أو غير طبيعي، أو كان في حاجة إلى معلومات عن بعض الأمراض التناسلية.

وبعضهم يسأل عن الأسس التي يمكن أن تقوم عليها علاقة «سوية» بالجنس الآخر، والحدود التي يحسن-أو يلزم-أن تقف عندها مثل هذه العلاقة. وقد يكون الأمر متعلقا بالبحث عن الصيغ للعلاقة التي يمكن أن يقبلها المجتمع، أو يكون الشخص في بحث جاد عن خبرات توفر عليه التورط في أخطاء».

وبعض الشباب يسأل عن «الأعراض» الدالة على العاطفة الحقيقية والتي يتحتم العلم بها إذا كان لعلاقة متبادلة ناضجة أن تنشأ وتستمر، أو عن «المعايير» التي يمكن على أساسها أن يختار شريكه في الحياة. ويتساءل عدد منهم بشيء من المرارة كيف يدخل في علاقة-قد تستمر العمر كله-دون أن يعرف شيئا عن إمكانيات التصرف لدى شريكه فيها.

وحين لا يجد الشباب من مجتمع الراشدين غير الصد، فانهم يتجهون إلى أية مصادر ترد على تساؤلاتهم: الخادم أو «الخادمة» في البيت، أو الرفاق، وقد لا تكون رؤيتهم للموضوع ناضجة، أو الأدب الفاضح بكل تركيزه على جوانب الإثارة والشذوذ.

هذا الموقف من المجتمع تجاه أمور الجنس يضع نسق القيم وأساليب التصرفات فيه في قفص الاتهام من بعض الشباب. فكيف يسمح لهم بالاختلاف في الجامعة وفي العمل، ولا يسمح لهم به قبل ذلك وفي الوقت الذي تكون رغبتهم فيه أقوى وأشد إلحاحا. وقد يفقد بعضهم الثقة في سلامة القيم والتصرفات. فكيف يحرمون من اتصال يحرصون هم على أن يكون بريئا، ويرونه تجربة ضرورية للنمو ولتجاوز بعض مشكلات المراهقة. وفي حالات غير قليلة، ينعكس الأمر في نظرتهم لأنفسهم، فيرونها غير جديرة بالثقة، غير قادرة على تحمل المسئولية، ما دام الآخرون يرونهم كذلك.

ونتيجة لجهل الشباب بطبيعة التحولات الجنسية، وعدم الإلمام بالتصرفات التي تحكم العلاقات بين الجنسين، ونقص الخبرة في التعامل مع الجنس الآخر، والكف الذي يواجه به معظم المجتمعات الرغبات الجنسية قد يدفع بعض الشباب إلى تبني طرق «هروبية» في التعامل معها. ومن أمثلتها الحب بدون تخصص وهي حالات يميل بها الشباب إلى الارتباط بعدد كبير من الجنس الآخر دون التركيز على شخص معين, و يحدث ذلك بسبب العجز عن الاختيار وتفادي مواجهة مواقف الحب الحقيقية، أو العلاقة الحقيقية بين الجنسين. ومع أن هذا التصرف يصدر عادة عن عجز لا اختيار، فليس من النادر أن يساء فهمه، فيؤخذ على انه دليل على نوع من «فساد الأخلاق» أو حتى «الانحراف».

وفي حالات غير قليلة يؤدي الجهل بأمور الجنس والنتائج التي تترتب على العلاقات بين الجنسين من جهة، والتحدي للكبرياء الذي تستثيره بعض القيود الاجتماعية، والرغبة في التجريب والممارسة الحية في شأن من أخص شئون الشخص من جهة ثانية، وربما الرغبة في إرضاء رفيق عزيز والخوف من فقده من ناحية ثالثة، والاندفاع غير المتبصر في حالة نزوة طارئة من ناحية رابعة، إلى تصرفات يرفضها-أو يدينها-المجتمع، وتجلب على النفس إحساسا بالندم أو الخزي أو العار، فيفقد الشاب تقديره للجنس الآخر والآخرين، ويجعل من الصعب عليه أن يدخل في علاقة زوجية صحية. ويحدث هذا-بصفة خاصة-للإناث-اللائى تقع عليهن ضغوط ويواجهن تحريمات أكثر من الذكور.

ولعل من أخطر ما يؤدى إليه «تجهيل أمور الجنس وكف الرغبات الجنسية» النظرة الخالية من التقدير للذات، والإحساس القاتل بالذنب، والقلق إلى حد الحصر الذي تترتب على ممارسة «الإشباع الجنسي الذاتي»، وبخاصة بالنظر إلى الإصرار على ممارستها باعتبارها المخرج الوحيد المتاح للطاقة الجنسية في حال آت كثيرة، من جهة، والتراث الضخم من المخاوف-الحقيقية والوهمية-التي يحيطها بها المجتمع، من جهة أخرى. ولا تكمن خطورة «الإشباع الجنسي الذاتي» فيه في حد ذاته، بقدر ما تكمن فيما يشيع عن أخطاره من أفكار تجلب للشباب القلق والهم أو تدفعهم إلى موقف اللامبالاة واللامسئولية. وفي حين تكون الممارسات الأولى مصدر

زهو وفرح تؤكد للشاب نضجه وتدعم مركزه بين الأقران، فان عدم القدرة على الإقلاع عنها والاستمرار، وربما الإسراف فيها، من عوامل جزع الشاب ومن مصادر أزماته الحقيقية. وتكون المشكلة في التوفيق بين الأنا الأعلى أو الضمير الخلقي وبين الميول القهرية المترتبة على العادة، والتي تدعمها لذة الإشباع.

ثالثا

وبالنسبة للإناث في بداية المراهقة أو ما يسمى فترة الشباب الأولى، تأتي مشكلات النضج الانفعالي في قمة قائمة المشكلات النفسية. ويترتب جزء كبير منها على شدة القابلية للانفعال، التي ترجع في جانب منها إلى التحولات العضوية والمشكلات الجسمية المختلفة، ولكنها ترجع في الجزء الأكبر منها إلى عوامل بيئية مختلفة: نقص تجربة الفتاة، ونوع الاستجابة الاجتماعية غير المرضية التي تلقاها أو يرد على تصرفاتها بها، وخاصة في العلاقات بين الجنسين.

ومن الشكاوى التي تتردد كثيرا سرعة البكاء، والثورة بدون سبب ظاهر، والعناد، وحدة الطبع والمزاج، والنسيان، وأحلام اليقظة، والشعور بسوء الحظ، وغرها. وكلها-كما هو واضح-أعراض لمشكلات غير ظاهرة، تترتب على تعثر عملية النضوج الانفعالي، وعدم ملاءمة الاستجابات الاجتماعية لمتطلبات الارتقاء النفسي الاجتماعي، وبخاصة في مواقف يظهر فيها عجز الفتاة أو إخفاقها في عمل ما.

ومشكلات النضج الانفعالي هي، بالطبع، نتاج لعلاقات الشباب وتفاعلاتهم الاجتماعية، وليست مجرد ملامح فطرية. وعلى سبيل المثال، يرجع بعضهم سرعة الغضب أو البكاء إلى الكبت نتيجة لعدم وجود من يسمع ويتعاطف، أو ذكريات الطفولة المؤلمة، أو كثرة المشاكل الراهنة.

ويزيد الموقف تعقيد أن مشكلات النضج الانفعالي هي نفسها عامل من عوامل تأخر الارتقاء النفسي الاجتماعي، لأنها تسبب للشاب-والفتاة بخاصة-حالة من القلق المرهق الذي يؤدى إلى مزيد من المشكلات، وبخاصة بالنظر إلى رد الفعل الاجتماعي-غير المتبصر أو الذي لا يرحم أحيانا.

وحين يحدث هذا التعقيد يؤدي إلى عدم الثقة بالنفس والانسحاب،

ونقص الحماس للعمل، وربما يؤدي إلى نوع من اليأس المطلق من جدوى العيش.

ويؤدى الإحساس بالعجز عن التكيف الناضج-بمعايير عامة-في المواقف الاجتماعية الهامة مع الكبار، ورفاق السن، وبخاصة من الجنس الآخر، إلى نوع من التشاؤم والإحساس بسوء الحق الذي يسوق في حالاته المتطرفة إلى نوع من كراهية الحياة والأحياء. تقول فتاة: «أتمنى لو أني لم أخلق. وقد يندفع بعضهم للتفكير في الانتحار.» أود التخلص من الحياة التي لا أجد فيها ما يستدعيني أن أعيش من أجله، هل ستظل هكذا كبتا لآلام وحيرة».

ويجد البعض في النسيان وأحلام اليقظة طريقا للهروب من الأزمة. تقول فتاة:«لا أحب الواقع ولا مواجهة الواقع-أسرح كثيرا وأكون في غير الجو الذي تعيش فيه الجماعة». وقد يصل الأمر إلى حد إزعاج الشاب نفسه. ومن ثم نجد من تقول: «تضايقني أحلام اليقظة لان وقتي لا يكفي لهذه الأحلام».

وحتى الآن يتجه الارتقاء النفسي الاجتماعي في بعض الحضارات- ومنها الحضارة العربية-لا إلى مساعدة الفرد في تأكيد ذاته والاعتزاز بتميزه وتفرده، وإنما إلى إنكار ذاته والبحث عن تحقيق التصالح من أبويه والكبار، وقبول وضع «التابع» في علاقاته الاجتماعية الرئيسية.

وبسبب نقص تجربته في الحياة الجديدة، ولملامح نفسية وعضوية أخرى، تكون حساسية الشاب في بداية المرحلة بخاصة-للنقد عالية جدا: بأخذ الملاحظة العابرة بغاية الجد، ويتصور أن الفشل في أول تجربة يعني الإخفاق في الحياة ومن هنا يستثير النقد لتصرفاته غضبه، ويدفع فيه شيئا كثيرا من القلق والهم، وقد يدفعه إلى استجابات عصبية عنيفة. أما إذا كان النقد العنيف واللوم والتجريح من ملامح معاملة الكبار للشباب، فإنها فضلا عن الاستجابات العنيفة التي تستثيرها من الشباب، تؤدي بهم إلى أن يفقدوا احترامهم لذواتهم وثقتهم في أنفسهم، وان يكونوا مترددين ضعاف الشخصية، ميالين للاعتماد على الغير، منصرفين عن تحمل المسئولية.

وتتضح الأبعاد الحقيقية لازمة الشباب لنا حين نلاحظ أن ثورة الشباب

وتمردهم وعنادهم ليست موجهة ضد الخارج-ضد الآخرين والواقع-فقط، وإنما هي في جزء كبير منها موجهة إلى ذواتهم، في شكل رفض للذات أو نقص في تقديرها أو ما إليها. ويحدث هذا بشكل خاص حين يفتقد الشاب التقدير الكافي من الآخرين الذين يعنيه رأيهم فيه أو حين يخفق في محاولات التكيف الهامة-الدراسة، أو الحب، أو العمل أو ما إليها.

وتنعكس مشكلات النضج الانفعالي والارتقاء النفسي الاجتماعي للشباب، وكذلك مشكلاتهم في أسرهم، على أوضاعهم وإنجازاتهم في مجالات كثيرة أخرى، ربما كان من أهمها، نشاطاتهم غير الدراسية.

ففي مجال النشاط الترويحي، على سبيل المثال، يشكو معظم الشباب من انهم لا يشتركون في النشاط غير الدراسي ولا يجدون عملا مسليا في العطلة، ولا في وقت فراغهم. وبعضهم-من الفتيات بخاصة-لا تتاح لهم فرص الخروج من البيت، والاستمتاع بالطبيعة. وان اخطر القيود في هذا الصدد هي تلك التي تفرضها الأسر على علاقات بناتها مع الجنس الآخر.

وحتى أولئك الذين تتاح لهم بعض فرص النشاط الترويحي والاجتماعي، يشكون من إحساس بعدم الكفاءة في ممارسة مثل هذه النشاطات مما يعوق ارتقاءهم النفسي الاجتماعي، وتوتر علاقاتهم برفاق السن، فضلا أن بعض القيود التي تفرض عليهم في هذا المجال تؤدي إلى نقص تقدير الذات وعدم الثقة بالنفس.

ولا يقتصر الأمر على عدم وجود فرص للترويح، وإنما يتعداه إلى نقص فرص خلق هوايات مفيدة أو حتى الحرمان من ممارسة-وتنمية-هوايات موجودة فعلا. تقول فتاة «لا أعرف كيف أملأً (وقت فراغي) إلا بالنوم، فيزداد وزني، وهذا يضايقني». وتقول ثانية: «أشعر في الإجازة بفراغ هائل لا يسده إلا النوم الكثير بالرغم من أن النوم يسبب لي الصداع». وتقول ثالثة: «أهلي لا يسمحون لي بالخروج بتاتا، وهذا يجعلني أشك في نفسي، ما دام أهلي لا يثقون في». وتقول أخرى: «يقال أن المرأة، أصبحت مساوية للرجل، فلم لا يسمح لي أهلي بأن أخرج بالليل وأذهب إلى السينما بمفردي مع علمهم بأني على خلق قويم، وأنني أتصرف بحكمة في كل شيء».

وبسبب نقص المهارات الاجتماعية، تجد بعض الفتيات أنفسهن في وضع مؤلم، فتقول إحداهن «إنني في حيرة، لأنني بطيئة في مصادقة

الناس، مع أن كثيرا ممن أقابلهم يرحبون بصداقتي». وحتى من تستطيع تكوين صداقات، يصعب عليها-بسبب القيود التي تفرضها الأسرة عليها- الاحتفاظ بها، وفضلا عن تنميتها وتدعيمها. بل انو الأمر لا يقف عند حدود الصداقة، ولكن يشمل أيضا العلاقات الاجتماعية العابرة، وتعبر فتاة عن المشكلة بقولها: «دائما بطيئة في التعارف مع الناس، وإذا جلست في المجتمعات لا أقدر أن أتكلم، مما يسبب لي ضيقا نفسيا». وتقول أخرى: «لا أحب الكلام مع الذين عرفهم، فيصفوني بأني متكبرة».

ومن ثم فان من الشكاوى الشائعة من الشباب-والفتيات بصفة خاصة- الشعور بالخجل الذي يظهر في شكل ارتباك وتلعثم، ثم التوقف عن الكلام أو التصرف، وقد يندفع الشاب إلى لوم الآخرين على ذلك، فيرده إلى أنه: «لا يجد من يفهمه» أو حتى من«يفضي إليه بمتاعبه»، مما يدفع في نفوس بعضهم الشعور بالوحدة التامة، وبالنقص.

رابعا

ومما يزيد من حدة أزمة بداية الشباب، أنه مع التحولات الفسيولوجية- الجسمية والجنسية-وبفضلها، يحدث ما يسميه كارل يونج Carl Jung «الميلاد النفسي» (4). ففي مرحلة الطفولة، لا يكون «الشعور» سلسلة متصلة من المحتويات الشعورية، وإنما يكون مشتتا، أقصى ما يمكن أن يتحقق هو أن يتم في «جزر»، ولا يشعر الطفل بنمو ذاته، إذ أنه لا يعتمد على نفسه وإنما يعتمد على والديه إلى درجة أنه يعيش أسير الجو النفسي لهما، فهو بمعنى ما «لم يوجد بعد»، وما دام لا يشعر بانيته كشيء-منفصل عن الخارج، فانه لا يعاني من مشكلات، بسبب توزع نفسه. أما في مرحلة المراهقة وبداية الشباب فان النضج الجسمي والجنسي والعقلي يؤدي بالشخص إلى أن يميز بين الذات والآخرين، ويدفعه إلى أن يبالغ في تأكيد ذاته من جهة، والإحساس الحاد بمشكلاته مع نفسه والآخرين والواقع من جهة أخرى. وفي حين ينطوي هذا على تحقيق درجة عالية من النضج، فانه يسبب للشخص معاناة، نتيجة لوعيه بمشكلاته وحساسيته لها.

ويتصور كورت ليفين (5) Kurt Lewin عملية التحول هذه على أنها «دخول منطقة لم يتم تكوينها بعد من الناحية المعرفية». فهي ليست متمايزة ومنفصلة

إلى أجزاء واضحة الحدود، وبالتالي «لا يتضح للفرد إلى أين سيقوده عمل ما وفي أي اتجاه يتحرك ليقترب من هدف معين. هذا النقص في وضوح الاتجاه في المجال هو أحد الأسباب الرئيسية للتردد وعدم ثبات السلوك، لان الفرد يكون على غير بينة بما سيؤدي إليه تحركه من اقتراب أو ابتعاد عن الهدف.»

ويمثل ليفيين لهذه المشكلة بجسم الشاب. يكون الجسم في مرحلة ما قبل بلوغ الحلم منطقة قريبة من الشخص معروفة له-يعرف ما ينتظر منه، وكيف يستجيب له. ثم يبلغ الشخص الحلم، ويتحقق نموه الفسيولوجي الذي يأتيه بتحولات نوعية وكمية هائلة، بعضها-على الأقل-غير معروف. فيصبح هذا الجزء من المجال الحيوي بالنسبة للشخص غريبا-مجهولا. فما كانت من قبل منطقة معروفة، قد أصبحت غير معروفة ولا يمكن الاعتماد عليها. وهذا هو البعد الأول لامتداد المجال الحيوي للشباب.

والبعد الثاني-لامتداد «المجال الحيوي»-للمراهق والشاب، هو البعد الزمني. ففي مرحلة الطفولة، وبالنظر إلى قصور التصور والذاكرة والتخيل، يحسب الشخص أهدافه بالأيام والأسابيع أو الشهور على أقصى تقدير. أما في مرحلة المراهقة وبداية الشباب-وبفضل النمو الهائل للقدرات على التصور والتذكر والخيال-يبدأ حساب الأهداف بالسنين، ويكون حسابها بدرجة من الواقعية أكبر مما كان يحدث من قبل، وتتحقق إمكانية التمييز بين الخيال والواقع-بين ما يمكن وما لا يمكن. وان كان يطغى على الحسابات طابع المثالية، وتتأثر بنقص الخبرة المتوافرة من التجربة الحية.

ومن ناحية ثالثة، وأخيرة، تحمل التغيرات الفسيولوجية التي تأتي بها مرحلة المراهقة الشباب بعيدا عن جماعات الأطفال التي ألفوها وحققوا نوعا من التكيف معها، إلى جماعات البالغين ثم الراشدين التي تؤهل الشباب ملامحهم الجسمية والجنسية والعقلية للانتماء إليها، لكن يقف دون ذلك عدم اكتمال نضوجهم الاجتماعي من جهة، وتردد الراشدين في السماح لهم بالانتماء إليها من جهة أخرى.

أبعاد هذه المجالات-العلاقة الجديدة على الشباب-إذن، جديدة غير معروفة، بل وغير مفهومة. وفي معظم الحالات تدفع المواقف والخبرات المألوفة شيئا من الخوف-يصل إلى حد القلق والهم أحيانا-في نفس الشاب

غير المجرب للحياة. وهذا من شأنه أن يزعزع إيمان الشاب في ثبات الأرض التي يقف عليها وربما في ثبات العالم. ويؤدي هذا الشك، من ناحية، إلى زيادة التردد في السلوك والى الصراع النفسي، كما يؤدى، من ناحية أخرى، إلى ظهور بعض النزعات العدوانية في استجابات بعض الشباب.

وترجع المشكلات هنا إلى أن التحول من الطفولة إلى الرشد لا يتحقق بالوضوح والحسم والسرعة التي تحدث في المجتمعات البدائية، مثلا. ولا تتم بالتدريج واليسر و «الطبيعية» التي تقع بها في المجتمعات التي لا تفصل بين عالم الأطفال وعالم الراشدين، كما هو الحال في بعض المجتمعات الريفية في العالم العربي نفسه.

وبعكس ما يحدث في هذين النمطين بين المجتمعات، يمثل موقف الشاب في معظم المجتمعات العربية الحضرية موقف الإنسان الهامشي، وهو شخص يقف على الحدود بين جماعتين: أو حضارتين فرعيتين، لا ينتمي بالفعل إلى أي منهما. فهو لم يعد يريد أن ينتمي إلى جماعة الأطفال التي تخطاها بفضل نموه وقبل انفصاله عنها ورحب به، ولكنه لم يمنح حق الانتماء الفعلي لجماعات الراشدين، بالرغم من تلهفه على ذلك. ويجد الشخص الهامشي نفسه موزعا غير مستقر، حساسا، يتردد بين الأضداد، يتأرجح بين التمرد والخجل، مستعدا لان يتجه لمواقف متطرفة، ذا نزعات عدوانية أحيانا، في صراع دائم بين القيم وواقع الحياة.

ويرى اريك فروم (Erich From)[6]، أزمة المراهقة وبداية الشباب من خلال أزمة الهوية identity-crisis، التي يترتب عليها عدم اكتمال القدرة على الحب الناضج الذي يتمثل في الرعاية لموضوع الحب، والإحساس بالمسئولية إزاءه واحترامه ومعرفته معرفة كاملة. فالحب الذي يحس به الإنسان في بداية الشباب حب ناقص بسبب تعثر الشاب نفسه، وتعقد أزمته مع نفسه، نتيجة لقصور التربية والظروف الموضوعية التي يعيشها-وبخاصة في سياق المدرسة-تقف حائلا دون نمو روح الخلق ومهارات التعاون.

ويعقد أزمة الهوية في رأي بول جودمان Paul Goodman[7] إحساس الشاب بالضياع في مجتمع لا يساعده في فهم من هو، ولا تحديد دوره في الحياة، ولا يوفر له فرصا يمكن أن تعينه في الإحساس بقيمة الاجتماعية، بل ولا

يقدم له تتبنى ومثلا تعشق. فالمجتمع الحديث لا يحرم الشباب من القدوة والمثل فقط، وإنما هو يعطلهم أيضا عن القيام بدور ذي معنى في الحياة.

ويركز اريك أريكسون Erik Eriksen[8] على خطورة ما يسميه «غموض الدور» والذي يصل إلى حد الإحساس بالعجز التام عن عمل أي شيء «محدد»، وربما أي شيء على الإطلاق، والذي يصحبه عادة مشاعر الحيرة، وعدم الاستقرار، والاعتماد على الغير وما إليها. وما التوحيد الزائد-المرضى- مع بعض الإبطال «القدوة»، والميل الشديد التي جماعات الشباب والانصياع لها غير سلوك دفاعي من جانب الشباب لإحساسهم بغموض الهوية في رأي أريكسون. وإذا كان من غير النادر-بل ومن الطبيعي-أن يحس الشاب ببعض الغموض بالنسبة لهويته، فان المفروض أن يتجاوز هذا دون إبطاء شديد. فإذا أخفق في تجاوز هذه الأزمة، وهو ما يحدث بالفعل كلما تعقدت الحياة الاجتماعية، وفي ظروف اجتماعية حضارية خاصة-فان الارتقاء النفسي الاجتماعي يعاق.

الهوامش و المراجع

1- في هذه الفترة (أولا) من الفصل، أنظر، مثلا:

أ-منيرة أحمد حلمي، مشكلات الفتاة المراهقة، وحاجاتها الإرشادية، القاهرة، دار النهضة العربية، 1965، ص ص 1- 35.

ب-محمود عبد القادر، التوافق النفسي، الاجتماعي للشباب الكويتي ومشكلاته، الفترة العمرية من 13 سنة إلى 18 سنة: الكويت، رابطة الاجتماعيين، 1975، ص ص 33-50.

ج-مصطفى سويف، الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي، دراسة تحليلية ارتقائية، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة، 1970، ص ص227-277.

2- عماد الدين سلطان، احتياجات طلاب الجامعات، القاهرة، المركز القومي لبحوث الاجتماعية والجنائية-ووزارة الشباب، 1971، جدول رقم 12.

3- عماد الدين سلطان، مشكلات طلاب الجامعات، المجلة الاجتماعية القومية، المجلد الثامن (يناير 1971)، ص ص 3- 38، جدول رقم 9.

4- حلمي، مرجع سبق ذكره ص 18.

5- المرجع نفسه، ص ص 19-22.

6- Ellis D. Evans and Thomas H. Potter, Identity-Crisis: A Brief Perspective, in Ellis D. Evans, ed., Adolescents: Readings in Behavior and Development, Hinsdale, Ill.: The Dryden. Press, Inc., 1970. Pp. 68-52

7- .ibid

8- .ibid

4 أزمة الارتقاء والاستقلال

هموم الشباب العربي مع أسرته

أولا

نحن في موضوع تشكيل الشخصية الإنسانية أمام ثلاث وجهات نظر. فثمة من يرون أن الحضارة هي التي تحدد دوافع الشخص وقيمه واتجاهاته وسلوكه-أو سمات شخصيته، وأنها، بفضل مطاوعة الفرد الإِنساني للتشكيل في مراحل الطفولة الأولى، تصبغ الإمكانيات الخام للفرد بالشكل الذي يتفق مع مقوماتها الأساسية، وأن العوامل الوراثية-على أهميتها-ليست غير حدود دنيا وعليا لما يمكن أن يتحقق، وأن المؤسسات الاجتماعية المختلفة-الأسرة، والمدرسة، وجماعة الرفاق، وغيرها، ليست سوى وسائط. وهذه هي. وجهة نظر علماء الإنسان-الأنثروبولوجيين.

وهناك من يذهب إلى أن تشكيل الشخصية الإنسانية يتم بفضل علاقات الفرد بالآخرين-من خلال عدد من المؤسسات الاجتماعية-وتفاعله معهم، وأن «الذات» ليست سوى انعكاس لتصور «الآخرين» للفرد ونتيجة للحوار الدائم بين الفرد الواقع، وأن ملامح كل مرحلة في دورة حياة الفرد تتحدد بناء على نوع المؤسسات التي يرتبط بها، أو

بعبارة أدق نوع علاقته بها وشكل التفاعل الذي يدور بينه وبينها. وهذا رأي عدد من علماء الاجتماع.

أما وجهة النظر الثالثة، فهي تلك التي تطرح المشكلة على أساس أن بزوغ الشخصية ليس غير تحقق للإمكانيات الوراثية-الفطرية-للفرد في خط حتمي، تعينه المحددات الفسيولوجية بشكل واضح. وأنه إذا كانت الحضارة والمؤسسات الاجتماعية تلعب دورا في هذه العملية، فانه دور ثانوي، وهو شبه محدد على أية حالة، بالنظر إلى اتفاق مواقف الحياة الإنسانية-في جوهرها إذ لم يكن في شكلها-وهذه نظرية بعض علماء النفس المتطرفين.

وأيا كانت وجهة النظر التي نأخذ بها، ومع أن الدراسات التي تعرضت لدور الأسرة في عملية التطبيع الاجتماعي وبزوغ الشخصية الإنسانية لم تجب على عدد من الأسئلة ولم تحل بعض الاشكالات التي يثيرها التأمل العميق، فان ثمة أمرا هاما يلزم أن نسلم به: ألا وهو الدور الحاسم الذي تلعبه الأسرة في حياة الإنسان. فالأنثروبولوجيون-المحدثون بخاصة-يرونها الوسيط الذي يتحقق من خلاله دور الحضارة في تشكيل الشخصية الإنسانية على الأقل، وعلماء الاجتماع أو معظمهم، يردون صياغة الشخصية لا التي الحضارة، وإنما التي الوسائل الاجتماعية، والأسرة من أهمهما. وعدد من علماء النفس يتصورون بزوغ الشخصية من خلال العلاقة بين الفرد والوالدين.

وترجع أهمية الأسئلة في عملية التطبيع الاجتماعي التي عدة عوامل، من أبرزها:

1- أنها الجماعة التي يرتبط بها الفرد-عادة-بأوثق العلاقات وأعمقها وأقربها التي نفسه.

2- إنها تكاد تحتكر التأثير في ارتقاء الفرد في مرحلة الطفولة، وهي من أكثر مراحل حياته أهمية، لأنه يكون خلالها اكثر مطاوعة للتشكيل.

3- أنها الجماعة الوحيدة التي قد يغطي انتساب الفرد إليها حياته كلها منذ أن يولد وحتى يموت.

4- أن تأثيرها على الفرد لا يقتصر على جانب من جوانب الشخصية-كما يحدث في معظم الجماعات الأخرى-ولكنه يمتد ليشمل كل أبعادها.

وفي رأينا أن الذين يقولون بتناقص أهمية دور الأسئلة في عملية التطبيع الاجتماعي في المراحل التالية للطفولة يفعلون ذلك تحت تأثير عاملين: أولهما، النتائج التي انتهت إليها الدراسات في المجتمعات الأوربية الغربية والولايات المتحدة الأمريكية بصفة خاصة، حيث وصلت أهمية الأسئلة التي أقل مستوياتها. والآخر، قياس حال الأسئلة العربية أو إصدار أحكام عامة عليها على ضوء ملاحظة نمط واحد غير ممثل لها ولا يعبر عنها، وهو الأسرة الحضرية في المستويات الاقتصادية الاجتماعية الوسطى والعليا- وهي تتجه على أمرا حال نحو النموذج الأوربي الغربي.

ونستعرض في الفقرات التالية من هذا الفصل التأثيرات العميقة التي تباشرها الأسرة العربية في حياة جيل الشباب، والتي يدعم فاعليتها أمران على جانب كبير من الأهمية، أولهما: أن النظام الحديث لتقسيم العمل في المجتمعات الحضرية، والناتج عن الثورة العلمية والتكنولوجية، أصبح يحتم أن يمر الفرد بسنوات طويلة من الدراسة والتدريب قبل أن يصبح مؤهلا لشغل عمل منتج. وهذا يعني تأخير استقلال الفرد عن الأسئلة اقتصاديا، واعتماده عليها من الناحية النفسية. والآخر، أن التغيرات التي طرأت على المجتمع العربي-على أهميتها-لم يواكبها ولم ينتج عنها تعديل مواز في نسق القيم الاجتماعية وأساليب السلوك، الذي تشغل الأسئلة والحياة الأسرية مكانا بارزا فيه.

ثانيا

استعرضنا في موضع آخر (الفصل الثاني من القسم الأول) بعض التغيرات الواسعة والعميقة التي طرأت على المجتمعات العربية،-نظمها الاقتصادية، والسياسية، وأوضاعها السكانية، وبعض الجوانب الأخرى- خلال الربع الثالث من القرن الحالي. ورأينا أن هذه المجتمعات لم تعد كما كانت من قبل.

ترى ماذا حملت رياح التغير الاجتماعي للأسرة العربية في قطاع الحضر؟ (على أساس أن كلا من النمطين القروي والبدوي في الدول العربية لا يعنياننا هنا). ربما كان الاستنتاج الذي يقفز إلى الذهن من الشواهد العديدة المتوافرة هو أن لدينا الآن نمطا أو أنماطا من الأسر

الحضرية تختلف ملامحها إلى حد بعيد عن تلك التي كانت شائعة حول منتصف القرن. ومن الأمر يحتاج إلى تحديد وتخصيص على ضوء ملاحظة الواقع فعلا.

سنختار من ملامح الأسرة العربية، والتي يمكن أن تدرس تأثير عملية. التغير الاجتماعي فيها، الملامح الآتية:

1- حجم الأسرة ومعدلات الخصوبة فيها.

2- الملامح الديموجرافية للزوجين-السن، الحالة التعليمية، وما إليهما.

3- شكل النشاط الاقتصادي للأسرة ودور كل من الزوجين فيه.

4- العلاقات الأسرية ووضع كل من الزوجين وكذلك الأبناء فيها.

وتوحي نتائج غير قليل من الدراسات بأن حجم الأسرة العربية الحضرية يتجه إلى التناقص، وأنه بلغ الآن ما يزيد قليلا على 7ر5 فردا في المتوسط في الكويت، و 6 أفراد في المتوسط في مصر، إلا أنه يلاحظ أن التناقص يسير ببطء شديد، وأنه لم يصل بحجم الأسرة العربية إلى المستوى الذي بلغه في الدول المتقدمة صناعيا حتى في بعض أعلى متوسطاته، وهو خمسة أفراد (في الولايات المتحدة الأمريكية مثلا).

بعبارة أدق، ما زالت هناك عوامل كثيرة هامة تحتفظ بمتوسط حجم الأسرة العربية في الحضر كبيرا نسبيا، ومن هذه العوامل:

1- أن نسبة غير ضئيلة من سكان الحضر يأتون من الريف، ويحتفظون بعديد من القيم وأساليب السلوك وطرق الحياة الشائعة في الريف، ومنها قيمة الأسرة الكبيرة.

2- تفضيل الذكر على الأنثى-بشكل حاد أحيانا-في الحضارة العربية، وهو ما يدفع بعض الأسر إلى الاستمرار في التناسل إلى أن يولد ذكر-حتى حين يكون من مشروعاتها الحد من النسل.

3- الانخفاض المطرد في معدلات وفيات الأطفال الذي يؤدي إلى أن نسبا متزايدة ممن يولدون من الأطفال يعيشون ليكبروا.

وبالنظر إلى تأخر س الاستقلال الاقتصادي للشاب إلى ما بعد العشرين، وربما الخامسة والعشرين-عندما يستكمل التعليم حتى نهاية المرحلة الجامعية-فإننا نلاحظ اتجاها نحو ارتفاع سن الزواج لأول مرة. ولكن السن ما زالت تحت العشرين للأنثى وحول الخامسة والعشرين للذكر.(وسن

الزواج بالنسبة للفتاة العربية اقل من نظيره في الدول المتقدمة صناعيا. (هذا إذا استثنينا اتجاهات ضعيفة حديثة جدا نحو زواج الشباب في سن المرحلة الثانوية في عدد من الدول المتقدمة).

وفي معظم الدول العربية يتجه المستوى التعليمي للزوجين إلى الارتفاع: تتضاءل نسبة الأميين، وتتزايد بدرجات متفاوتة نسب الأزواج في مستويات التعليم الأخرى.

وهناك ما يشير إلى أن المستوى المهني للزوجين يتجه إلى الارتفاع. فثمة ميل واضح إلى أن يعمل الأزواج في مهن أفضل من تلك التي كان يعمل بها آباؤهم، وان كان التغير أقوى في حالة الزوجة منه بالنسبة للزوج، على اعتبار أن نسبة من تعلمن من الزوجات الآن أكبر من نظيرتها بين الزوجات منذ ربع قرن مثلا. ويرجع جزء من التغير هنا إلى الهجرة الواسعة من الريف إلى الحضر، واعتبار «المهن القروية» أدنى من «المهن الحضرية». والنمط الذي يزداد شيوعا للأسرة العربية الحضرية هو ذلك الذي يتعاون فيه الزوجان في توفير احتياجات الأسرة أي العمل.

وينعكس هذا التغير في أبعاد أخرى من حياة الأسرة، فمن ناحية أولى، يتجه وضع الزوجة في نظام «توزيع السلطة» داخل الأسرة إلى التحسن. صحيح أنها ما زالت تشغل مرتبة أدنى من الرجل بصفة عامة، ومن من المؤكد أن وضعها الآن أحسن مما كان عليه منذ ربع قرن مثلا. والفرق-أو الجزء الأكبر منه-يرجع إلى أنها تلعب الآن دور إنتاجيا هاما، أفضل من ذلك الذي كان لها فيما مضى.

ومن ناحية ثانية، يمكن القول أن الأسرة تدفع ثمن بعض التطورات التي طرأت عليها مما توفره من استقرار وإشباع لأفرادها. بعبارة أخرى، تفقد الأسرة تدريجيا شيئا من الاستقرار والتكامل والقدرة على الإشباع العاطفي والمادي التي كانت لها من قبل. والأمر سواء بالنسبة للزوج أو الزوجة والأبناء، وان كان بدرجات متفاوتة.

ومن التحولات الأكيدة التي طرأت على الأسرة العربية أخذها المتزايد بأسباب «الحياة العصرية». ولا يقتصر هذا على الجوانب المادية مثل استعمال أدوات البيت الحديثة-الثلاجة، والغسالة، والفرن، والتليفزيون، والراديو، وغيرها، وإنما يتجاوزها ليشمل بعض القيم وأساليب السلوك: الاتجاه نحو

المساواة بين الزوجين في الحقوق والمسئوليات، والى معاملة اكثر «ليبرالية» وتسامحا من الأبوين للأبناء.

ثالثا

ثمة شبه اتفاق بين الباحثين على أن الأسرة العربية-بعكس الأسرة الأوروبية الغربية مثلا-ما تزال الحاضن الأول لأبنائها في سن الشباب. وإذا كان بعض الشباب يميلون إلى الاستقلال عن أسرهم، ويفعلون ذلك، فما زالت الأسرة تسبق في أهميتها سائر الجماعات الاجتماعية الأخرى في حياة الشباب. حتى في مصر، التي كان الأبناء فيها قد قطعوا شوطا في طريق الاستقلال، عادت الظروف الاقتصادية الصعبة وأزمة الإسكان الخانقة بهم إلى حظيرة الأسرة بعد استكمال الدراسة الجامعية.

وقصة معاناة الوالدين في تعليم الأبناء-ليس فقط من حيث تكاليف التعليم، ولكن من حيث التوجيه والحفز والمتابعة-ملحمة فيها بعض الفصول المأساوية الحقيقية.

ولا تتحمل الأسرة مسئولية إعالة الشاب حتى يستكمل تعليمه ويحصل على عمل فقط، فان بعض الأسر القادرة ماديا تظل تساعد أبناءها ماليا ولمدة طويلة بعد استقلالهم اقتصاديا ومعيشيا.

وتتحمل كثير من الأسر العربية برضا وسعادة مسئولية تزويج أبنائها-وتتكلف في سبيل ذلك أعباء تظل تستعد لها لعشرات السنين أحيانا. وهموم الوالدين في هذا المجال هموم حقيقية، تشكل جانبا هاما من حياتهم بمجرد أن يولد لهم أبناء وحتى يتيسر لهم الاستقرار بالزواج.

ويظل «بيت العائلة» ملجأ للبنت-بصفة خاصة-إذا لم توفق في زواجها، أو انتهى الزواج لسبب أو لآخر. وفي كثير من الأحيان تتحمل الأسرة إعالتها هي وأبنائها.

بل إن الأم العاملة لا تطمئن لأحد في حضانة صغارها بقدر ما تطمئن لجدتهم-لامهم أو لأبيهم بحسب الظروف. ومن هنا، وبسبب استمرار تقليد رعاية الأبناء لوالديهم حين يتقاعدون أو يبلغون سن الشيخوخة، تعود بعض الأسر العربية الحضرية إلى نوع من «الأسرة الممتدة» أو المكونة من أكثر من جيلين-أو من الوالدين والأبناء والأجداد.

غير أن لعلاقة الشباب العربي بأسرته أبعادا سلبية حقيقية. منها، ما يمكن أن نرده إلى تفكك الأسرة أو تصدعها، ومنها ما يرجع إلى قصور إمكانياتها عن العطاء الكافي ماديا ونفسيا، ومنها ما يرجع إلى اختلاف رؤية كل من الجيلين-الآباء والأبناء-لواقعهم وواقع الآخرين وتصرفهم بازائه.

وتنعكس العلاقة القوية بين الشباب العربي وأسرهم في الترتيب المتقدم الذي يضعها كثيرون منهم فيه في قائمة المشكلات سواء في استجاباتهم لاختبارات المشكلات التقليدية أو في تعبيرهم الحر عنها. وان كان البعض يرى أن مشكلات الشباب العربي مع أسرهم أوسع انتشارا وأكثر حدة عما يفصحون عنه، نظرا لان البعض يتحرج من الخوض في مشكلاته الأسرية.

أوضحنا في موضع آخر أن رياح التغير التي هبت على المجتمعات العربية قد امتدت إلى الأسرة، التي تكتسب تدريجيا ملامح جديدة-من حيث الحجم، والخصائص الديموجرافية للزوجين-كالسن، والتعليم، وغيرهما-، وطبيعة النشاط الاقتصادي ودور كل من الزوجين فيه، والعلاقات الأسرية، وما إلى ذلك-وهي ملامح تبتعد بها عن النمو الذي استقرت عليه طويلا، وتتجه بها نحو صيغ جديدة.

وإذا كان لتغير الأسرة العربية على هذا النحو نتائج «إيجابية»-أشرنا إلى عدد منها-فان له آثارا «سلبية» من أهمها:

1- اتجاهها نحو «الفردية»، أو اهتمام كل من أفرادها بتحقيق مصالحه، حتى حين يكون ذلك على حساب مصالح الآخرين والأسرة كلها.

2- اشتداد الصراع بين أعضائها، وظهوره على السطح، واستعصائه في حالات كثيرة على الحل ومن أهم المؤشرات في هذه النقطة ارتفاع معدلات الطلاق في عدد من الدول العربية إلى ما يقرب من أعلى مستوياتها في العالم.

3- أتساع الفوارق والهوة بين الآباء والأبناء نتيجة لأتساع مجال حرية الأبناء من ناحية، والتقدم العلمي والتكنولوجي من جهة أخرى-(وسنعود إلى تفصيل هذه النقطة الأخيرة في موضع آخر)..

وفي المستويات الاجتماعية الاقتصادية الدنيا-بصفة خاصة-يشكو كثير من الشباب من قصور الإمكانيات المادية للأسرة عن كفاية حاجاتهم التي يعتبرونها «ضرورية». ومن أمثلتها مكان خاص للنوم بعد أن يصل الشاب

إلى سن يخجل فيه من النوم مع أخوات مراهقات مثلا، أو مكان هادئ للدراسة، بالنظر إلى كثرة تردد الضيوف على البيت، أو مال للإنفاق الشخصي، أو ملابس ترضي ذوقه وتطلعاته في سن يهتم فيه الشباب-وبخاصة الإناث-بمظهرهم وجاذبيتهم، أو حتى الأدوات المدرسية والكتب. وفي حالات غير قليلة يبحث الشاب عن عمل ينفق على نفسه من دخله منه، أو يضطر إلى الاقتراض، بل أن البعض يصل إلى التفكير في عدم متابعة الدراسة.

ويزيد من قسوة هذا الواقع أحيانا أنه قد لا يكون راجعا إلى عجز مادي حقيقي تعاني منه الأسرة، بقدر ما يكون ناتجا من سوء تصرف الأسرة في مواردها بحيث لا يبقى ما يكفى الأبناء، أو قد يكون ناتجا عن تقتير حقيقي على الأبناء.

وبالرغم من أن التعليم قد أصبح مجانا في كل مراحله في معظم البلاد العربية-ويقدم بعضها إعانات للمحتاجين ومنحا للمتفوقين من الطلبة-فان تكاليفه «الإضافية»-كالكتب والأدوات ورسوم النشاط وغيرها-في بعض هذه الدول قد عادت به إلى عهد«الطبقية»، أي أن فرص التعليم الحق أو الاستفادة من الفرص المتاحة فيه قد أصبحت وقفا على القادرين ماديا. ومن ثم يعجز غير القادرين عن التحصيل بمستويات تسمح لهم بالمنافسة، أو حتى الاستمرار فيه (وفي بلد كمصر، مثلا، وبعد أن أصبح التنافس شديدا على دخول الجامعة، يستعمل مستوى الدرجات التي يحصل عليها الشاب في نهاية المرحلة الثانوية أو المتوسطة كمعيار. وبالنظر إلى عدم كفاية مستوى الخدمات التعليمية، يضطر الآباء إلى تكليف مدرسين بإعطاء دروس «خصوصية» لأبنائهم، ولما كانت هذه الدروس تكلف كثيرا، فان بعض الآباء يعجزون عن توفيرها، أو توفيرها بكفاية على الأقل).

وإذا كانت بعض الأسر تعجز لسبب أو لآخر عن توفير مثل هذه «الضروريات» لأبنائها، فانه من الطبيعي أن يعجز عدا أكبر عن توفير احتياجات أقل إلحاحا، مثل تكاليف النشاط الاجتماعي «والترويحي» والرياضي، أو الملابس «المناسبة»، أو غيرها.

وبالإضافة إلى أن العجز المادي يؤدي إلى عدم إشباع بعض حاجات الشباب أو إشباعها بدرجة غير كافية، فانه قد يدفع الشباب إلى اعتزال

الناس والرفاق، لعدم قدرته على مجاراتهم وخشية أن يعرفوا عنه فقره. وقد يخلق هذا في نفوس بعض الشباب مشاعر النقص وصعوبات التكيف. ومن ناحية أخرى، ثمة ما يثير إلى أن الفقر المادي يمثل أحد الأسباب التي تدفع بعض الشبان إلى أن يضعوا أقدامهم على بداية طريق الانحراف- كالسرقة البسيطة، أو النصب على زملائهم القادرين، أو الكذب، أو ما هو أسوأ منها.

قد تبدو هذه المشكلات (وهي حقيقة يومية في بعض الدول العربية) أو بعضها أمرا غير شائع في عدد من الدول العربية، حيث تساعد الثروات القومية الهائلة وصغر حجم السكان على تحقيق دخول فردية عالية، وتوفير خدمات اجتماعية كافية. وعلى أية حالة فان زيادة قدرات بعض الشباب المالية-والشرائية بالتالي-قد تجعلهم يستسلمون للميول الاستهلاكية التي تنشرها تطلعات الطبقات الوسطى والعليا، ويسرفون في الإنفاق على الملابس، والاستمتاع، والسفر، وغيرها. وفي مثل هذه الحالات يعيش الشباب حالة من الوفرة لم تعرفها حتى بعض المجتمعات المتقدمة، تدفع بعضهم إلى الانصراف عن التعليم والتفرغ لحياة الاستمتاع غير المقيد لا يتحملون فيها مسئوليات حقيقية، ويعجز بعضهم فيما بعد عن تخطي مرحلة المراهقة اللامسئولة إلى مرحلة الرشد.

فحسن رعاية الشاب لا ترتبط، إذن، بعلاقة واحدة بالمستوى الاجتماعي الاقتصادي، وإنما يوجد أكثر من صورة لهذه العلاقة. وتتدخل عوامل كثيرة أخرى في تحديد الشكل الذي تكون عليه العلاقة، وما يترتب عليها من نتائج.

وتؤكد دراسات عديدة، وجود علاقة موجهة قوية بين التوافق والتكيف من جهة، وبين الاستقرار في العلاقات الأسرية-العلاقات بين الزوجين، وبينهما وبين الأبناء، وبين الأبناء بعضهم والبعض الآخر، من جهة أخرى. فالأشخاص الفصاميون schizophrenics(*)، مثلا، يصفون آراءهم بأنهم نابذون أو غير متقبلين لهم، يتحكمون فيهم ويتسلطون عليم ويسيئون معاملتهم. أما الشبان الأكثر إبداعا فانهم يصفون آباءهم بأنهم اقل تحكما فيهم وتسلطا عليهم، يمنحونهم من الاستقلال أكثر مما يفعل آباء الشبان الأقل إبداعا. والشبان الذين يظهرون درجات عالية من التوافق وقبول ذواتهم

يميلون إلى إدراك آبائهم على أنهم يحبونهم ويقبلونهم أكثر مما يفعل الأبناء الأقل توافقا وقبولا للذات.

ويبدو أن علاقة الشاب العربي بأسرته تصل إلى نقطة حرجة في بداية الشباب، لا لتغير ظروف الأسرة بالضرورة، ولكن لان الأبوين من جهة، والأبناء من جهة أخرى، أصبحوا يرون علاقة كل طرف بالآخر من منظور مختلف.

يشكو معظم الشباب من أن أبويهم وأخوتهم وأفراد الأسرة الآخرين أم يعودوا يفهمونهم كما كانوا يفعلون من قبل-حين كانوا هم أطفالا-، ويلاحظون وجود «هوة» تزداد أتساعا بين فهمهم هم للأمور-وبخاصة شئونهم الشخصية-وتصرفهم حيالها، وفهم الآخرين وتصرفاتهم بازائها[1].

ويشكو الشباب فضلا عن ذلك من أن أبويهم-بخاصة-لم يعودوا يقبلونهم كما كانوا يفعلون معهم في طفولتهم، أو بمعنى أوضح لم يعودوا يحبونهم ويعطفون عليهم ويرعونهم كما كانوا يفعلون في مراحل حياتهم الأولى. وينجم مثل هذا الشعور بالنبذ من أسباب عميقة ومعقدة. «فقد يحدث، مثلا، عندما يشعر الطفل أن والديه ينبذانه لأنه ليس في مستوى توقعاتهما، أو عندما يقارن الوالدان-دائما وبطريقة غير محببة-بين الطفل وبين الأطفال الآخرين. أو لان الطفل لم يكن مرغوبا فيه منذ أن حملته أمه بنتا، لان الوالدين يريدان ذكرا بدلا من الأنثى. وقد يرجع النبذ إلى أن شكل الطفل على غير ما يريد الوالدان. وبصفة عامة، يشعر الطفل بالنبذ عندما يفشل الوالدان في أن يظهرا بوضوح عاطفة إيجابية أو دفئا عميقا نحوه»[2].

ولقد أشرنا في موضوع سابق (الفصل الأول من هذا الباب) إلى أنه ليس من النادر أن تؤخذ التغيرات الفسيولوجية التي تطرأ على الشباب وتهمهم وتؤرقهم كمادة للتفكه-وأحيانا للسخرية، ورأينا كيف تحاط أمور الجنس بستار من التكتم، وكيف تكف الرغبات التي يستثيرها تيقظ الطاقة الجنسية. بعبارة أخرى، بعض الآباء لا يقدرون معنى التغيرات الواسعة العميقة والسريعة التي تطرأ على أبنائهم في بداية الشباب، وحتى إذا فهموها وقدروا معناها، فان من النادر أن ينجحوا في تعديل مواقفهم بازائها، أو أن يفكروا في مثل هذا التعديل.

وعلى سبيل المثال، يتابع بعض الآباء بشيء كثير من القلق محاولات

أبنائهم شق طريقهم في الحياة، وفهم الظروف الجديدة عليهم والتكيف معها. ولأنهم يخشون ألا يحسن الأبناء التصرف، وبدافع من العطف على هؤلاء في معظم الأحيان، يواصلون توجيههم بالطريقة نفسها التي كانوا يوجهونهم بها في طفولتهم.

وفضلا عما ينطوي عليه مثل هذا الموقف من الآباء من تعطيل لنمو الشاب-على أساس أنه يعوق خبرته المباشرة بالواقع-فانه جارح لكبريائه، لأنه لم يعد صغيرا ولا يحب أن يعامل على انه صغير. تقول فتاة مصرية في السادسة عشرة من عمرها: «إنني في نظر أبوي ما زلت طفلة... أجد الفتيات في مثل سني، وأصغر مني، تتيح لهن أسرهن حق التجمل، وتشعرهن بأنهن اصبحن في سن لا يفعل الخطأ. أما أنا، فبرغم بلوغي هذه السن، ما زلت في نظرهم (نظر أبويها) طفلة-وإذا فعلت كما تفعل زميلاتي (فان) مصيري السب منهما، وإذا لم أفعل تتهامس علي زميلاتي. وهذا يشعرني بأني طفلة وأتصرف مثل الأطفال. وقد كان ذلك هو السبب في عدم نضوج الرأي عندي وعدم الثقة في نفسي...»[3] ولا يقتصر تقييد الحرية على مجال التصرفات العامة بالطبع، وإنما يتعداها إلى حق إبداء الرأي في المسائل الخاصة: كاختيار الملبس، والحاجات الشخصية، والاختلاط، واختيار الأصدقاء وغيرها. بل إن الأمر يصل في بعض الحالات إلى حد مصادرة حق الشباب في اختيار مستقبله في الدراسة، أو العمل أو الزواج. وهذا أكثر شيوعا في حالة الفتاة منه في حالة الفتى. وان كان موجودا في الحالتين.

وفضلا عن الألم والإحباط والقلق التي تترتب على مصادرة حرية الشاب، فانه يشعر بنقص تقديره لذاته الذي ينشأ عن عدم ثقة الوالدين فيه، حتى حين يكون ميلهما إلى تقييد حريته صادرا عن حب له واهتمام به وخوف عليه.

ويشكو الشباب كثيرا، والفتيات بصفة خاصة، مما يعتبرونه ميلا من الوالدين نحو الحد من حريتهم في التصرف. تقول فتاة: «لا يعجبني من أبوي التدخل الزائد عن حده في شئوني. ويضايقني أنهما يعتقدان أنني ما زلت صغيرة، مع أنني أشعر أن عقلي متفتح اكثر منهما».

وتتردد هذه الشكوى بكثرة في استجابات الشباب. ولكنها لا تغيب أبدا

في حالات الشباب من أسر ذات أصول ريفية محافظة. تقول فتاة ريفية: «منزلنا كالسجن الرهيب المحاط بالمخاوف والظلومات، انه كالزنزانة، إلا أن قضبانه من العادات والتقاليد، وحراس هذه الزنزانة مستبدون جاهلون بالتمدين الحالي، لا يأخذون من القرآن إلا بكلمة واحدة هي «الرجال قوامون على النساء»».

ويغطي تصرف الأسر من الشباب في هذا المجال فضلا عما ذكرنا عديدا من الأمور الهامة، ويترتب عليه عدد من القرارات التي تؤثر في حاضر الشباب ومستقبله على حد سواء.

فقليل من الآباء يراعون ميول أبنائهم عند اختيار نوع التعليم الذي يلتحق به هؤلاء والمستوى الذي يصلون إليه فيه، والمهنة التي يسعون للحصول عليها. ويتصرف الآباء في معظم الحالات بدافع من الطموح في أن يحقق الأبناء مستقبلا أفضل مما فعلوا هم. ومن هنا، فان من الأسباب الأزمة ميل بعض الآباء إلى أن يروا في أبنائهم فرصة لتحقيق مشروعاتهم هم في الحياة-ما خاب منها وما لم يجربوه. وقد تخرج مطالب الأباء من أبنائهم في معظم الأحيان عما يحب الأبناء أن يحققوه، وتتجه إلى أمور لا تتفق ومصالحهم، وان كانت ترضي كبرياء الكبار، الذين يعد بعضهم ما يمكن أن ينجزه أبناؤهم مقياسا لنجاحهم أو فشلهم في الحياة. يقول شاب «انهم-أي الآباء-يجهدوننا في تحقيق ما فشلوا هم في تحقيقه، بغض النظر عن ظروفنا والثمن الذي ندفعه.. كذلك».

وفي حرص الآباء على أن يحقق أبناؤهم في الحياة ما أخفقوا هم في تحقيقه، فانهم يعتمدون على مؤشرات أو معايير غير دقيقة ولا كافية: كالتحصيل الدراسي، ونوع العمل، و النجاح المادي، وما إليها.

وبالنظر إلى نقص كفاءة بعض الآباء في التقدير الموضوعي لاستعدادات أبنائهم وميولهم، بل والفهم العميق لواقع الحياة، فليس من النادر أن يرهقوا الأبناء بمطالب فوق طاقاتهم، تحيل محاولة تحقيقها حياتهم إلى نوع من المعاناة المتصلة، بل وتعجزهم حتى عن تحقيق ما كان في مقدورهم أن يحققوه. وتحدث في نهاية المرحلة الثانوية-وهي المرحلة التي تؤهل لدخول الجامعة-مآسي كثيرة لعدد من الأبناء نتيجة لتطلعات آبائهم غير الواقعية-كأن يصروا على أن يلتحق الأبناء بكليات الطب أو الهندسة أو الصيدلة أو

الاقتصاد أو ما إليها، وكلها تقبل جزءا فقط من المتقدمين-بل والنابغين-من الطلبة.

وحتى في المستويات الاجتماعية الاقتصادية الوسطى والعليا، ما زال الآباء يميلون إلى أن يكون لهم الكلمة الحاسمة في زواج أبنائهم-الإناث بصفة خاصة-من يتزوج الشاب، ومتى يتزوج، وطقوس الزواج وإجراءاته وما المادي ذلك (والسر في ذلك ليس هو تسلط الآباء بالضرورة، فالأسرة العربية ما زالت بالرغم من اتجاهها نحو الفردية تعمل بشيء من «الجمعية»، ومن ثم فان أي شأن من شئون أحد أفرادها يعني الآخرين عادة).

ولا يقتصر تدخل الوالدين في شئون الأبناء على مثل هذه الأمور ذات الأهمية البارزة في حياة الشاب وأسرته، بل انه يتعداها المادي أمور أصغر. ومن أمثلتها تدخل الأبوين في اختيار الأصدقاء والاختلاط بهم، وغيرها. وفي هذه النقطة ترتكب بعض الأسر العربية أخطاء كبيرة، وذلك لان أهمية الصداقة، في حالة الفتاة العربية بخاصة، لا تقتصر على أنها توفر لها صحبة سارة تهون عليها ضغوط حياة قاسية، ولكن لأنها تتيح لها أيضا الفرصة لاكتساب الخبرة في تكوين علاقات اجتماعية والمحافظة عليها. وتتأكد أهمية الصداقة أكثر إذا نحن عرفنا أن علاقة الفتاة بصديقتها هي العلاقة الوحيدة المسموح بها في حالات كثيرة، ومن ثم تكون نافذة الفتاة على الحياة والمستقبل.

وفضلا عن حرمان الأبناء من حق تقرير المصير، تخلق مثل هذه التصرفات في الأبناء انطباعا بأن آباءهم لا يثقون فيهم، فيطعنونهم في كبريائهم من جهة، ويسيئون المادي علاقاتهم بأقرانهم من جهة أخرى. تقول فتاة مصرية: «والذي لا يترك شيئا من خصوصياتي إلا ويفتشه، لعله يعثر على شيء، كما يعتقد، فهو يفتش حقيبة كتبي، حتى أنه يصل المادي جيوبي الخاصة. أما من جهة والدتي، فإنها إن لاحظت في يوم أنني غاضبة، أفاجأ بها تفهمني بأن أحدا لا بد قد اعتدى علي»(وتعتقد أنها تقصد بذلك الاعتداء الجنسي).

وفي بعض الحالات المتطرفة يؤدي هذا الموقف من الأهل المادي إحساس الشاب بالرغبة في التخلص من حياة لا يجد فيها «ما يستحق أن يعيش من أجله» على حد تعبير فتاة مصرية. وقد ينتهي المادي شعور بسوء الحظ:

فالحياة «كفاح وكبت وألم، ثم ينتهي المادي فناء. لذلك أتمنى لو لم أخلق»، على حد قول فتاة أخرى، ومن الطبيعي أن يتسلط على بعضهم فكرة الانتحار أو العودة المادي مرحلة الطفولة، وقد يقع كثير منهم فريسة للعصاب.

ويزيد من تعقيد هذه المشكلة اعتقاد بعض الشباب أن آباءهم ليسوا أهلا لممارسة هذا الدور. ففضلا عن أن آباء نسبة كبيرة من الشباب أميون، فان معلومات بعض المتعلمين منهم متخلفة-بشكل واضح أحيانا-عن معلومات أبنائهم، ليس فقط من في مستوى التعليم الجامعي، بل وحتى بعض أولئك الذين هم في المرحلة الابتدائية. (ولقد خلقت «الرياضيات الحديثة» مشكلات بين كثير من الآباء الذين يجدون أنفسهم عاجزين عن فهم ما يدرسه أبناءهم، و الأبناء الذين يحسون بتفوق على آبائهم. ومن ثم يفقد الآباء بعض قدرتهم على أن يكونوا قدوة لأبنائهم، ولا حتى عاملا يساعد في اكتساب المعرفة الحديثة) وهذا يطعن في «مشروعية» سلطة الآباء على الأبناء، وفي اعتبار كبر السن عاملا يكفي لفرض الاحترام والتوقير اللذين كان يستحقهما في عهود سابقة.

وهناك مشكلة التمييز بين الأخوة في الأسرة الواحدة. وتأخذ عادة شكلين: أولهما، وأخطرهما، تفضيل الذكور على الإناث، والآخر منح الكبار امتيازات تفوق ما يعطى للصغار، ولا يظهر أن ثمة خلافا على أن الحضارة العربية-وأصولها الريفية قوية راسخة في مختلف المستويات الاجتماعية الاقتصادية-تعطى للذكور قيمة تفوق بكثير ما تعطى للإناث. (وهو وضع يبدو منطقيا«مع سلطة الرجل في هذه الحضارة، ونظام الاقتصاد الزراعي البدائي، ونسق القيم المتصل به والذي يقوم عليه).

وتنسحب هذه التفرقة على معظم معاملات الآباء للأبناء، والعلاقات بين الأبناء بعضهم والبعض الآخر. وفي بعض الحالات تأخذ أشكالا صارخة تعطى الأنثى انطباعا-غير كاذب-بأن وجودها غير مرغوب فيه، وأنها تشكل «عبئا». ويرتكب بعض الآباء تصرفات تصل إلى درجة الحماقة في بعض الأحيان-من أمثلتها حرمان الفتيات أو بعضهن من بعض الامتيازات الأساسية التي تعطى للذكور، أو تحقير الإناث وتسفيه تصرفاتهن وأفكارهن. تقول فتاة مصرية: «أسرتي لا تعترف بأن للبنت آراء، مما أدى إلى عدم نضوج الرأي عندي». وتقول أخرى: «فأبواي يعتقدان أنه ما دام لدي من المأكل

والملبس ما يكفيني، فانه (لا معنى لان) يوجد شيء آخر يضايقني».

وفي الحالات الحادة لتسلط أحد الأبوين أو كليهما على الأبناء، ومع الاتجاه نحو تفضيل الذكور على الإناث والكبار على الصغار، ليس من النادر أن تفقد العلاقات بين الأخوة طابع المودة والتكافل والتعاطف الحقيقية، وأن تتسم بدلا من ذلك بالمنافسة الشديدة على حب الأهل ورضاهم.

ومن المهم أن نوضح أن الهوة بين الآباء والأبناء لا تترتب على تسلط الآباء وتحكمهم فقط أو في كل الحالات، فليس من النادر أن يؤدي إلى خلق الهوة مجرد إهمال الآباء لشئون الأبناء أو حتى تسامحهم معهم إلى حد التسيب في المعاملة.

وسواء كان نصيب الشاب من أسرته الحنان والرعاية الرائدة عن الحد، أو الحرمان المفرط الذي يصل إلى حد الحرمان من الحب والقبول، فان النتيجة هي تعويق ارتقائه النفسي الاجتماعي، بل والعضوي أحيانا. فالجو الصحي بالنسبة للنمو النفسي والاجتماعي هو ذلك الجو الذي يبدى فيه الكبار-والآباء بصفة خاصة-اهتماما بمشكلات الشباب واستعدادا لفهمها والمعاونة في حلها من جهة، ويجد فيه الشباب القبول والعطف مع إعداد جاد لتحمل مسئوليات الراشدين من جهة ثانية.

ونعتقد أن علاقة الفتاة بالأسرة وتأثيرات هذه العلاقة في ارتقائها ومستقبلها تستحق مناقشة تفصيلية.

وتبدأ هذه العلاقة بداية غريبة حقا. فالأنثى مولود غير مرغوب فيه في حالات كثيرة، إذ لا يستحب إنجاب الإناث إلا بعد إنجاب عدد من الذكور، وبعدد أقل كثيرا من عدد الذكور. ومما يؤسف له أن بعض الأسر لا تخفى هذه النظرة عن أبنائها.

وتشغل الإناث عادة مركزا أدنى من مركز الذكور، ليس فقط فيما يحصلن عليه من القبول والحب والرعاية، ولكن فيما يوفر لهن من فرص الحياة المادية.

ولعهد قريب، كانت الأم تنادى باسم ابنها الذكر، بغض النظر عن ترتيبه بين أخوته، ولم يحدث أن كانت تنادى باسم أبنتها وهو تقليد ما زال شائعا في أوساط كثيرة وحتى الآن، وفي عدد كبير من المجتمعات تكتسب الزوجة اسم زوجها بمجرد الزواج (وان كانت الدلالة مختلفة، ففي الحالة الأولى

تأكيد على وظيفة الأمومة، وفي الحالة الثانية تأكيد على وظيفة الزوجة و الأنوثة).

وفي عملية التطبيع الاجتماعي[4] يكرس في الفتاة شعور بأنها عبء على الأسرة، وتؤكد دونيتها بالنسبة للذكور. وفي بعض المجتمعات العربية-المجتمع الليبي مثلا-يغلب أن يحل أكبر الأبناء الذكور سنا محل الوالد في تصريف شئون الأسرة في حالة غياب هذا الأخير. وهذا ما يراه أحد الكتاب «وضعا جيدا على العموم»، ولا يرى فيه غير «دلالة على رغبة هؤلاء الشباب في تحمل مسئولياتهم والنهوض بها، لا على هروبهم منها. كما قد يدل على أن الآباء عندهم استعداد لتكليف أبنائهم ببعض المسئوليات» [5] وتغيب عنه الدلالات الخطرة لتسلم الذكر على الأنثى حتى على الآم في الأسرة العربية.

وفي ظل تقسيم تقليدي للعمل، تنصرف الفتاة عن الاهتمام بإعداد نفسها لدور منتج في المجتمع، فتحرم من ظروف الضغط والحفز، وتتعرض لمشاعر العجز، مما يؤدي إلى كف ارتقائها. ومن ثم يكون أداؤها العقلي الفعلي أقل مما كان يمكن أن يكون لو توافرت لها فرص استثارته وتحقيقه. وفضلا عن هذا، تحرم الفتاة من فرص التجربة والخطأ المؤدية إلى إنضاج الخبرة في التفاعل بين الذات والواقع. ويزيد الواقع فقرا بالنسبة للفتاة أن إنجازها الفعلي المتواضع-وهو أقل مما تؤهلها له استعداداتها-لا يستثير قلق أهلها. ومن هنا تظل بيئتها غير حافزة ولا مثيرة.

ومنذ الطفولة وحتى الشباب، تدفع الفتاة في طريق غير ذلك الذي يحفز الفتى على سلوكه. فتعد الفتاة لدور سلبي في الحياة: الزواج، لا كشريكة حياة، ولكن كموضوع للإشباع الجنسي للرجل، ولتوفير مطالبه المادية والعاطفية الأخرى. وتصرف كل المؤثرات الأسرية الفتاة عن تحقيق ذاتها-في الدراسة أو النشاط الاجتماعي أو العمل العام أو غيرها-إلى تأهيل نفسها للزواج. ولا يقتصر ذلك على الحد من طموحات الفتاة في الدراسة ومشروعاتها للمستقبل، وإنما يمتد إلى نشاطها اليومي. فثمة مطابقة كاملة بين المرأة والزواج والأمومة، بحيث لا يترك للمرأة مجال لان تتصور نفسها خارج نطاق دوري الزوجية والأم. فهي كائن بيولوجي بحت.

ولا تكتفي الأسرة بهذا، وإنما تدعمه بتكريس قيم بالغة الخطورة في

تقدير المرأة لأهميتها وتحديدها لقيمتها الاجتماعية، وتصورها لدورها في الحياة، وللعلاقات بين الجنسين. ففي حين تسعد الأسرة-وان كان بصورة غير صريحة-لتجارب الأبناء الذكور الجنسية قبل الزواج، وتعتبرها شاهدا على أن أبناءها بلغوا سن «الرجولة»، فإنها تدعم في البنات قيمة «العذرية»، التي تفهم منها بعض الإناث على أنها إنكار لحقهن في التجربة الجنسية، وتكريس لعلاقتهن بأزواج المستقبل على أنهن ملك لهم، ومن ثم لا يجوز لهن أن يتصرفن في حق الممارسة الجنسية الذي هو حكر على الزوج.

وتحاط علاقة الفتاة بالجنس الآخر بعدد من الموانع القوية حتى لتتمادى بعض الأسر إلى حد منعها من التحدث مع أي شاب «غريب» حتى لو كان الحديث بريئا. وإذا سمح بالاختلاف، فلا بد أن يكون في حضور الكبار. وهذا قد يدفع الفتاة إلى أن تفقد الثقة بنفسها وبأسرتها من ناحية، والى التورط في علاقات غير صحية قد تتاح لها خلسة من ناحية أخرى.

وتبلغ ظاهرة الفصل بين الجنسين في الأسرة الليبية-كمثال بالطبع-إن اكثر من ربع الشباب في عينة إحدى الدراسات، ذكروا انهم لا يلتقون بأخواتهم في المنزل إلا في فرص قليلة، وبعض هؤلاء (حوالي 5ر7٪ من أفراد العينة) ذكروا انهم لا يستطيعون أن يلتقوا بأخواتهم إلا في حضور الأم. (6)

وقد يصل الفصل بين الجنسين في الأسرة العربية قطاع الحضر، في الحياة اليومية إلى حدود بعيدة. فما زال الشائع في الجماهيرية الليبية أن يجلس الأبناء الذكور إلى مائدة الطعام مع أبيهم لم وفي حين تأكل الفتيات الإناث مع أمهن وحدهن بعد انتهاء الذكور من طعامهم. وتفوت دلالة هذا التقليد الحضاري-باعتباره نوعا من الفصل الحاد بين الجنسين والحظ من مركز المرأة في المجتمع-على الكثيرين، فلا يرى بعضهم فيه أكثر من أن تكون ندرة اللقاء بين أفراد الأسرة سببا من الأسباب التي تنفر الشباب من الاستقرار في البيت ومن المكث فيه فترة طويلة، والخروج منه إلى أماكن أخرى، وفي ضعف سيطرة الوالدين على أبنائهم. (7)

بل إن وجود تباعد نفسي اجتماعي في العلاقات الأسرية ليس قاصرا على العلاقات بين الجنسين، وإنما يمتد ليشمل العلاقات بين الكبار والصغار. ففي الحالات الغالبة لا يوجد حوار ودي بين الآباء والأبناء، ويضطر هؤلاء

إلى الاتصال بالأب مثلا عن طريق الأم حين يكون هناك ما يستدعي أو يستلزم هذا الاتصال. ويحدث هدا بصفة خاصة في علاقات الفتيات بآبائهن «وحتى علاقات الآباء بالأبناء الذكور تتسم بالرسمية والشكلية، حتى ليتردد كثير من الأبناء الذكور في ممارسة نشاط مشترك مع الآباء في بعض الأحيان.

وبهذه التحريمات والكف تدخل المرأة العلاقة بالجنس الآخر بعامة، وفي علاقة الزواج، غير قادرة على الاستمتاع بها وتأكيد ذاتها فيها، ولا على تحقيق توقعات الآخرين منها . ومن ثم فليس غريبا أن نجد فتاة تقول: «أكره الرجال وأحب دائما إذلالهم، وكثيرون يجرون ورائي وأتظاهر بقبولهم إلى أن يحبوني، ثم أتركهم يتذللون لي بعد ذلك... عندي عقدة ضد الزواج... أريد أن تثبت في عقلي فكرة خيانة الشباب. أريد أن أنظر إلى الشاب على أنه ذئب خائن وأريد ألا أنخدع». وتقول أخرى: «احتقر كل فتاة تمشي مع فتى أو تتخذه صديقا، لأنه سيمحو لها » سمعتها الطيبة«ويحتقرها ويتركها في النهاية بعد أن يكون قد تسلى بها وزهق منها».

وترسخ عدد من الأسر العربية في نفوس بناتها-بالذات-تصورا للزواج على أنه صفقة تقوم على أساس تقديرات الكسب والخسارة المادية، لا على أساس عواطف الحب وإمكانيات الفهم والوفاق. وكصفقة، لا يمنع الأمر من أن تتم حتى ولو بالخديعة والغش والوعود الكاذبة، مما يخلق في نفوس بعض الشباب عدم تقدير الذات، ويشيع في جو الزواج-حين تكتشف-عدم الاحترام من الطرف الآخر.

وليس من النادر أن تؤدي الضغوط الأسرية الشديدة على أبنائها-والإناث بصفة خاصة-والتشويه الذي تتركه هذه الضغوط في مجالات الجنس، والعلاقات بين الجنسين، والأخلاق بعامة، إلى نوع من الإحساس بالإثم، وبخاصة أن بزوغ الدوافع الجنسية صريحة ملحة يظهر المكبوت من الدوافع الطفيلية منها، مما يدفع في نفس الشاب فزعا وخوفا من أن تنطلق الدوافع وتتحقق فتحدث كارثة. وهذا يلهب إحساسه بالذنب والخطيئة والخوف المرضي من «عقاب الله» أو «عقاب السماء»، وهو خوف لا يقلل منه-في نظر الشاب-إلا التقرب الشديد من الله، وقد يدفع بعض الشباب إلى تصرفات تصل إلى حد التطرف الديني الذي يصبح فيه كل شيء مباحا

باسم الدين، ويصير كل تقصير في الواجبات الدينية، كما يتصورها الشاب، مدعاة إلى عدم احترام الذات والخوف. وهكذا يدور الشاب في دائرة مفرغة تقود بدايتها إلى نهايتها وتؤدى النهاية إلى البداية.

والخطير في الأمر أن الشعور بالخطيئة لا يقف عند حدود ذات الشاب قيمه وتصرفاته، ولكنه قد يمتد لشمل ما يعتبر أخطاء من رفاق السن وبخاصة الزملاء والأصدقاء الذين تؤرقه بعض تصرفاتهم إلى درجة الإحساس بالذنب، كما لو كان هو مسئولا عن تصرفاتهم.

ويزيد من تعقيد هذا الاتجاه عند الشباب العربي الطريقة الجامدة الني يدرس بها الدين، ويفصل فيها عن الحياة اليومية الحقيقية، ويقدم في معظم الحالات-كمجموعة من التعليمات والطقوس والشعائر بغير معنى عميق، سرعان ما يظهر التعارض بينها وبين بعض ما يتعلمه الشباب، وما يجدونه في ممارستهم اليومية من تجارب.

رابعا

ونستعرض في الفقرات التالية بعض نتائج دراسة عن الصراع القيمي بين الآباء والأبناء وعلاقته بتوافق الأبناء النفسي (في المجتمع المصري) أجريت في المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة[8]. ونكتفي من نتائجها بما يرتبط بالصراع بين الآباء والأبناء.

وبصفة عامة وباستثناءات قليلة نبرزها في مواضعها:

1- يميل الآباء والأبناء إلى أن يكونوا اكثر تحررا واستعدادا للتغير في اتجاه مسايرة منطق العصر عما كانت عليه الأجيال السابقة.

2- الأبناء أكثر «ليبرالية» من آبائهم-وأمهاتهم بالطبع-وتختلف شدة هذا الاتجاه من حالة إلى حالة.

3- الإناث من الأبناء أكثر ليبرالية من الذكور في جيلهن (إلا في حالات بعضها غريب. وليس من السهل تفسيره في حدود مادة الدراسة) وبصفة خاصة تكون الإناث أكثر ليبرالية من الذكور حين نكون بصدد قضية تتعلق بوضعهن أو مركزهن في المجتمع أو صيغة معينة من العلاقات الاجتماعية.

وفي موضوع الزواج واختيار شريك الحياة، تظهر الخلافات واضحة بين الآباء والأبناء حول الاختلاف قبل الزواج، والحب قبل الارتباط، ومستوى

أسرة الزوج أو الزوجة اقتصاديا واجتماعيا، وبعض مواصفات الزوجة (كالتعليم، والتدين) وغيرها، الآباء يميلون إلى نمط «الزواج التقليدي» لا يسمح فيه بالاختلاف، ولا يعترف فيه بقيمة الحب، ويركز على «أصالة الأسرة» ماليا واجتماعيا، ولا يعتد فيه بتعليم الزوجة كما يعتد بتعليم الزوج، ويحتفظ فيه بفارق واضح في السن بين الزوج والزوجة-الزوجة اصغر. أما الأبناء-ذكورا وإناثا-فهم يبدون عزوفا واضحا عن «النمو التقليدي» ويتجهون نحو صيغ جديدة، وان كانوا لا يرفضون كل الأفكار القديمة والقيم التقليدية.

فعلى سبيل المثال، لا يتمسك الشباب بنظام الزواج بين الأقارب بالدرجة نفسها التي يتمسك بها آباؤهم. كما أن موافقتهم على أنه ليس هناك ما يمنع من أن يتزوج الشخص من أسرة أقل مستوى من أسرته أقوى من موافقة آبائهم على مثل هذا الوضع.

يحبذ الاختلاط بين الفتى والفتاة قبل الزواج بدرجة أكبر مما يفعل آباؤهم. ولا يرفضون الحب بين الفتى والفتاة قبل زواجهما بالدرجة نفسها التي يرفضها آباؤهم.

ومن ناحية أخرى، ما زال تقليد أن يكون الزوج اكبر سنا من الزوجة أمرا مقبولا للغالبية من الجيلين، وان كان تحبيذ جيل الآباء له أشد وأوضح من قبول جيل الشباب.

ومازال الاتجاه قويا بين الجيلين لقبول فكرة «إن الزوجة الفقيرة غالبا ما تكون زوجة طيبة». وقبول الإناث من الشبان لهذه الفكرة اقل من قبول غيرهن-آبائهن ورفاق جيلهن-لها. وما زالت فكرة «أن الفتاة غير المتعلمة تقوم بدورها كزوجة افضل من الفتاة المتعلمة» تلاقى قبولا من نسبة تصل إلى حوالي النصف أحيانا من مختلف فئات المجموعتين. ورفض الإناث لها أوضح كثيرا من رفض الذكور في كلا الجيلين.

أما قضايا المساواة في بعض الحقوق-كالتعليم، والاختلاط بين الجنسين، والعمل، والأجر، وغيرها-فيبدو الأبناء اكثر مطالبة بها وإصرارا عليها من آبائهم. (وإلحاح الإناث بين جيل الشباب عليها أشد من إلحاح رفقائهن من الذكور)، ويبدو هذا أوضح ما يكون في قضايا الاختلاف بين الجنسين في الدراسة والاستذكار وتوظيف المرأة.

وبالنسبة لعلاقة الأبناء بالآباء، لا يرفض الأبناء طاعة آبائهم رفضا

مطلقا، ولكنهم، من ناحية أخرى، لا يقبلون فكرة «أن الطاعة المطلقة للآباء تعد الأبناء إعدادا حسنا للحياة»-كما تفعل نسبة كبيرة من آبائهم.

وكما هو متوقع، يطالب الشباب بحرية في اختيار أصدقائهم، وما يروحون به عن أنفسهم، وفي التصرف في شئونهم الخاصة، أكثر مما يسمح لهم به آباؤهم. وان كانت الحرية التي يطالب بها الشباب لأنفسهم لا تصل إلى حد أن يفعلوا ما يحلو لهم. وفي هذه النقطة تبدو الفتيات أكثر محافظة من الذكور. وعلى أية حالة، فان ما يطالب به جيل الشباب من حرية للإناث أقل بشكل واضح مما يطالبون به للذكور.

ويرتبط اختلاف وجهات النظر حول وضع الفتاة في الأسرة والحرية التي تمنح لها فيها بالجنس إلى جانب ارتباطه بالجيل. فالإناث من الشباب هن «المتمردات» بشكل واضح على دونية وضعهن في الأسرة، وتعاطف أمهاتهن معهن في هذا أكثر من تعاطف الذكور حتى من جيلهن معهن.

والهوة واسعة بين تصور الشباب لعلاقتهم بنظام التعليم-المدرسة أو الجامعة-وبين تصور آبائهم لهذه العلاقة. فمع أن الجيلين متفقان على «أن هناك موضوعات دراسية ينبغي أن يدرسها التلاميذ بصرف النظر عن ميلهم لها»، فان الأبناء أقل تحبيذا لفكرة أنه «ينبغي أن يوزع التلاميذ على أنواع المدارس المختلفة وفقا لمتطلبات المجتمع-بغض النظر عن رغباتهم». هم بعبارة أخرى يميلون إلى رفض فكرة أن يتحدد مستقبلهم وفقا لاحتياجات «خطة التنمية»، كما يحددها المسئولون عن التعليم.

أما بالنسبة للنظام المدرسي والجامعي: فان الأبناء اكثر نقدا له من آبائهم بشكل واضح فهم يطالبون بأن يكون لهم صوت في اتخاذ قراراته، ويميلون إلى رفض فكرة إطاعة ما تصدره إدارة المدرسة أو الجامعة من تعليمات دون مناقشة. وهم-في الوقت نفسه-يرون أنه يجب أن يكون النظام في المدرسة أكثر صرامة مما هو عليه الآن (وهذا لا يتعارض مع مطالبتهم بدور أهم في إدارة المدرسة) هم يطالبون بتطبيق شعارات الديمقراطية التي ترفعها عديد من الجهات المسئولة، والعمل على أن يكون نظام التعليم عمري يتفق مع استعدادات الدارسين ويسير بمشاركتهم.

وواضح أن الشباب لا يعارضون كثيرا في أن تتم عملية التوجيه الدراسي بحيث توجه فئات إلى تخصصات ذات قيمة اجتماعية لا لمجرد الدراسة

بدون هدف-فالتعليم ذو تكلفة عالية، ثم انه أداة إعداد القوى العاملة التي يحتاج إليها المجتمع. ولكنهم يرون أن يتم ذلك في ضوء استعدادات الأفراد وميولهم وطموحاتهم و قدراتهم.

يتعامل كثير من الآباء مع الأبناء من منطق أنهم-الأولين-ضحوا وربما ضيعوا شبابهم من أجلهم. وتضحية كثير من الآباء ليست محل شك كبير، فكثير من الآباء يشقون، وعدد من الأمهات يمتنعن عن الزواج بعد وفاة الزوج أو الطلاق حتى يتفرغن لتربية الأبناء. ولكن كثيرا من الآباء يطالبون أبناءهم بما لا يقدرون على تقديمه كمجرد «رد الجميل».

والذي يحدث عادة هو أن مثل هؤلاء الآباء يفرضون على الأبناء ضريبة قاسية بسبب رعايتهم الزائدة التي تبلغ حد التدليل، واهتمامهم الذي يصل إلى التدخل في كل شأن من شئونهم تقريبا، ويصبح نوعا من التسلط والقهر، حتى لتلغى شخصية الأبناء ويعاق ارتقاؤهم.

وفي بعض الحالات يؤدى الخلاف بين الآباء والأمهات حول تربية الأبناء-الذي يتخذ شكل لوم الآباء للأمهات على تدليلهن للأبناء عادة-إلى توتر العلاقات الزوجية، وربما إلى مضاعفات خطرة يلقى الآباء مسئولية بعضها على الأبناء.

وفي تصرفاتهم هذه لا يحاول الأهل-أو نادرا ما يحاولون-أن يتصرفوا على أساس رؤية الأمور من موقع الأبناء لا من مواقعهم هم. لا يفكرون في معنى الحرية بالنسبة للشاب، ولا أهمية التجربة الجنسية في حياته، ولا حيوية العلاقات الاجتماعية وبخاصة مع الجنس الآخر لنضجه النفسي والاجتماعي.

وكثيرا ما يقابل الآباء أخطاء أو سقطات غير خطيرة، وربما غير مقصودة أو تصدر دون تقدير لعواقبها، بشيء من الانزعاج يسبب للأبناء إحساسا بالخطيئة قد يصل إلى حد تحقير الذات، وقد تنتهي ببعض الأبناء إلى حالات مرضية خطيرة. فمن دراسة طبية نفسية[9] أجريت على الشبان (بين سن 16 وسن 24) المترددين على العيادة النفسية ني مستشفى القصر العيني بالقاهرة للعلاج-تبين أنه في اكثر من ثلث حالات المرض النفسي وحوالي 19٪ من حالات المرض العقلي، كان للصراع بين جيلي الشباب والكبار-الأبناء والآباء-دور واضح. وكانت فاعلية الصراع أوضح كلما زاد

الفارق في السن أو في التعليم بين الأبناء والآباء.

وبالنظر إلى عمق واتساع الهوة التي تفصل بين الآباء والأبناء، على نحو من شأنه يحول دون حل ما يوجد من مشكلات، بل ويزيد من حدة المشكلات الموجودة ويخلق غيرها، يحجم الأبناء عن الدخول في حوار مع أبويهم هو من أهم احتياجات نموهم، وبخاصة في سنوات الشباب الأولى. ومن الأسباب التي يعطيها الشباب لتعذر وجود مثل هذا الحوار، أنهم يشعرون أن آباءهم لا يهمهم أن يعرفوا مشكلاتهم. تقول فتاة مصرية: «لا أبوح (لأبوي) بشيء خوفا من غضبهما... ولذلك لا أجد النصح والإرشاد اللازمين». وتقول أخرى: «بعض المشكلات تضايقني ولا أجد في المنزل من أسردها عليه، لأنهم يجعلونني دائما مخطئة دون أن يوضحوا الأسباب، ولا أن يتحققوا الأسباب التي دفعتني إلى ذلك فربما يكونون هم السبب». ومن جهة ثانية، يتصور الشباب أن آباءهم حتى لو اهتموا بأن يعرفوا مشكلاتهم لا يستطيعون أن يفهموها، وذلك بسبب الهوة التي تفصل بين الجيلين. وأخيرا، هم يعتقدون أن آباءهم حتى لو اهتموا بأن يعرفوا مشكلاتهم وفهموها، فانهم ليسوا على استعداد لتعديل مواقفهم لو اتضح لهم أنهم على غير حق.

خامسا

استعرضنا في الفقرات السابقة بعض الجوانب «المشكلة» في علاقات الشباب العربي بأسرته.

ومن ناحية أخرى، وبعكس الحال في الأسرة الأوربية الغربية مثلا- مازالت الأسرة العربية من الجماعات المرجعية reference groups[(2*)] الأولى في حياة الشاب العربي: هي مصدر الأمن النفسي والرعاية المادية في وقت واحد: يرى الواقع ويتعامل معه من خلال قيمها وأساليب السلوك الشائعة فيها، ويحتمي بها منه، ويستعين بكل ما توفره من إمكانيات في حل مشكلات وجوده.

ويؤكد كثير من الشباب في أكثر من دراسة أن آباءهم «يضحون من أجلهم كثيرا» ولهذا، فان من الطبيعي أن تعبر نسبة كبيرة منهم عن مخاوف من فقد الأبوين أو أحدهما، أو أن يكشفوا عن الألم الذي يعيشون في حالة فقدهم لهما أو لأحدهما. تقول فتاة: «أحرج إذا سألني أحد عن أمي، ولا

أحب أن أقول أنها (متوفاة)». بل إن بعضا من ميل الشباب العربي إلى الاستقلال الاقتصادي والاعتماد على النفس في وقت مبكر يرجع إلى رغبة-غير صريحة أحيانا-في تخفيف العبء عن أسر يشعرون أنها تتحمل فوق طاقتها من أجلهم. ومن الاستجابات الرائعة في عدد كبير من الدراسات يقول الشباب: «أبواي يضحيان كثيرا من أجلي». وهذا الاستقلال نفسه يخلصهم من بعض القلق المرضي على أهليهم الذين يعتمدون عليهم اعتمادا شبه كلي.

وليس من الغريب، إذن، أن عددا من الأبناء يتخذون آباءهم مثلا عليا وقدوة-الذكور يتجهون نحو الوالد والإناث تتجهن نحو الأم. وهدا بالطبع شيء غير التقدير المبالغ فيه وغير الموضوعي ولا الواقعي الذي يخلعه الطفل على والديه أو أحدهما. وتأتي القدوة في مجال الأسرة في المرتبة الأولى في ثمانية مجالات، والمجالات السبعة الأخرى هي بالترتيب التنازلي: الثقافية، والوطنية، والدينية، والسياسية، والفنية، والمدرسية، والرياضية».[10]

ويكشف هذا الاتجاه الذي يقوم على اختيار حر ووزن ناضج بعض الشيء للأمور-عن تقدير الأبناء لكثير من السمات الطيبة-«المواقف الإنسانية»، والتواضع، والثقافة، والتدين، والطيبة، وغيرها التي يرونها في الآباء. ومن ثم تقول نسبة كبيرة من الشباب انهم يريدون أن يكونوا مثل أهليهم، ويتجه بعضهم إلى الأمل في تجاوزهم وتحقيق أفضل مما فعلوا.[11].

الهوامش والمراجع

1- مصطفى احمد تركي، «الرعاية الو الدية وعلاقتها بشخصية الأبناء:< دراسة تجريبية على طلبة جامعة الكويت، القاهرة، مكتبة النهضة العربية، 1974، ص ص 75-76.
2- المرجع نفسه، ص ص 132- 123.
3- الاقتباسات من اتجاهات المراهقات في هذا الفصل من كتاب منيرة احمد حلمي، «مشكلات الفتاة المراهقة وحاجاتها الإرشادية، القاهرة، دار النهضة العربية، 1965 وبخاصة ص ص 204-205.
4- انظر في هذه النقطة، فرج أحمد فرج، «علم النفس وقضايا المرأة»، المجلة الاجتماعية القومية، المجلد الثاني عشر (سبتمبر 1975) ص ص 139- 156، ويحيى الرخاوي، تحرير المرأة وتطور الإنسان، نظرة بيولوجية»، المرجع نفسه، ص ص 157-180.
5- إبراهيم محمد الشافعي، «اتجاهات الشباب في الجمهورية العربية الليبية»، بنغازي، منشورات جامعة بنغازي، بدون تاريخ، ص 76.
6- المرجع نفسه، ص 97.
7- المرجع نفسه، ص 52.
8- عماد الدين سلطان، «الصراع القيمي بين الآباء وعلاقته بتوافق الأبناء النفسي»، القاهرة، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، 1973.
9- وردت في المرجع نفسه، ص 12.
10- مسعد عويس، «القدوة في محيط النشء والشباب»، القاهرة، بدون ناشر، 1977، ص 94 وما بعدها.
11- المرجع نفسه، ص 84.

الحواشي

(*) الفصامي schizophrenic هو الشخص الذي يعاني من اضطراب نفسي يتمثل في انقسامه على نفسه أو توزعه بين اتجاهات مضادة ويكون عادة فريسة للقلق والاكتئاب والوسواس، ميالا إلى الانطواء.

(*2)الجماعة المرجعية reference group هي الجماعة التي يستمد الشخص منها قيمه وأهدافه ومعاييره وأساليب تصرفاته. أي إن ما يأخذ به الجماعة يكون المصدر الذي يستقي منه الفرد اتجاهه وسلوكه وقد لا يكون الفرد عضوا فيها وإنما تباشر تأثيرها فيه بجاذبية خاصة به.

5 معاناة فترة الطلب

مشكلات الشباب العربي مع نظام التعليم

أولا

تلعب المدرسة-والجامعة-في حياة الشاب العربي: حاضرة ومستقبله، دورا يقترب في أهميته وخطورته من ذلك الذي تقوم به الأسرة. بل إن دور المدرسة يفوق في أهميته وخطورته دور الأسرة في جوانب معينة وفي بعض الأحيان (على نحو ما سوف نبين في الفقرات التالية من هذا الفصل).

والمدرسة هي امتداد للأسرة. فهي من ناحية: تضيف إلى عمل الأسرة أعداد الشباب لأداء وظيفة إنتاجية في المجتمع، وهي: من ناحية أخرى، تستكمل مهمة الأسرة في مساعدة الشاب على النضوج فسيولوجيا ونفسيا واجتماعيا.

وترجع خطورة دور المدرسة في حياة الشاب العربي إلى عدة عوامل. من أهمها:

ا- إن نظام الحياة في المجتمعات الحضرية في العالم العربي أدى إلى تناقص وظائف الأسرة، فسلبها عددا من الوظائف (من أهمها استكمال عملية التطبيع الاجتماعي، وإعداد الشاب لدور منتج في مجتمع الراشدين، وهما مهمتان آل أمر إنجازهما للمدرسة). ومن ثم فان فهم الفرد لنفسه

والواقع، واتجاهاته بازائهما وتصرفاته معهما، والدور المنتج الذي يمكنه أن يقوم به في الحياة، ومن ثم مكانته فيها، تتأثر كلها بما توفره المدرسة له من فرص.

2- بل إن استكمال نمو الشاب فسيولوجيا ونفسيا واجتماعيا يتوقف بدرجة كبيرة على علاقة الشاب بالمدرسة، التي يفترض فيها أن توفر له إمكانيات النضوج، ويمكنها-وهذا ما يحدث في حالات كثيرة مع شديد الأسف-أن تعطله أو تنحرف به عن مساره «السوي».

3- انه مع بداية الشباب يتجه دور الأسرة في حياة الشاب إلى التقلص والانكماش. أولا، لان الوالدين والاخوة الكبار يصبحون عاجزين عن مساعدة الشاب في حل مشكلاته التي يزداد تعقدها سنة بعد سنة سواء في مجال الدراسة أو خارج نطاق المدرسة. وثانيا، لان إمكانيات البيت-وهو محدود التجهيزات بالضرورة-تصير غير كافية لاحتياجات نشاط الشباب في بعض المجالات: الرياضية، والثقافية، والاجتماعية، وما إليها.

4- وحتى حين تسمح التسهيلات المتاحة في البيت والإمكانيات المتوافرة للشاب بأن يمارس بعضا من هذه النشاطات-وهذه حالات جد نادرة-فان مشكلاته مع والديه واخوته-التي أفضنا في تحليلها ومناقشتها في الفصل السابق-تدفع به إلى خارج البيت-بعيدا عن الأسرة أحيانا.

فالمدرسة-أراد الشاب أو لم يرد-هي المؤسسة الاجتماعية التي يقضى فيها معظم وقته، وأجمل سني عمره-كما يقال-والسياق الذي يمارس فيه اغلب نشاطاته-أقربها إلى قلبه «وابغضها» إلى نفسه في وقت واحد، وهي الجهة التي تعطيه رخصة أو شهادة تحدد على أساسها بدرجة كبيرة قيمته في نظر الآخرين. وهنا تكمن خطورتها.

وتمثل علاقة الشاب بالمدرسة أول مواجهة حقيقية له من المجتمع الكبير، وهي البداية الجادة أو الحلقة الأولى في سلسلة صراعات الشاب معه-إذا جاز لنا أن نرى العلاقة على هذا النحو. ذلك، لأن المدرسة تنطوي على أهم إيجابيات المجتمع الكبير وسلبياته، وهي تتعامل مع الشاب على أساس أنها أداة من أدوات المجتمع في التعامل مع أفراده.

فتجربة دخول الفرد المدرسة تجربة هامة في حياته، لما تنطوي عليه من اتساع دائرة العلاقات الاجتماعية لتشمل أطرافا جديدة كالمدرسين ورفاق

الدراسة، وقيام بعضها على أسس جديدة تعتمد على إمكانياته واستعداداته ومهاراته الحقيقية، لا على كونه مجرد ابن أو أخ، كما هو الحال في الأسرة.

وعلاقة الشاب بالمدرسة أكثر تعقيدا وإشكالا من علاقته بالأسرة. ففي حين تسعد الأسرة عادة بوجود الشاب فيها وتتلهف على ذلك أحيانا، فان أمر علاقته بالمدرسة أو عدم وجود علاقة بينه وبينها لا يعني إدارة المدرسة والمدرسين كثيرا، فهي لا تتلهف على وجوده فيها وإنما تقبله لان اللوائح تلزمها بذلك. وفي حالات غير قليلة تراه عبئا عليها، وهو موقف. قد لا تتردد في أن تصارح الشاب به.

ويرجع بعض التعقيد في هذه العلاقة إلى أن المدرسة لا تقبل الشاب «على علاته»، كما تفعل الأسرة معه في أغلب الحالات، وإنما هي تتعامل معه على أساس وزن تصرفاته بحسب معايير ومحكات شكلية، تتعامل معه على أن له حقوقا، تحدد هي من خلال الممارسة اليومية طبيعتها، وأن عليه التزامات، تعينها هي.

على سبيل المثال، تقبل الأسرة ابنها «المشكل» وترعاه، في حين أن المدرسة باعتبارها منظمة رسمية formal organization (*) تتعامل معه على أساس معايير شكلية عامة-ومن ثم فقد ترفضه أو ترده عنها حين يتأكد لها عجزه عن الوفاء بما تفرضه عليه من التزامات.

وبغض النظر عن شخصية كل من الأبوين وظروف حياتهما، تحرص الأسرة عادة على أن توفر للشاب الحب والعطف والحنان بدرجة لا يستطيع المدرسون أو إدارة المدرسة أن يقدموها له. فعالم الأسرة «الشخصي» العامر بالدفء والود عادة-بالرغم مما قد يعكر صفوه من مشكلات-يفوق عالم المدرسة اللاشخصي impersonal حيث تتفاعل جماعات كبيرة من الشباب بدون عمق ولا استمرارية ولا مراعاة لظروف كل من الأشخاص.

وتشخيصنا لحالة نظام التعليم، على حد قول فؤاد ذكريا، «إنما هو في واقع الأمر تشخيص لحالة مجتمعنا منعكسة على مرآة هذا المرفق الحساس»[1]. فإيجابياته هي إيجابيات المجتمع المعاصر، وفيه كل سلبياته تقريبا. ومن ثم يخطئ الذين يتصورون أزمته-وهذه لا خلاف كبير حولها-على أنها من «تركة الاستعمار» الثقيلة، سيكون من الممكن تجاوزها مع مرور الزمن، ويخطئ الذين يتصورونها على أنها بسيطة وعارضة، يمكن علاجها

عن طريق عدد من الإصلاحات الجزئية. فتخلف نظام التعليم في العالم العربي، أو في معظم بلاده على الأقل-على نحو ما سوف نبين في الفقرات التالية-هو نتيجة منطقية وحتمية لتخلف المجتمع العربي، وهو عامل من أهم عوامل تكريس التخلف وتأخير الخلاص منه في الوقت نفسه. فنحن في هذه الأزمة بالذات ندور في حلقة مفرغة فلا سبيل إلى الخلاص من التخلف بدون ثورة في نظام التعليم بشكله وطريقة أدائه، ولا سبيل إلى-أو من العسير جدا على الأقل-إنجاز هذه الثورة في ظل ظروف التخلف الراهنة.

ثانيا

وقبل أن نمضي في المناقشة، يلزم أن نوضح حقيقة بسيطة وهامة في الوقت نفسه. وهى أن كلا من المدرس والشاب يحمل إلى المدرسة شخصيته ويتعامل من خلالها. ومن ثم تنعكس في تصرفات كل منهما جوانب القوة والنضج، وكذلك جوانب الضعف والإحاطات والانحرافات الماضية والمشكلات الحالية. وليس في مقدور أن منهما أن يتحرر من شخصيته ليعيش «النموذج الأمثل» الذي تصوره الحضارة العربية لكل منهما. فعلى سبيل المثال، في دراسة عن مدى ارتباط العلاقات الأسرية للطلبة بتحصيلهم الدراسي، لوحظ أن الطلبة الأكثر تحصيلا-بعكس الأقل تحصيلا-يصفون آباءهم بأنهم يشاركونهم في أفكارهم ويثقون فيهم. كما يحسون بأن آباءهم يتقبلونهم ويعطفون عليهم، يشجعونهم ولا يقيدون حريتهم.[2] وفي دراسة أخرى عن ارتباط القلق عند الأبناء بموقف آبائهم منهم، تبين أن الأبناء الأقل قلقا يرون آباءهم أكثر حبا لهم، مما يرى الأبناء الأكثر قلقا. [3]

وليس من الممكن عادة أن يتصرف المدرس مع الشباب بحياد عاطفي وتجرد، فهو أما أن يكون محبا عطوفا فاهما مضحيا واسع الصدر، أو يكون قاسيا عنيدا عنيفا في تصرفاته، لا عن تقدير موضوعي لسلوك الشباب، بل عن عوامل لا شعورية (كشعوره بالذنب، أو الرغبة في عقاب الذات، أو الإحساس بالمرارة بسبب إخفاق، أو إحساس بالغبن، أو ما إلى ذلك) والمدرس-باعتباره بديلا للأب أو الأم أو الأخت من ناحية، وباعتباره ممثلا للسلطة في المجتمع في مجال المدرسة من ناحية أخرى-هو عرضة لمشاعر الحب والتقدير وانفعالات الثورة والكراهية التي يحملها الشاب

للكبار عادة، فهو-باستثناءات نادرة-يمثل المجتمع بكل تحكمه وتسلطه وإحباطه لرغبات الشاب، وكفه لإيجابيته وميله إلى المبادلة.

ومن هنا تأخذ العلاقة بين الشاب والمدرسة عادة شكلا صراعيا أو خلافيا على الأقل، يفتقر إلى الثقة ويتسم بالتوتر الحاد في أحيان كثيرة. فمن ناحية أولى، يلاحظ أن «الشاب» الذي تتعامل معه المدرسة والجامعة في العالم العربي هو تصور مجرد غير متحقق في الواقع. فهي تنظر الشباب كما لو كانوا مجموعة متجانسة لا تمايز فيها ولا تفرد، وتغفل بذلك اختلاف ملامحهم وخواصهم العضوية، وسماتهم العقلية والنفسية، وخبراتهم وتجاربهم الاجتماعية، وظروف حياتهم المادية وغير المادية. ومن ثم لا تلتفت إلى الفروق الهائلة أحيانا في استعداداتهم وقدراتهم، وميولهم ورغباتهم، وتطلعاتهم وطموحاتهم، وتغفل بالتالي معنى سلوكهم ودلالات تصرفاتهم.

وينطبق هذا بصفة خاصة على موقف نظام التعليم-والمدرسة باعتبارها ممثلة له-من أزمة الشباب والهموم والمخاوف التي تأتي بها للشخص، والقلق الذي يترتب على إخفاق أساليب التنظيم والتكيف القديمة، والعجز عن تقديم أساليب جديدة، هذا من جهة، ومن زيادة قدرات الجيل على استيعاب ما يقدم لهم من معارف وخبرات من ناحية أخرى (وسنعود إلى تفصيل هذه النقاط في الفقرات التالية من هذا الفصل).

وترتكب المدرسة خطأ جسيما حيث تتصور-وهكذا توحي نظمها وإجراءاتها-بأن عطاء تلاميذها العقلي-ومستوى الذكاء بصفة خاصة-هو أمر «معطى»-أي محدد سلفا-لا مسئولية لها بازائه، بل ولا حيلة لها معه. ذلك أنه إذا كان الذكاء يميل إلى الاقتراب من قمة نضجه حول سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة، فهناك دائما مجال للتعديل والترقي نتيجة لمرونة الكائن البشري حتى هذه السن يمكن أن تحققه بيئة تتوافر فيها عناصر الإثارة والثراء.

غير أن أخطر ما في الأمر هو تصور المدرسة والجامعة «للشاب المثالي». فهو ذلك الشخص الذي يبدي اهتماما بالدراسة وتفرغا لها وتقبلا لما فيها. وهو أيضا الذي يحترم «المسافة» بينه وبين أساتذته، ويبدى الطاعة لتوجيهاتهم والامتنان لهم. وهو كذلك، الشخص المهذب الذي لا يتسبب في

مشكلات مع الآخرين وبخاصة رفاقه من الطلبة. وهو، أخيرا، الشخص الذي يحافظ على المدرسة ومرافقها. وتستطيع المدرسة أن تتساهل في موضوع التفوق المدرسي، على أساس أن ذلك ليس في مقدور بعض الطلبة على الأقل، ولكنها لا تميل إلى التساهل في المواصفات الأخرى للشاب المثالي.

وبالطبع لا تضع المدرسة هذا التصور «للشاب المثالي» بصورة صريحة، ولكنها تصدر في تصرفاتها-وبخاصة جزاءاتها المختلفة-عن اقتناع بأنه هو التصور الذي يجسد القيم الشائعة في مجتمع الكبار، ويحقق مصلحته-أو مصالح الكبار بعبارة أدق-في الوقت نفسه.

وبعكس ما تقضي به الفلسفة التي تقوم عليها النظم التربوية في البلاد المتقدمة-والتي تتجه إلى تنمية إمكانات الفرد العضوية والنفسية والاجتماعية، فضلا عن ملكاته العقلية-تركز نظم التعليم في معظم البلاد العربية على الملكات العقلية وحدها. وحتى بالنسبة لها، يبدو أنها تحقق شيئا ذا قيمة، بالنظر إلى أنها تأخذها «كمعطاة» أو كملكات ثابتة لا تعد نفسها مسئولة عن تنميتها. ولهذا تحصر نفسها في حدود الأفكار التي سادت منذ أكثر من ثلاثة أرباع القرن في الدول المتقدمة، والتي تجاوزتها هذه الدول منذ عهد بعيد.

ومن ثم فما زالت مناهج التدريس والأنشطة المدرسية وأساليب تقييم الطلبة تتركز على المهارات العقلية، مع إغفال يكاد يكون تاما للنمو العضوي والارتقاء النفسي والاجتماعي. (ولا يرجع هذا الموقف من نظام التعليم في العالم العربي إلى نقص الإمكانيات في المحل الأول، وإنما يرجع إلى عدم مواكبة فلسفة التربية للتقدم والتطور).

والتباين بين تصور المدرسة «للنموذج المثالي» للشاب وبين تصور الشباب أنفسهم له واضح وخطير. فانه استجابة لمقتضيات أزمة الشباب، وتلبية للرغبات التي تلح خلالها، هذا من ناحية، ومعارضة لمجتمع الكبار وتمردا عليه من ناحية أخرى، تمثل ملامح النموذج المثالي للشاب في نظر الشباب النقيض-تقريبا-لتصور مجتمع الكبار له. فأكثر الشباب الذكور شعبية بين الطلبة في مستوى الدراسة الثانوية والجامعية-ليس هو المستغرق في الدراسة المتفوق فيها، فمثله يتهم بالامتثال لقيم الكبار والخنوع والسذاجة-وإنما هو

الشاب المتفوق رياضيا، الذي يستأثر باجتماعاته على حب رفاقه، المشارك في أنشطتهم-كالرحلات، والحفلات، وما إليها-المبرز فيها. أما أكثر الفتيات شعبية فهي الفتاة الجميلة، الأنيقة في مظهرها، المتقدمة في الأنشطة الفنية-الموسيقى وما إليها-، الاجتماعية، التي تشيع في نشاطات الشباب جوا من البهجة، والتي لا تتردد في البذل من وقتها للنشاط الاجتماعي في المدرسة وخارجها. وأكثر الطلبة والطالبات مدعاة للاحترام والتقدير، هو ذلك الشاب أو الفتاة-الذي يكون لديه من الشجاعة والجرأة ما يمكنه من معارضة المدرسين والمدرسة أو تحديهم-دون تهور ودون إسفاف ولا ابتذال-إذا تطلب الأمر ذلك، فيستطيع أن يجعل صوت الشباب مسموعا مؤثرا في صراعاتهم مع الكبار.

وبدلاً من أن تساعد المدرسة الشاب في حل مشكلاته، أو على الأقل بعض مشكلاته مع نفسه ومع أسرته-ومفروض فيها أن تفعل ذلك بحكم إمكانياتها من العلم والخبرة والتسهيلات المادية المتوافرة فيها-فإنها تضيف إليها جديدا. إذ يشكو معظم الشباب من أن بعض المواد تقدمها لهم المدرسة لا تأخذ في الاعتبار مشكلاتهم وهمومهم، ولا تلتقي مع اهتماماتهم وميولهم، ولا تتلاءم مع استعداداتهم وقدراتهم، ولا تساعدهم في فهم الواقع والتعامل الناجح مع الحياة. وذلك لاتجاهها المحافظ من جهة، وتخلفها عن إيقاع العصر وعدم اهتمامها بمسايرة ثورة العلم والتكنولوجيا من جهة ثانية، وللشكلية المرهقة التي تقدم بها من جهة ثالثة. وفي عدد من الدراسات التي أجريت على طلبة الجامعات والمعاهد العليا في مصر، رأت نسبة تزيد على نصف الطلبة أن كثيرا من محاضرتهم غير قادرين على المحاضرة بالطريق التي تمكنهم من استيعاب ما يقدم إليهم من معارف وتجارب. ومن ثم فانهم لا يستطيعون مقاومة الشعور القوي بالملل والتعب من المحاضرات، وعدم الميل إليها: بل والاهتمام بها.[4]

ويصور زكي نجيب محمود هذا الجانب في نظام التعليم العالي بقوله[5]: «ماذا أصابنا؟ آذننا إذا استثنينا فئة واعية من رجال الجامعات وشبابها، أحزنتنا كثرة غالبة منهم بما يغمرها من غيبوبة عقلية أو ما يشبه الغيبوبة، فقد حدث يوما لأستاذ صديق أبهظه حمل العبء الثقيل، حتى لينسى وهو يلقي محاضراته، أين يلقيها، فكان إن ألقى محاضرة على فرقة من الطلاب،

لم تكن مادتهم، فلا يسبقها عندهم سابق يربطونها به، ومع ذلك لم ينتبه طالب واحد إلى هذه الواقعة الصارخة، وهي أن الحديث الملقى لا يتسق مع المحاضرات السابقة عند هذا الأستاذ. ولم ينتبه إلى ذلك إلا الأستاذ نفسه بعد أن عاد إلى داره من يوم طويل».

ويضيف «فإذا كانت الغيبوبة العقلية قد بلغت عند طلابنا هذا المدى، فهل يحق لنا بعد ذلك أن نطمع في صحوة نقدية لا تكتفي بأن تعي ما يقال، بل تجاوز حدود الوعي المتقبل إلى مرحلة تليها، يكون فيها التحليل والهضم والإبداع».

ويتساءل: «إننا اليوم من جامعاتنا في مكنة ضخمة تدور بنا طواحينها، فندوخ بفعل دورانها، فلا العين عندئذ تبصر في صفاء، ولا السمع ينصت في وضوح، فهل يأخذنا العجب بعد كل هذا إذا رأينا الجموع من طلابنا منجرفة في تيار من اللاعقل يغمرها، حتى ليقال لنا اليوم أن العلم تضليل؟».

لقد أصبحت هيئات التدريس في عدد من الجامعات والمستويات المسئولة في مراكز البحوث تضم أعدادا متزايدة من حاملي اللافتات العلمية، أولئك الذين يحصلون على أعلى الإجازات العلمية لا ليتحول العلم لديهم إلى قيم وضمير وسلوك وإنما ليكون أداة للكسب وطريقا يوصلهم إلى أخطر مراكز المسئولية. وهكذا تحول العلم-كما يقول البعض-إلى عملة زائفة غير قابلة للصرف: من الناحية الاجتماعية. فمأساة المجتمع العربي في هذا المجال أنه ينتج حرفيين بدون وعي اجتماعي ولا شعور قوي بالمسئولية، يعيشون في مجتمعات تشيع فيها الأمية لا تستفيد منهم وان كانوا هم يستفيدون.

وعلى سبيل المثال تخلو البرامج وبسبب اتجاهها المحافظ، تخلو البرامج الدراسية من أي تحليل أو مناقشة جادة لحقائق الجنس. ومن هنا يجد الشاب نفسه في حيرة شديدة. فالموضوع يشغله ويرهق عقله بالأسئلة وجسمه ونفسه بالرغبات، في حين يسدل عليه كل من البيت والمدرسة ستارا كثيفا من الصمت أو التزييف أحيانا، ولا يبقى للشاب غير وسائل الإعلان التافهة، والترويح التجاري الرخيص، أو كتب أو أفلام الإثارة الجنسية.

وفي حين يؤرق الشباب «التفكير المستمر في الأمور الجنسية» ويزعج بعضهم «عدم القدرة على التحكم في الدوافع الجنسية»، و «التفكير المتصل

في الجنس الآخر»، ويشغلهم بل ويهمهم نقص معلوماتهم عن «طبيعة النمو الجنسي السوي» وبعض ألوان عدم سوائه(و«الأمراض التناسلية» بصورة خاصة)، يلاحظون أن برامج الدراسة لا توفر لهم أية ثقافة جنسية، ومن هنا يتكون لديهم، أو لدى بعضهم، انطباع ملح بأن المجتمع ليس فقط غير آبه بمشكلاتهم، وإنما هو فوق ذلك منافق، لا يتفق فيه مظهر الكبار «المتعفف» من مسلكهم «المسف» في أحيان كثيرة.

ومن ناحية أخرى، تعجز معظم المعارف التي تقدمها المدرسة للشباب عن متابعة التطور العلمي والتكنولوجي. وما زالت اغلب البرامج تلقن الشباب معلومات أعفى عليها الزمن وخبرات لا تصلح للتطبيق العملي في واقع سريع التغير. فمواد التعليم العام لا تربط الشاب بالأحداث التي يزخر بها عالمه المعاصر، وإنما تقدم له واقعا انقضى ولم تعد له خبرة مباشرة به، وتصر على أن تسحبه من اللحظة الراهنة بحيويتها وحرارتها، وتقدم له عالما جامدا لا حياة فيه. وبرامج التدريب الخاص-المهني بعبارة أخرى-تزود الشاب بخبرات من النادر أن تلتقي مع الطلب الاجتماعي، وإذا التقت معه، فهي هزيلة شكلية إلى حد بعيد.

ولقد أصبحت القيم الأساسية في الحياة: الديمقراطية، والحرية،والمساواة، وما إليها، مجرد شعارات ترفع ومعلومات تلقن لتحفظ، لا تتفق في مضمونها ولا في جوهرها مع الممارسات اليومية، سواء في علاقات الشباب بالمدرسة كمؤسسة أو بالمدرسين أو رفاق الدراسة.

وانتهت عملية تدريس المواد القومية، والتي قصد منها نوعية الشباب بتاريخ مجتمعاتهم وزيادة إحساسهم بمشكلات بلادهم الراهنة، ورفع مستوى تطلعاتهم في المستقبل، إلى فشل شبه تام. فقد أرهق الطلبة بمواد تافهة يقدمها محاضرون غير متخصصين ليس لهم هم سوى الاستفادة المادية، فضاع كل جهدهم-أو معظمه على الأقل-في الصراع على حق تدريس المواد، وفي نشر كتب يكلف الطلاب بشرائها، ولا يهم أن يقرءوها.

وفضلا عما يتحمله الشاب من مشقة ومعاناة في الدراسة، يعيش عدد منهم في هم وقلق حقيقيين من أنهم قد يضطرون إلى العمل في مجال غير الذي أعدوا له-أي أن نظام التعليم لا يؤهلهم لما سيتاح لهم من فرص العمل. (بل إن عددا منهم يخشون أن يواجهوا البطالة-لبعض الوقت على

الأقل-بعد تخرجهم. وإذا كان الخوف من البطالة بعد سنوات طويلة من الدراسة-وهو من الأحلام المزعجة التي تؤرق الشباب في عدد من الدول. أمرا غير وارد بالنسبة للشباب في عدد من الدول العربية الغنية-التي تتوافر فيها من فرص العمل فوق ما يوجد من الكوادر المدربة-فان القلق على ألا يجد الشاب عملا مناسبا في مجال تخصصه أو من النوع الذي يرضي طموحه وتطلعاته ويتفق مع ميوله واستعداداته أمر شائع بين الشباب في معظم البلاد العربية).

إلا أن الأمر ليس قاصرا على عدم ملاءمة الأعداد الذي توفره المدرسة للشاب-سواء من حيث نوعيته ومستواه-لاحتياجات المجتمع أو فرص العمل المتاحة، وإنما يتعداه إلى أن كثيرا من الشباب لا يجدون من يوجههم الوجهة السليمة التي تتفق مع استعداداتهم وقدراتهم، وترضي ميولهم وطموحاتهم في الوقت نفسه، وتلتقي مع الاحتياجات الاجتماعية من جهة أخرى. ولقد أصبح «توزيع» الشباب على الكليات الجامعية ومعاهد التعليم العالي المختلفة وبين الأقسام المختلفة داخل الكلية الواحدة بحسب مجموع الدرجات في امتحان إتمام المرحلة الثانوية، لا بحسب ميولهم وقدراتهم، ينطوي على مآسي ومهازل أخطر من أن نستمر في السكوت عليها.

وتأتي بعد هذا الشكوى المرة أو المعاناة الحقيقية من هبوط مستوى الخدمة التعليمية نتيجة لقصور إمكانيات المدرسة-والجامعة-فتكدس عشرات الطلبة في الفصول المدرسية والآلاف منهم في مدرجات الجامعة أصبح أمرا شائعا ومألوفا. ولم يعد من النادر ألا يجد الشاب مكانا في قاعة الدرس يجلس فيه، بل ويحدث في بعض الأحيان ألا يستطيع الشاب أن يوجد في مكان قريب من المحاضر يسمح له بسماعه دون تشويش.

وبدلاً من أن تربط المدرسة الشاب بالحياة: تساعده في كشف أسرارها وفهم واقعها، وتوفر له خبرات كافية في التعامل الناجح معها، فإنها تعزله عنها. وتفعل ذلك في بعض الأحيان بشيء من القصد والعمد. وحين يحس الشباب بانفصال ما تقدمه المدرسة لهم عن الواقع وبعدم جدواه، فانهم لا يجدون في أنفسهم حماسا له ولا يبدون تجاوبا معه.

ولقد اختفت من المدرسة والجامعة-أو كادت-المعامل والتجهيزات المعملية التي توفر للشاب فرص التجريب والتدريب العملي، ومرافق النشاط الثقافي

كالمكتبة والمسرح، وفرص ممارسة الهوايات الراقية كالموسيقى والخطابة وغيرها، والملاعب الرياضية وما إليها، ولم تعد معظم المدارس والجامعات تزيد كثيرا على كونها عددا من حجرات للدرس تضيق عن شاغليها حتى لتعجز عن توفير الحد الأدنى من الكفاءة الفيزيقية. فماذا توفر مكتبة المدرسة-إن وجدت-الآن لتساعد الطالب في زيادة حصيلته من المعارف والمعلومات، وترضى ميله إلى قراءة قصص المغامرات والاختراعات، وتقدم إليه المشاهير من الرجال والنساء الذين أثروا الحياة الإنسانية في مجالات العلم والتكنولوجيا والفن، وتصحبه في رحلات حول العالم تقدم إليه المجهول منه، وتعرفه إلى «الغريب» فيه، وترضى خياله الملتهب؟ وماذا تقدم له من إجابات على الأسئلة التي تلح عليه؟

إن مناظر الشباب في بعض البلاد العربية ينصبون ملاعب الكرة في شوارع الأحياء السكنية، يقلقون بها المرضى ومن يطلبون الراحة، ويعترضون بها سير المواصلات أو يربكونه أو يتسكعون في الشوارع وعلى نواصيها يعاكسون الفتيات والإناث بعامة ويزعجون الجميع، أو يهربون من المدرسة إلى حيث يجدون متنفسا لرغباتهم وحاجاتهم الطبيعية، أو يتزاحمون أمام شبابيك سينما الجنس الرخيص أو العنف المدمر، ليست شواهد على فساد الشباب، وإنما هي أدلة على ضياعهم في مجتمع لا يوفر لهم الحد الأدنى من فرص إشباع رغباتهم، أو حتى تلبية بعض الملح من حاجاتهم.

ونظن أن قليلا فقط من المدارس والجامعات العربية تستطيع أو حتى يهمها، تطوير أساليب التدريس بالاستفادة من الثورة الهائلة التي تحققت في مجال الوسائل السمعية والبصرية ويسرت العملية التعليمية، بل وجعلتها في بعض الأحيان نوعا من النشاط المحبب.

وحتى «النزول إلى البيئة والاتصال المباشر بالطبيعة»-وكانا من الإجراءات الشائعة في مدارسنا وجامعاتنا في عهود سابقة-قد تضاءلا، ويميلان إلى الاختفاء حتى ليزداد الطالب بعدا عن الواقع الاجتماعي والمادي يوما بعد يوم، ويستسلم لكثير من الأفكار الجامدة والتعميمات الخاطئة عنه.

وهذا الابتعاد الكبير غير المعقول عن الواقع الاجتماعي وعن الطبيعة يكرس-صراحة أو ضمنا-فصلا حادا بين العمل العقلي أو الذهني والعمل اليدوي، مع ميل إلى التقليل من شأن العمل اليدوي وربما تحقيره. وتكشف

دراسات عديدة عن أن تقدير الشباب في المدارس والجامعات العربية للعمل اليدوي وحتى العمل الذي يتطلب اتصالا بالواقع والطبيعة وتعاملا معهما أقل بشكل واضح من تقديرهم للعمل «الإشرافي» أو العمل المكتبي والعمل «العقلي» الخالص.

وبهذا يكرس نشاط الشباب في مجال عمله بعد استكمال التعليم التعالي على الواقع، والفصل بين النظرية والتطبيق، والجدب، وتسطح التجربة التي أدت إليها سنوات دراسة طويلة عقيمة، ويعمل على تعميق أزمته مع الحياة بدلا من الإسهام في حلها أو حتى تخفيف حدتها.

ولقد أصبح الكتاب المدرسي والجامعي مأساة علمية وأخلاقية كبرى، فتخلفه عن نبض العصر واضح، وهبوط مستواه مؤسف، وإخراجه خال من أي مساحة جمالية. وحتى بمستواه الهابط هذا، لم يعد يتاح للطلبة في وقت ملائم من السنة الدراسية يمكنهم من الاستفادة منه بدرجة معقولة.

ولم تستجب المدرسة ولا الجامعة في العالم العربي إلى اتجاه-ظهر منذ عهد بعيد وبدأت آثاره تنعكس في نظام التعليم في معظم الدول المتقدمة-نحو إعادة النظر في التقسيمات التقليدية للعلوم وتعديلها بتقديم تخصصات جديدة، وإدماج تخصصات قديمة بعضها مع البعض الآخر، وتخفيف الفواصل بين تخصصات وتخصصات أخرى. ولم يعد هذا قاصرا على التخصصات داخل كل من مجموعات العلوم الكبيرة-العلوم الطبيعية، والعلوم الاجتماعية، والإنسانيات، وما إليها، وإنما هو امتد ليشمل التخصصات بين المجموعات المختلفة. وعلى سبيل المثال، يرتبط علم النفس أكثر فأكثر بالفسيولوجيا من جهة، والرياضيات من جهة أخرى، فضلا عن ارتباطه القديم بسائر العلوم الاجتماعية الأخرى، وبخاصة الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع. وبدلا من أن تستوعب المدارس والجامعات-العربية معنى هذا التطور الخطير وتسير فيه، فإنها ببرامجها التقليدية تكرس الوضع القديم وتدعمه.

ومن ثم انتهى نظام التعليم فيها إلى وضع مؤسف. «فأولا، طريقة التعليم عندنا قديمة ومستهلكة لا تمتحن في الطالب إلا قدرته على الحفظ، أي في مجمله اختبار للذاكرة، والذاكرة ما هي إلا خاصية واحدة من خواص العقل الكثيرة جدا. وثانيا، نحن نسير على نظم امتحانيه واختباريه إرهابية

تركها العالم الحديث كله وأصبحت فيه مدارس جديدة وتطوير هائل، وتغيير التعليم من وسيلة لملء عقل الطالب بأكبر كم من المعلومات والأرقام إلى نظام يعلم الإنسان وينمي فيه القدرة على الخلق والابتكار، أي القدرة على استعمال المعلومات التي لم تعد في حاجة لحفظها صم، فهي موجودة في الكتب وفي أرشيف العقول الإلكترونية والميكرو أفلام. الإلكترونية المتعلم كما يجب أن يكون الإلكترونية المتعلم أصبح هو ذلك القادر على ابتكار الحلول للمشاكل. ونظم التعليم في معظم أنحاء العالم تغير هدفها من تخريج آلات حفظ صماء إلى تخريج مبتكرين ومخترعين.. وباختصار أناس يقومون بأشياء غير الوظائف التي يمكن أن يقوم بها أي إنسان آلي وأي ماكينة حاسبة». [6]

أما الامتحانات، وهي وسيلة المدرسة والجامعة لتقدير مدى استيعاب الطالب لما يقدم له من معارف وخبرات فإنها، على حد قول فؤاد ذكريا، «تمثل طقسا من الطقوس العجيبة الإنسان تجمع على نحو يبعث على الدهشة بين جو الرهبة الشديدة والهزل المفرط. أما الرهبة فتتمثل في جو الرعب الذي يحيط بكل امتحان، وتوتر الأعصاب وانهيارها... وأما الهزل، فيتجلى في عدم الجدية التي تؤخذ بها عملية الامتحان، إذ يشتد من جهة التهاون (والذاتية) من المصححين... وتنتشر من جهة أخرى فنون الغش في جميع مراحل التعليم». [7]

ولسنا نجد داعيا لسرد تفاصيل كثيرة، نعتقد أنها لا تخفى على أحد، ونكتفي بأن نلخص فكرنا في الموضوع في النقطتين التاليتين:

أولا: تلعب اعتبارات غير أكاديمية-وغير موضوعية-عديدة دورا هاما في تقدير الأساتذة لتحصيل الطلبة، وربما كان دورها أخطر من دور الاعتبارات الأكاديمية.

ثانيا: وفي صورها السوية ترجع الاعتبارات غير الأكاديمية إلى اتجاهات الأساتذة نحو الطلبة ووجهات نظرهم فيهم وعلاقاتهم بهم: بعض الأساتذة عطوفون متساهلون، وبعضهم متشددون متزمتون وبعض ثالث منهم يسلك سلوكا وسطا وينعكس هذا في وضع أسئلة الامتحانات وفي تقييم الطلبة.

وعلى حد قول يوسف إدريس: «إلى أين وصلنا (في موضوع الامتحانات؟)» «لقد أصبحت القيمة التربوية الوحيدة المتفق عليها في مجتمعنا لنجاح

التربية أو فشلها، لنجاح الشاب أو الفتاة أو فشلهما، هي موقفه في الثانوية العامة، وبالضبط مجموعه». فليفعل الولد أو البنت أي شيء مادام سيأتي بمجموع هائل في الثانوية العامة، إذ أن ذلك المجموع لن يحدد رجولته وقيمه وأخلاقه ومثله العليا فقط، ولكنه أيضا سيرى المجتمع وعلى الفور إن كان فلان قد نجح في تربية ابنه أو أولاده أو فشل. «أي وضع خطير صرنا إليه». «أن ينتهي المجتمع إلى أن القيمة الوحيدة الرفيعة القيمة فيه أو التي تحدد درجةصاحبها: ليس فقد من النبوغ ولكن أيضا من السلوك ومن الأخلاق، هي مجموعه في الثانوية العامة أو فشله فيها ...».

«تصوروا الكارثة، أن يصبح هذا المقياس... هو المقياس (التربوي) الوحيد في حياتنا. إذا اجتازه الولد أو البنت بنجاح فهو الملك أو الملكة قد توجا ونالا على أداء هذا الواجب البسيط، أبسط الواجبات في حياة حافلة مقبلة، نالا عليه كل ما تستطيع العائلة والمجتمع من حولهما سنحه وبأقصى ما يستطيعون من سخاء، وإذا فشل، وفي أغلب الأحوال لا يكون السبب (فساده) بقدر ما يكون مشاكل نفسية بينه وبين والديه أو بينه وبين المجتمع لم يستطع حلها، إذا فشل لأنه ثار بلا وعيه على كرابيج الأوامر بالمذاكرة التي تنهال عليه حتى من البقال والبواب، إذا فشل لأي سبب من الأسباب، فقد حدثت الكارثة الرهيبة وارتكب (السقوط) الأعظم، وسقط من غربال الحياة. طبعا لا أحد يقول له هذا، بل الجميع يحاولون مواساته في جنازة نفسه، ولكنه بحساسيته الإنسانية البسيطة، يدرك من خلال العيون والنظارات، وأحيانا، الهمس الذي لا يسمعه، يدرك أنه (خاب) وأنه حثالة بشرية، وان لا فائدة، وأن وأن وأن». (8)

ويتحمل الآباء والأبناء ثمن هذه المأساة الملهاة: الآباء من كدهم وتعبهم لتوفير مقابل دروس خصوصية باهظة التكلفة أصبحت-بكل أسف وأسى- جزءا لا يتجزأ من العملية التعليمية والأبناء من أعصابهم في صورة معاناة وقلق دون عائد حقيقي سوى اجتياز الامتحان.

ويزيد من تعقيد الموقف أن عددا من الشباب يقعون ضحايا التفاوت الواضح بين تطلعات أسرهم وما تتوقعه منهم وبين ما يمكن إن تؤهلهم قدراتهم واستعداداتهم وظروفهم وإمكانيات المدرسة لتحقيقه فعلا. وقد يصل الخوف من الفشل في تحقيق طموحات الأهل وما ينتج من إحباط

حقيقي لهم، إلى حد القلق أو الهم لدى الشباب، يتحول هو ذاته إلى عامل من عوامل الفشل الفعلي.

وبالإضافة إلى هذا كله، لا تقدم المدرسة شيئا هاما لحل مشكلات الارتقاء النفسي والاجتماعي للشباب. ومن ثم فليس غريبا ما كشفت عنه إحدى الدراسات من أن نسبة كبيرة من الفتيات (6ر41) من العينة التي غطتها، ذكرن إنهن لا يجدن في المدرسة العون في حل مشكلات التوافق التي تواجههن، ومن ثم يرفضن طرحها للمناقشة على المدرسات والمشرفات. ويفسر هؤلاء موقفهن هذا بثلاثة أمور [9]:

أولها، أنهن يخشين ألا تظل شئونهن الخاصة سرا بينهن وبين من تعاونهن. فحتى إذا لم تحل «المشكلات» في «طابور الصباح» فإنهن يخشين من أن تصبح أسرارهن مادة لحديث بين «المرشدة أو المدرسة وبين الأهل أو مجتمع المدرسة». تقول فتاة: «لا أثق في أي مدرسة، فهن يسخرن ولا يعالجن المشاكل إلا بعد السخرية والاستهزاء. وحتى المشرفة الاجتماعية لن تحافظ على السر».

والثاني، إنهن لا يعتقدن أن في المدرسة من هو على استعداد لان يقبلهن على ما هن عليه-دون أن يستحسن أو يستهجن أي جانب من جوانب شخصياتهن أو سلوكهن-أي من يقبلهن دون تقييم-سلبي أساسا. «لا أحب أن أتكلم في مشكلاتي الخاصة في المدرسة، لان من نشكو إليهم ينظرون إلينا نظرة احتقار» على حد قول فتاة.

والأخير، إنهن يملن إلى الشك في وجود من يفهمهن على حقيقتهن، من يستمع إليهن باهتمام صادق، ولا يحاول أن يراهن من خلال مفاهيم لا تناسب ظروفهن الخاصة أو العامة، ويعطيهن انطباعا بأنه لا توجد هوة في استيعاب كل من الطرفين لأخطاء الطرف الآخر وتصوراته.

ومن ثم تأتي المدرسات في المرتبة الثالثة متخلفات كثيرا عن الصديقات (في المرتبة الأولى) والأمهات (في المرتبة الثانية) في اختيار الفتيات لمن يطمئن إليه لمناقشة مشكلاتهن وحلها. وتسبق الصديقات الأمهات لا لأنهن أكثر خبرة في الحياة، ومن ثم أقدر على تقديم حلول ناضجة للمشكلات، ولكن لأنهن اقدر على فهم الفتيات وتقبلهن على علاتهن بحكم أنهن يشتركن في الأزمة والمعاناة وزاوية الرؤية.

ولهذا كله يضع الشباب المدرسة-والجامعة-في قفص الاتهام. وهم حين يثورون عليها-ينتقدون ما تقدمه لهم أو يرفضون بعض الأساليب التي يعاملون بها فيها-فانهم لا يرفضون التعليم في حد ذاته، وإنما هم يرفضونه في الصيغة التي يقدم بها والظروف التي يقدم فيها.

فهم من ناحية أولى، لا يرونه فرصة لنمو فسيولوجي واجتماعي أو نضج الشخصية واكتساب مهارات وخبرات تساعد في التعامل مع الواقع والحياة بنجاح، وإنما هم-على العكس من ذلك-يجدون فيه كفا لنموهم، وتعطيلا لنضج شخصياتهم، واتجاها نحو صبهم في «قوالب»، وهي عملية لا تخدم مصالحهم وإنما تخدم مصالح الكبار مهما حسنت إلية وخلص القصد.

وهم، من ناحية ثانية، يجدون أن ما يقدم لهم لا يلتقي مع استعداداتهم وقدراتهم، وإنما يتعارض معها.

ومن ناحية ثالثة، هم يأخذون على برامج التعليم أنها لا تطرح الواقع للمناقشة، بل ولا للتحليل الأمين، وإنما هي-في حرصها على حمايته والدفاع عنه لكل عيوبه ونقائصه-تحظر مناقشته وتصادر حرية نقده. فالمفروض في نظام التعليم أن يساعد الدارسين على مناقشة النظام القائم ونقده وتطويره، لا تربيتهم على الاستسلام له وقبوله قبولا أعمى. ومن ثم فحين يطالب نظام التعليم-صراحة أو ضمنا-بقبول نظم أعفى عليها الزمن وتجاوزت مرحلة صلاحيتها، فانه يخلق هوة بينه وبين الدارسين.

ومن ناحية أخيرة، تكرس المؤسسات التعليمية معظم جهودها لتوفير أدوات التحكم في الحاضر، وحل مشكلات التطبيق المختلفة، دون مناقشة الأهداف القريبة أو البعيدة. فهي لا تكتفي بمصادرة حق مناقشة الواقع، وإنما تحرص على ألا يكون مفهوما.

وهنا يثور سؤال هام، من تخدم الجامعة؟ هل هو المجتمع؟ أم هو الطلبة؟ أو المجتمع والطلبة معا؟ الجامعة نفسها لا تعرف الإجابة، وسياستها توحي بإجابات متناقضة. المفروض في الجامعة أن تتحرر من كل قيد خارجي، إلا التزامها الاجتماعي العام، فلا تكون أداة في يد السلطة، ولا تسير وفق سياسة ديماجوجية تتملق بعض العناصر الطلابية. ثم ما هي التقاليد التي تحاول الجامعة أن تبقيها وتحميها بالنسبة للمعرفة، والأساتذة، والطلبة،

والعلاقة بينهم، ودورها في المجتمع؟

ويجد المتأمل من الشباب تحفظات جوهرية عديدة على السياسة التعليمية. فثمة مؤشرات عديدة على أن تصريف شئون التعليم في بعض من بلادنا يسير بغير مراعاة لاحتياجات مجتمعاتنا، بل وبغير هدف سوى استيعاب كل المتقدمين له، إذا جاز أن يعتبر هذا هدفا على الإطلاق.

ففي الوقت الذي تفوق نسبة الملتحقين بالتعليم العالي إلى عدد السكان في مصر نظيرتها في المملكة المتحدة، مثلا، ما زالت مصر تعاني من أمية حوالي ثلاثة أخماس سكانها، في حين قضت المملكة المتحدة على الأمية منذ أمد بعيد.

ومن ناحية ثانية، تخرج الجامعات العربية عشرات الآلاف من القانونيين، والتجاريين، وغيرهم، ممن لا توجد حاجة ماسة إلى تخصصاتهم، في حين تعاني المدارس من عجز في هيئات التدريس وبخاصة اللغات-يبلغ عشرات الالوف أيضا.

ومن ناحية ثالثة تتحمل بعض الدول العربية تكاليف باهظة في أعداد مهندسين لا يحتاج سوق العمل إلا لعدد قليل منهم، في حين يهمل أعداد مساعدي المهندسين والعمال ذوى المهارة المالية ممن توجد حاجة ماسة إلى أعداد كبيرة منهم.

وليس أدل على المستوى المغلق الذي وصلت إليه أمور التعليم العالي في عدد من البلاد العربية من أن قضية أهداف التعليم غير مطروحة أصلا، وأن قليلين فقد من المسئولين عنه يدركون دلالة الخلاف بين دعاة «الأكاديمية»-أو اتجاه الجامعة إلى تنمية المعرفة الإنسانية بالبحث، ونشرها بالتعليم-مع التركيز على خلق فكر حر خلاق قادر على فهم الواقع والتعامل معه بدون ارتباط مباشر بالاعتبارات التطبيقية-ودعاة «الوظيفية» الذين يصرون على أن يتجه التعليم لأعداد الدارسين للقيام بأعمال ومسئوليات ذات مردود مباشر للمجتمع.

وبصفة عامة، يوجد إحساس بين الشباب بعدم جدوى التعليم الجامعي بصفة خاصة-أو بقلة جدواه على الأقل-وبأن ما يشغل الشاب فيه لا يصح أن يتعدى الحصول على الإجازة (الشهادة).

ومن هنا يأتي عدم الجدي الذي يبديه الكثيرون نحو أعباء الدراسة

وعدم ترددهم في الاستعانة بأساليب وإجراءات غير أخلاقية-كالغش مثلا للحصول على «الإجازة».

وماذا عن «مناخ» النشاط والعلاقات الاجتماعية في الجامعات العربية؟ ليس ثمة دراسات كافية في الموضوع، ولكن دراسة نادرة عن تأثير اختلاف النظم الجامعية ومناخ الدراسة في التوافق الدراسي للطلبة [10] قارنت آراء مجموعة من طلبة الجامعة الأردنية بعمان بآراء مجموعة من طلبة جامعة عين شمس بالقاهرة (العلاقة بالزملاء، والعلاقة بالأساتذة، وأوجه النشاط الاجتماعي، والاتجاه نحو مواد دراسة، وتنظيم الوقت، وطريقة الاستذكار).

وتدل نتائج الدراسة على أن طلبة الجامعة الأردنية أكثر توافقا-أكثر قدرة على الحب الذي يتسم بالبذل والعطاء، وعلى الإنتاجية أي القدرة على العمل المثمر-من طلبة جامعة عين شمس، وأن الإناث أكثر توافقا من الذكور.

ويرد الباحث هذه النتيجة الهامة إلى اعتبارات ثلاثة:

أولها، أن الأساتذة في الجامعة الأردنية يعطون للطلبة من الوقت والاهتمام اكثر مما يفعل الأساتذة في جامعة عين شمس. ففي حين أن نسبة الأساتذة للطلبة في الحالة الأولى ١- ١5، فإنها ١- 50 في الحالة الأخرى. فضلا عن أن أساتذة الجامعة الأردنية متفرغون للعمل بالجامعة، على عكس أساتذة جامعة عين شمس.

ثانيا، أن نشاط الطلبة في الجامعة الأردنية اكثر تلقائية، وأوسع وأعمق، ويتم في جو من الحرية أكثر مما يحدث في جامعة عين شمس-حيث لا يعبر النشاط الطلابي عن احتياجات الطلبة ورغباتهم تعبيرا قويا، وحيث تتدخل الجامعة في خلق منظماتهم وتوجه عملها.

والأخير، أن الانتقاء يلعب في حالة القبول للجامعة الأردنية دورا أهم من ذلك الذي يلعبه في حالة جامعة عين شمس. فالطلبة في الحالة الأولى هم بمعنى ما «مجموعة منتقاة».

فتجربة التعليم الرسمي-في المدرسة-إذن تنطوي للشاب على شيء كثير من القلق والخوف-الخوف من إدارة المدرسة والمدرسين، والخوف من رفاق الدراسة، والخوف من الإخفاق في الامتحانات الحاسمة، بل والخوف من الفشل في المستقبل.

ثالثا

وفضلا عن هذا كله، يأخذ جيل الشباب على نظام التعليم جوانب قصور عديدة أخرى، يعتقدون أنهم أول من يعاني منها ويدفع من مستقبله ثمنها.

فالتعليم في العالم العربي، وبالرغم من التطورات الهائلة التي طرأت عليه ويسرت فرصا متساوية منه لمختلف فئات الشعب، ما زال «طبقيا» بمعنى ما، أي أن حظ الشاب منه يكون أوفر كلما ارتفع مستواه الاجتماعي الاقتصادي. فالمساواة التي تنص عليها قوانين التعليم ونظمه ما زالت «نظرية»، وما زال الواقع مختلفا عنها إلى حد كبير. وتسرب الطلبة من مراحل الدراسة المختلفة-سواء لنعجز عن تحمل تكاليف التعليم أو لقصور القدرات عن الوفاء باحتياجات الدراسة في مستويات أعلى-ترتبط ارتباطا عكسيا بالمستوى الاجتماعي الاقتصادي للشاب: فالذين لا يتابعون التعليم حتى نهاية مراحله العليا هم عادة من الطبقة الدنيا. وهذا ليس من قبيل الصدفة. ولقد أشرنا إلى مشكلة التكلفة الباهظة للتعليم-حتى «المجاني» منه-في عدد من الدول العربية.

ومن ناحية ثانية، يختلف مستوى الخدمات التعليمية باختلاف المناطق الجغرافية داخل البلد الواحد: فهي في المناطق الحضرية افضل بشكل واضح مما هي عليه في المناطق الريفية أو البدوية، وفي المدن الكبرى تفوق نظيرتها في المدن الصغرى، وفي العاصمة أفضل عادة منها في أي مكان آخر. بل إنها تختلف داخل العاصمة باختلاف المستوى الاجتماعي الاقتصادي للأحياء. ونقصد بالخدمات التعليمية هنا قدرة المدارس على استيعاب الراغبين في الالتحاق بها، وكفاية المرافق المدرسية-الفصول الدراسية والمعامل، والتجهيزات الأخرى، ومعدل المدرسين للطلبة، ومستوى كفاءة المدرسين. (ومن الطريف أن من أساليب العقاب نقل المدرس إلى منطقة ريفية أو نائية، كما إن أساليب الثواب نقل المدرس إلى المدن الكبرى والعاصمة على وجه الخصوص).

أما النقطة الثالثة، فهي تحيز نظام التعليم ضد المرأة. وقد يبدو في هذا القول افتراء وتجنيا، ولكن الحقيقة-التي تدعمها الشواهد الموضوعية-هي أن نظام التعليم يقدم للذكور عديداً من الحوافز على مواصلة التعليم،

في حين ينطوي على كثير من المثبطات والإحباط للفتاة.

وينعكس هذا بصفة خاصة في نسب الإناث في مراحل التعليم المختلفة، وهي أقل من نسب الذكور عادة بفارق كبير يزداد حجمه كلما ارتقينا في مستويات التعليم. وفي بعض الجامعات العربية لا تكاد نسبة الإناث إلى الذكور تصل إلى عشرة في المائة.

قد يقال أن نظام التعليم ليس فيه ما يمنع من تعليم الفتاة، بل ولا يعطي الفتى فرصا أفضل مما يعطى لها. ومن ذلك غير صحيح. ففضلا عن أن الآباء لا يجدون حماسا ولا داعيا لتعليم البنت-حتى أولئك الذين يضحون بكل شيء تقريبا من أجل أن يحصل الفتى على تعليم عال-فان المدرسة العربية تنشر أيديولوجية أن المكان الطبيعي للمرأة-حتى إذا تعلمت-هو البيت، على أساس أن أسمى وظائفها هما الزوجية والأمومة. وفي كثير من المجالات تتردد بعض المدارس والكليات في قبول الفتيات، اللاتي تخصص لهن معاهد تعدهن لعدد من الوظائف التقليدية كالتدريس، والتمريض، والحرف الأخرى مثل التطريز وغيره من الفنون النسوية.

أما النقطة الأخيرة، فانه بعكس الدول المتقدمة والتي انبثقت قيمها ومعاييرها ونظمها وقوانينها تلقائيا من تجارب تقدمها الاقتصادي والعلمي والتكنولوجي وتطورها الاجتماعي، فان الدول العربية-والدول النامية بصفة عامة-تعيش في أقصر نوع من«التبعية الحضارية»، فهي تنقل نتائج تجارب الدول المتقدمة دون أن تعاني التجارب ذاتها، فيأتي ما تقتبسه غير ملائم لها وفي بعض الأحيان ضارا بها، ومعظمه مما تجاوزته الدول المتقدمة في تطورها.

ومن ثم فان من اخطر عيوب نظم التعليم في بلادنا-وهي نظم يتحكم فيها صفوات بيروقراطية جامدة-إنها لا تستطيع أن تنظر إلى ابعد من الحاضر فهي عاجزة عن تأمل التغيرات المستقبلية لمجتمعاتنا، فضلا عن تكييف نفسها لتلائم احتياجات هذه التحولات. ومن ثم فهي تقذف بالشاب في مستقبل لا يفهمه ولا يكون على استعداد للتعامل معه، فيعيش في رعب منه، تتراكم في نفسه مشاعر القلق منه والكراهية له.

ومما يستحق الإشارة إليه حقا أن رجال العلم عندنا-أو معظمهم على الأقل-لا يرون في نظام التعليم قصورا خطيرا، ويعتقدون أن الجيل الجديد

يلقى من العناية التعليمية ما يطمئن إليه، وأن التعليم يسير قدما ويحقق نتائج مشرفة، وان كان بعضهم يأخذ عليه انه لا يهتم بكل أبعاد الشخصية.

ويعاني جهاز التعليم في معظم البلاد العربية من وضع قل أن يوجد فيه نظام التعليم في بلد آخر في العالم. وذلك لأنه بالنظر إلى التوسع السريع الهائل في توفير الخدمات التعليمية على مختلف المستويات من المرحلة الأساسية حتى الجامعة، وأمام ندرة الكوادر الوطنية المدربة وعدم كفايتها بالقياس إلى الطلب، ولأسباب أخرى، تضطر معظم الدول العربية إلى الاعتماد على مدرسين وافدين يأتون إليها من الخارج، من دول عربية أخرى، وبعضهم من دول غير عربية.

وعلى الرغم مما ينطوي عليه الأمر من توفير نسبي في تكاليف الخدمات التعليمية، على أساس أن الدول المستقبلة للفنيين لا تتحمل تكاليف أعدادهم وتعطيهم رواتب لا تزيد إلا في حالات نادرة عما تعطيه للكوادر الوطنية، فان ثمة تحفظات عديدة على التوسع في الاعتماد على الخبرة الوافدة، والاعتماد عليها لأمد طويل. فمن ناحية أولى، يقف اختلاف اللغة أو اللهجات داخل اللغة الواحدة حاجزا قويا في بعض الحالات دون تفاهم سهل مثمر بين الأساتذة والدارسين.

ومن ناحية ثانية، يمثل عدم دراية الأساتذة الوافدين بالواقع الحضاري المحلي أو درايتهم الناقصة، وربما غير السليمة به عقبة أخرى تحول دون فهمهم للشباب في المجتمعات المستقبلة: تقدير حقيقة ظروفهم وإمكانياتهم واهتماماتهم ومشاكلهم وهمومهم، فضلا عن المساهمة في حلها. وقد يترتب على هذه «الفجوة» في التفاهم مشكلات عديدة، ربما كان من أهمها إحساس الشباب بأن الأساتذة لا يهتمون بفهمهم. ولما كانت إقامة الأساتذة الوافدين في البلاد المستقبلة مؤقتة عادة، فانهم لا يهتمون كثيرا بمسئوليتهم في خلق أرضية للتفاهم المفيد.

ومن ناحية ثالثة، يعاني عديد من الأساتذة الوافدين أنفسهم من مشكلات التكيف في الواقع الجديد، والغربة عن أوطانهم، والبعد عن أهليهم، وقد يصل الأمر ببعضهم إلى حد الأزمة الحقيقية.

ومن ناحية أخيرة، لما كان هؤلاء الأساتذة قد أعدوا وعملوا في ظل نظام تعليمي يتلاءم مع ظروف مجتمعاتهم الأصلية، فانهم-أو كثيرا منهم

على الأقل-يحملون معهم أفكارا وخبرات في عمليتي التعليم والتربية قد لا تلتقي مع ظروف البيئة الجديدة واحتياجاتها، بل قد تكون ضارة بعملية إعداد الشباب فيها أو تكون مرهقة لهم على الأقل.

رابعا

وبالنسبة لاستجابة الشباب لأوضاع نظام التعليم في بلادهم، يمكن إن نميز بين ثلاث فئات من الطلبة:

1- أولئك الذين لا تعنيهم الدراسة كثيرا، فهم مستقرون اقتصاديا واجتماعيا، يستمتعون بقدر وافر من فرص الحياة الحقيقية، ولا يأخذون الدراسة مأخذ الجد.

2- أولئك الذين لا يعنيهم من الجامعة إلا الحصول على شهادة تسمح لهم بالحصول على عمل يتعيشون منه. وهم لا يعملون بالسياسة، وليس من مشروعاتهم تحدى النظام القائم، وإنما هم يحاولون الاستفادة منه بقدر الإمكان، وهم ينظرون إلى التمرد من الكبار على أنه يهدد مستقبلهم بدون مبرر.

3- أولئك الذين يحسون بطموحات وتطلعات لجيلهم وبلادهم والعالم، ويرون الجامعة والنظام القائم عقبة في طريق تحقيقها، وهؤلاء هم النشطون سياسيا، الميالون إلى التمرد.

ويختلف تمرد الشاب على المدرسة عن تمرده على الأسرة، فثورته على الأسرة تعزله عن أخوته إلا فيما ثورته على المدرسة، نظامها والمدرسين، فإنها تجمع حوله رفاقا في سنه وأزمته، يدعمون تصرفه ويشعرونه بأنه ليس وحده، وقد يرفعونه إلى مستويات القيادة.

الهوامش والمراجع

1- فؤاد ذكريا، «آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة»، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص ص 185- 192.
2- انظر مصطفى تركي، «الرعاية الوالدية وعلاقتها بشخصية الأبناء: دراسة تجريبية على طلبة جامعة الكويت»، القاهرة، مكتبة النهضة العربية، 1974، ص ص 72-73.
3- انظر المرجع نفسه، ص 74.
4- عماد الدين سلطان، «احتياجات طلاب الجامعات»، القاهرة، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ووزارة الشباب، 1971، ص ص 88- 89.
5- زكي نجيب محمود، الأهرام القاهرية، 1977/6/11.
6- يوسف إدريس، الأهرام القاهرية، 1977/6/3.
7- ذكريا، مرجع سبق ذكره.
8- إدريس، مرجع سبق ذكره.
9- منيرة أحمد حلمي، «مشكلات الفتاة المراهقة وحاجاتها الإرشادية» القاهرة، دار النهضة العربية، 1965، ص ص 122-127.
10- محمود الزيادي، «التوافق الدراسي-علاقته ببعض متغيرات الشخصية عند مجموعة من طلبة الجامعات»، المجلة الاجتماعية القومية، المجلد الثاني، (يناير 1965): ص ص 69-85.

الحواشي

(*) المنظمة الرسمية formal organization كالمؤسسة الصناعية الكبيرة: هي-بعكس الجماعات الأولية كالأسرة وجماعة الأصدقاء وغيرهما-صيغة للتنسيق بين جهود أعداد كبيرة من العاملين للتحقيق أقصى درجات الكفاءة والفاعلية-أي ترشيد العمل-وتقدم لتحقيق أهداف عامة، ويختار العاملون فيها على أساس معايير شكلية، ويتم توزيع العمل بينهم وفق قواعد صارمة للتخصص وييسير التعامل فيما بينهم، وكذلك بينهم وبين الآخرين المتعاملين مع المنظمة-على أساس لا شخصي أي بدون اعتبار للعلاقات الشخصية.

٦ صراع الأجيال

علاقة الشباب العربي بجيل الكبار

أولا

في المراهقة وبدايات الشباب الأولى، تبدأ «مواهب» فئة من الشباب في البحث عن وسائل للتعبير. وكثيرون منهم من يفعلون ذلك، سواء كانت الطاقات التي تطلب التعبير عنها تصدر عن ملكات حقيقية واستعدادات يمكن أن يخلق منها شيء ذو قيمة، أو كانت لا تستند إلى إمكانيات أصيلة. ويدفع الشباب إلى محاولة «التعبير عن ذواتهم» حساسيتهم المفرطة حتى لأي تأثير بسيط، «وأزمة الهوية» التي يمرون بها في هذه الفترة من أعمارهم، وانطوائيتهم.

يبدأ بعضهم في قرض الشعر، أو كتابة القصة أو ما إليها. وتظهر في هوامش كراسات بعض الطلبة وكتبهم «شخبطات» يمكن مع التعهد والصقل أن يتحول أصحابها إلى رسامين. ويبدي آخرون اهتماما واضحا بالعلوم والقصص العلمي، ومنهم يمكن أن يخلق علماء مكتشفون أو مخترعون. ويميل كثيرون منهم إلى القراءة ويقبلون عليها إلى درجة النهم. وليس من النادر أن يتوزع جهد الواعد من هؤلاء بين عدة مجالات قد لا تجمع بينها رابطة

قوية. ويكون ذلك في الغالب عرضا من أعراض «أزمة الهوية»، فالشاب لا يعرف حتى هذه اللحظة ما يمكن أن يحقق في مجال ما، ومن ثم يجرب.

وحياة الواعدين في هذه السن غير هادئة: نومهم غير مستقر، ويومهم شرود، وانشغالهم بهذا «الجديد» الذي يكتشفونه في أنفسهم لأول مرة يصل إلى حد القلق. كلهم يشعرون بميل ما، ويجربون، ولكنهم لا يستطيعون الجزم بما إذا كانوا يستطيعون تحقيق شيء.

وتظهر أولى العقبات الخطيرة في طريق مثل هذا «المشروع» الوليد من أسرة الشاب، وأبويه بالذات. فالآباء عادة لا يعترفون بقيمة جهد يبذل في غير التحصيل المدرسي، ولا يهتمون بغير التفوق في الدراسة، ومن ثم فغالبا ما يكون موقفهم من انشغال الشاب بهواياته وتكريسه لها الرفض الذي لا يقف عند حدود وجهة النظر، وإنما يتعداها إلى حرمان الشاب من الوقت والمال والجهد التي تلزم لإخصاب الهواية وتحقيق شيء منها.

ومن يضطرون منهم للعمل، مبكرين بعض الشيء-بعد الانتهاء من مرحلة التعليم الوسطى مثلا-يعولون منه أنفسهم وآخرين، أو تتأخر هواياتهم حتى يستكملوا تعليمهم ويتخرجوا من الجامعة، يجدون في الوظيفة عقبة كئودا يمكن أن تتحطم عليها مشروعاتهم. فهي لا تتعارض مع هواياتهم فقط، ولكن طبيعة مسئولياتهم، وقيم رفاق العمل وتصرفاتهم، والجو الغالب في موقع العمل تكون عوامل تعطيل وتعويق. يقول شاب يتطلع إلى مستقبل في مجال الأدب عن الوظيفة التي يشغلها «أكرهها من صميم قلبي»، ويقول عن رفاق العمل أنه يشعر «بالتقزز منهم، ومن أحاديثهم ونكاتهم». [1] ويرى آخر أنه يجد نفسه في موقع العمل «مخلوقا غريبا أتى من القمر يتكلم لغة غريبة، لا يفهمها أحد قط، كل شيء (فيه) يختلف (عمن حواليه). وحتى اللغة مفقودة تماما». ومن ثم يجد نفسه موزعا في خضم «صراع بين الرغبة الحقيقية في التغير وبين واقع صلب يتراكم كمخزن للقش والمخلفات، بين الطموح (طموحه) في كسر كليشيهات جاهزة، وثابتة، للأخلاق والدين والحرية وبين... الصراع والاعتراض (من جانب الآخرين)».

ثانيا

إلا أن علاقة جيل الشباب بجيل الكبار-«والأساتذة»، منهم بصفة خاصة-

هي من اكثر الأمور خطورة وتعقيدا في هذا المجال. كل الشباب يتطلعون إلى الكبار أرادوا أو لم يريدوا، كانوا على وعي بذلك أو لم يعوه، يبحثون فيهم عن قدوة ومثل، أو يطلبون منهم العون في حل مشكلة «الهوية»، والإجابة على السؤال الملح من أكون؟ والذين يقولون أنهم «جيل بلا أساتذة»أما انهم يفترون على الحقيقة، أو يقصدون من هذه العبارة شيئا غير ما يفهم من حرفيتها. وحينئذ يكون معناها الحقيقي إن علاقتهم بأساتذتهم قد توترت بعد أن تجاوزوهم.

والشباب، على أية حالة، ليسوا على رأي واحد في تصورهم لعلاقتهم بالأساتذة، ومواقفهم من المعاقة. ثمة من يقول: «أن الجيل الماضي لا يفهمنا بطبيعة الحال (وان كان) بعض أفراده يحاولون ذلك بصورة مضحكة ومنفرة». ويتطرف في رؤية الخلاف بين الجيلين فيقول: «أن الزمن لا يرحم، والتغيرات التي طرأت على المجتمع جعلت من الجيل الماضي أشباحا هزيلة».

ويقول ثان، أقل رفضا لجيل الكبار واكثر حرصا على الانتفاع بتجربتهم في الحياة والفن: «إننا جيل مختلف في كل شيء عن الجيل السابق، ولا بد لنا من أن نعيد النظر في المسلمات القاتلة التي تحيط بنا كي نتمكن-(كأدباء)-من أن نقول شيئا له مذاق خاص وشكل خاص... أن الجيل السابق-باستثناء بعض الأفراد فيه-قد أغلق على نفسه، وأصبحت هناك أسلاك شائكة بين الجيل السابق والجيل الحالي. أنا شخصيا أتمني أن نلتقي بهذا الجيل دون أقنعة براقة، وبدون موهبة مغلقة أو انتماءات شكلية، لكي نقوم معا-نحن وهم-بمحاولة لمعايشة رحلة الخلق والعذاب والبحث عن الذات. ولكن هذا لا يحدث إلا في ظروف نادرة. وهذا ما يقلل من قيمة انتفاعنا من هذا الجيل. ذلك أن تجربته مع الخلق والمعاناة والإبداع ليست ملكية خاصة له، بل هي تجربة من حق المجتمع، ولكن أين هي؟ تلك هي القصة».

ويقول شاب آخر في المعنى نفسه، وان كان بشيء واضح من اليأس «تكاد أجيالنا الفنية أن تعمل في دوائر مغلقة، ليس هناك التحام حقيقي بين الأجيال. مما يجعل لهذه الأجيال ذاتيتها المغلقة وتجاربها المنفصلة... ولا يعطى التجربة الثقافية في بلدنا صفة الاتصال والتقدم المستمر... وربما كان السبب هو أن مثقفينا ما زالوا يخضعون لكادرات اجتماعية

وأنماط سياسية قديمة، ولم تتمكن الظروف والتغيرات الحالية من إذابة الجليد الذي يعيشونه ويدمجهم في وحدة واحدة. لذا فان العلاقة بيني وبين الأجيال السابقة علاقة فاقدة للتأثير والتأثر، زاد من حدتها أن الجيل الجديد يواجه تغييرات جذرية حاسمة (يحمل مسئولية أكبر في التعبير عنها)». ويقول آخر: «أما موقفي من الجيل السابق، فهو سيئ بالطبع، فمعظم أساتذتنا الكبار لا يعترفون بنا ويتصورون (أننا نحاول) كسر فرع الشجرة الذي يجلسون عليه».

ومن الشباب، من ناحية ثانية، من يضع المشكلة بصورة أخرى، فيرى: «أن الثورة على الأجيال السابقة لا تأتي من أجل ذاتها ... الجيل السابق لم يتجمد، وهو ما زال يعبر عن نفسه بطرق جديدة. ومع هذا اعتقد أننا (جيل الشباب) نكتب وسوف نكتب بطرق جديدة، لأنني أعتقد انه ليس للتجريب حد أو نهاية».

وثمة فئة ثالثة، اكثر اعتدالا، يعبر شاب عن موقفها بقوله عن جيل الكبار من الأدباء: «أقدر تاريخهم، فمن كانوا روادا ومجددين يوما لا ذنب لهم في عدم استمرار شبابهم الفني بحكم قوانين التطور، والذين لم يكونوا مبدعين لن يستطيع غضب كل الشباب عليهم أن يخصب مواهبهم». بل إن هناك من يقول: «أنني امتداد (لجيل الكبار أو بعضهم بمعنى أدق) مصنوع منهم، أحملهم في دمي، أختلف عنهم طبعا، لكنني لست جوهرا مغايرا».

وهناك من يتخذ من هذه المشكلة موقفا ينطوي على نوع من الإدانة للجيل الجديد-جيل الشباب-يقول شاب: «قد يقول البعض (من الشباب) إن أفراد الجيل السابق من الفنانين يقفون حجر عثرة في طريقهم لعلمهم بأن الجديد يزيح القديم. ولكن في اعتقادي حتى ولو كان هذا ... (صحيحا)، لا أجد من يستطيع أن يقف في طريق الفنان الجيد الصادق. فالفن الجيد يفرض نفسه في. النهاية حتى ولو وقف كل أفراد الجيل السابق... وقفة واحدة (لقتله). (هذا الزعم إذن) وهم وخيال مريض للفنانين المتوسطين أو العاجزين».

ويلخص شاب موقف جيله كله لا فئة محدودة منه من الأجيال السابقة بقوله: «فمن الناحية الموضوعية، لا أملك إلا الاعتراف بفضل ما أعطته في حدود ظروفها الحضارية والتاريخية.. إنني أدين لها بكل ما تعلمته..».

ولكنه، من ناحية أخرى يقول: «أننا نختلف تماما عن الأجيال التي سبقتنا... من الخطورة أن تدفع الأنانية أو القصور عن الفهم والتطور هذه الأجيال لان تعتبر ما أعطته هو نهاية المطاف، وغاية الكمال، وتطالبنا بأن ندور في فلكه أو ننتج داخل نطاقه. عليها أن تدرك روح العصر وأن لا تقف في وجه إضافاتنا.. أنا أعاملها (الأجيال السابقة) بالاحترام، والتوقير تقديرا لدورها الرائد. هذا بالنسبة (لمن أعطوا) ما هو أصيل وجيد. ولكنني لا أستطيع أن أعامل بهذه الأخلاق بعض الذين تحجروا وفقدوا خواص ملاءمتهم لواقعنا الجديد المتحرك، ويعملون على عرقلة مسيرته».

وطبيعي أن تستثير مواقف الإدانة هذه استجابات غاضبة من الكبار تصدر عن مشاعر حادة. وأحاسيس لا تخلو من مرارة، وبخاصة لدى الذين يعتبرون أنفسهم «روادا» أو «أساتذة»، ليس فقط لما تحمله من معاني عدم الامتنان ونكران الجميل والفضل في نظرهم، ولكن لما تنطوي عليه من معنى الحكم بالفشل عليهم وعدم الجدوى لجهودهم والإخفاق لمشروعاتهم، بل ولما توحي به من محاولة «زعزعة الأرض التي يقفون عليها». ومن ثم فليس غريبا أن يقول كاتب من جيل الكبار عن الأدباء الشبان: «إن أدبهم ليس خطرا وليس عميقا، وان ما بينهم وبين جيل الكبار ليس صراع أجيال، بل محاولة لهدم الكبار»، وانه «لا يتوقع أن تخرج منهم مدرسة أدبية جديدة». ثم يتساءل: «فهل هذا الجيل-جيل الشباب-جيل معذب فعلا، أم أنه مجرد قلق بيولوجي من ذلك القلق الذي يجعل الأبناء يثورون على الآباء بمجرد أن يخضر شاربهم وتظهر فيهم علامات الذكورة»؟ ثم يتخذ منهم موقفا يدين الجيل كله «للن أكتب عندهم، فلدي أعمال أهم».

ويرد شاب: «فإنني-إنسانيا-لست ضد »هؤلاء الآباء العواجيز«باعتبار أنهم نتاج طبيعي لظروف عصرهم، لكنني ضد هذا الإصرار العجيب من جانبهم على اتهامنا بالسطحية، انهم يعلنون أننا جيل بلا تيار لا ينظمه بيان بفلسفة أو وجهة نظر واسعة. هؤلاء أسألهم<:هل استطعتم أنتم الجيل المستقر...

أن تعلنوا بيانا بفلسفة أو وجهة نظر واضحة... إننا جيل يصارع في أكثر من جبهة... وعليه في الوقت نفسه أن يستكمل أدواته الفنية... وان يعيش، بمعنى أن لا يموت جوعا».

ويقارن آخر ظروف جيله الصعبة بظروف الأجيال التي سبقته-والأفضل

نسبيا-بقوله: «أن الأجيال الفنية السابقة على جيلي كانت اسعد حظا لوضوح الرؤية... أما جيلي، فقد حاصرته الآمال الضائعة والرغبات المحبطة... وأنا شخصيا معجب بعدد من كتاب الجيل السابق... ولكنني أرى أن قلة منهم فقط قادرة على تذوق المعنى الجديد للحياة والفن عند جيلنا.. أننا جيل محاصر... ولم يحتج.. لقيمة مثل حاجته إلى الحرية... إنني أحترم الجيل السابق... ولكني أعترف أنه أعطاني القليل».

ثالثا

وفي الوقت الذي تزداد فيه حاجة الأب إلى جيل الكبار. وللأسباب التي ذكرناها، تزيد الظروف الموضوعية من البعد الفيزيقي والهوة النفسية الاجتماعية والفوارق في الفهم والتصرف التي تفصل بينهما.

فقد انقضى-أو أوشك-عهد العلاقة الحميمة بين الطالب والأستاذ، باعدت بينهما مسئولية المدرس عن مئات-وربما آلاف الطلبة، لا يكاد يتعرف عليهم، فما بالكم بمشكلاتهم الخاصة. فاختفت من نشاط الطالب الجامعي اللقاءات التي كانت تجمعه وأستاذه خارج قاعة الدرس في علاقة علمية وثيقة. بل اختفت أو كادت من نشاط الطالب العلمي مواد «أعمال السنة»- بمفهومها القديم-«وقاعات البحث» التي يجد فيها الطالب الفرصة ليكشف عن إمكانياته الحقيقية، ويكتسب خبرات يقوم بها بعض أخطائه.

ومضت من الحياة الأدبية والفنية والثقافية، ظاهرة «الصالونات» يجتمع فيها أفراد من الجيلين، يطرحون رؤيتهم للمشكلات بشكل يخلق حوارا حيا بين الاتجاهات المختلفة تخصب به المواهب وتنضج الآراء ويصقل الأداء. صحيح أن بعضا من جيل الكبار ما زالوا يتيحون للشباب فرص اللقاء بهم والحديث إليهم، ولكن هذا لا يحدث إلا نادرا، ولا يتم بشكل يساعد على خلق الحوار الفني المطلوب بين الجيلين، وإنما يتم في ظل نوع من «وصاية» «الأساتذة» على الجيل الجديد.

واختفت المدارس الفكرية والثقافية من حياتنا، واختفاؤها شاهد على تخلفنا عن نبض العصر ومؤشر عليه، ودليل على جدب المناخ الذي نعيش فيه أو فقره على الأقل. وبهذا ينقطع الحوار، وينغلق كل جيل على نفسه يعيش ضحية لخبراته وتحليلاته الخاصة، ولا يرى في الجيل الآخر غير

أشباح تهدد راحته أو خطرا يهدد وجوده.

والأخطر من هذا أنه حل محلها نوع من التجمعات، يمكن أن تسمى «الشلل»، يلتقي أعضاؤها لا حول قضايا فكرية وثقافية عامة، وإنما من أجل «تبادل المصالح»، و «عقد الصفقات» التي غالبا ما يكون الآخرون ضحاياها. وهذه علاقات تسمح لبعض التافهين أو ذوي الإمكانيات المحدودة بالتسلق والوصول إلى مستويات لم يكونوا ليبلغوها على أساس تقدير موضوعي نزيه لطاقاتهم، وتحرم آخرين من ذوى الإمكانيات الواعدة والكبرياء من فرص تحقيق ذواتهم. وبهذا تضيع كثير من العناصر الجادة وسط زحام الحياة، ويتألق تافهون.

وفضلا عما يترتب على «الشللية» من أضرار بأولئك الذين يرفضونها أو يثورون ضدها، فإنها تؤدي إلى فقر المناخ الثقافي ومناخ العمل العام بصفة عامة. فما دام لا يوجد تقليد للنقد الجاد البناء، ولا معايير يمكن أن يستند إليها تقيم موضوعي لإسهامات الأفراد والجماعات، يصبح الجو مواتيا لشيوع التفاهة والسطحية وتسلط روح المجاملة الزائفة على معاملات الناس. ومن ثم فليس غريبا أن حياتنا الثقافية لا يوجد فيها منابر للنقد تضع مواصفات الأعمال الجادة وأخلاقيات العمل العام والعلمي، وتتابع تنفيذها أو الالتزام بها. بل إن تعرض مفكر ما لعمل ما علميا كان أو فنيا أو غيرهما بالتقييم-مهما كان موضوعيا نزيها-كفيل بأن يثير حفيظة صاحب العمل، وقد يدفعه إلى الانتقام (هذا إلا إذا كان التقييم إطراء للعمل وتمجيدا لصاحبه).

ولا يقل عن هذا خطرا، دور «الشللية»، في إفساد العلاقات بين الشباب بعضهم والبعض الآخر. فلما كانت تنشر أخلاقيات مطعونا فيها، وترفع أشخاصا ما كانوا ليصلوا بجهدهم الخاص، وتسيء إلى فئة لا تقبل أن تسير في مواكب النفاق والتملق، فإنها تخلق توترات داخل الجيل نفسه: تثير فئة على فئة، وتوجه جهد بعض عناصره لطعن عناصر أخرى وتعويق حركتها. ولهذا فان المعاقات بين جيل الشباب هي-على احسن الاحتمالات-علاقات سطحية تفتقر إلى العمق، عابرة ينقصها الاستقرار والاستمرار والاتصال. ومن ثم فهي غير مؤثرة تأثيرا إيجابيا، وهي غير مثمرة في معظم الحالات.

ويفسر أديب شاب ظاهرة «الشللية» بأن: الأجيال السابقة هي المسئولة غالبا عن تكوين «الشلل» القادرة على تحقيق مصالح أفرادها ومحاربة مصالح الآخرين، وهذا هو منطق «الشلة» التي تسيطر عن طريق زعمائها على بعض من أجهزة الدولة وتستخدمها لتحقيق أغراضها. والسبب هو عدم تبلور تجمعات فكرية تستقطب الشباب. وتنتقى من الجيل من هم أكثر موهبة وجدية وتوفر لهم فرص النضج والتفتح. ولهذا فانه حتى حين يكون لفرد أو لجماعة رأي في عمل ما لا يرتاح إليه صاحب العمل، فان هذا الرأي لا يخرج عادة عن نطاق اللقاءات الخاصة المحدودة، أما في العلن وحين يلتقي الناس في مناسبات عامة يخفت هذا الصوت الموضوعي، ولا يعلو غير التقدير والمديح والإطراء. غير أن هناك حالات يعلو فيها صوت النقد ويحتد وتلهب سياطه حتى بعض «النجوم». وفي مثل هذه الحالات، ليس من النادر أن يكون الدافع نوعا من الابتزاز، إذ سرعان ما تهدأ النفوس وترضى وتخفت الأصوات وتسكت إذا تم «عقد صفقة».

رابعا

وفي بعض الحالات تصل حاجة الشاب إلى شخص راشد إلى آفاق خطيرة. ففي مرحلة المراهقة وبداية الشباب، يتوزع بعض الشباب بين ظواهر «الدهمة» وعبادة البطل، وحب الذات المتطرف-النرجسية والميول الجنسية الغيرية.[2]

والدهمة crush هي بحث الشاب-والفتاة بصفة خاصة-الملح عن أشخاص يحبهم ويميل إلى الاعتماد عليهم حين يخاف شيئا. ففي محاولات اكتشاف الذات، يقع الشاب في حب الأشخاص الذين يظهر فيهم خواص يقدرها وقد يصل الحب، على حد قول فتاة «لدرجة العبادة...» ويجعلها تنظر إلى من تحب على أنه «أكثر من إنسان» «هذا الحب الغامر الذي تشعر به الفتاة، وما تطلبه (ممن) تحبها من استجابة له أو من اقتصار في هذه الاستجابة عليها، وكذلك الخوف مما عساه أن يباعد بينها وبين (المحبوب) والألم الذي تشعر به بسبب هذا الابتعاد، كل ذلك يطابق مشاعر الشخص حينما يكون في حالة حب (حقيقي) أي حب الشخص من الجنس الآخر». ولعل هذا هو السبب في القلق الشديد الذي تشعر به الفتاة في مثل هذه الحالة،

والذي يدفعها إلى أن تتساءل عما إذا كان في سلوكها-تعلقها بمدرستها مثلا-شذوذ.

«فالدهمة» هي عاطفة غامرة تجاه شخص ما، تنطوي على غيرة شديدة عليه وعلى رغبة في الاستحواذ على كل اهتمامه وحبه. وتحدث عادة في فترة التحول من مرحلة كراهية الجنس الآخر إلى مرحلة حبه، أي بين سن 12 و 15 سنة، وهي السن التي يشعر فيها الفرد بميل إلى الحب، ولكن لأنه أكبر من أن يحب أبويه أو أقاربه، ولم يتجه إلى حب الجنس الآخر بعد، فانه يبحث عن موضوع لحبه خارج الأسرة. ويكون موضوع الحب عادة من الجنس نفسه، أكبر سنا من المحب، وتظهر فيه صفات يقدرها الشاب-أو الفتاة-ولكنه محروم منها. فنحن إذن بصدد نوع من «الإسقاط» (*)لقسمات يعشقها الشاب ولكنه لا يجدها في نفسه.

وتكاد «الدهمة» تكون عامة بين الإناث، وهى اقل شيوعا بين الذكور. وتكون أعنف وأطول لدى الإناث منها لدى الذكور. وهي بين من لا تتوافر لهم علاقات اجتماعية واسعة أكبر منها عند سواهم.

وتتميز الدهمة بكثير من ملامح الحب العذري: فكل ما يطمح إليه الشاب أو الفتاة هو القرب الفيزيقي من المعشوق، والاستئثار باهتمامه وعطفه. وأقصى ما يمكن أن يفعله معه هو لمس جسمه أو حتى ملابسه، أو تأمله. وإذا تيسر له أن يقبله أو يحتضنه تكون هذه لحظة من اللحظات النادرة في حياة الشاب.

هذه الدهمات ذات طبيعة مؤقتة، تهمل وتنسى حين يصل الشاب إلى سن «الجنسية الغيرية»، ولا تدوم عادة أطول من شهور. ومهما بلغت حدة الدهمة أو أهميتها في حياة الشاب، فهي لا تقف حائلا دون التحول إلى الجنسية الغيرية بل ولا تعطل التكيف السوي مع الجنس الآخر.

والرأي الغالب هو أنه لا علاقة بين هذا النوع من الحب وبين الشذوذ الجنسي-أو بعبارة أدق «الجنسية المثلية»-وذلك لان هذه «الدهمات» تظهر عادة في السن التي يتم فيها التحول الجنسي، ويكره فيها المراهقون أفراد الجنس الآخر، أو لا يميلون إليهم على الأقل. وعلى ذلك يكون عندهم طاقة من الحب تحتاج إلى تصريف. ولما كانوا يجدون أنه من غير الملائم-وقد كبروا-أن يظهروا هذا الحب لأبويهم أو أقربائهم، فانهم يبحثون عن

موضوعات أخرى خارج البيت يتعلقون بها. وتكون المدرسة هي السياق الذي يوفر لهم موضوعات لحبهم.

والمشكلة التي تواجه «الأبطال» موضوعات الدهمة، عادة، هي كيف يمكن أن يساعدوا الشاب في أزمة الاعتماد عليهم دون أن يصلوا به إلى حد تحول ميوله إلى رغبات مرضية عصبية: فالرفض جارح له، وقد يؤدي إلى تدميره، ولكن تلبية رغباته بصورة مطلقة قد يضع عقبات في طريق استقلاله.

والتحدي الحقيقي في الدهمة هو كيف يمكن أن يتحمل «البطل» مضايقات الشاب وطلباته غير الواقعية أحيانا من أجل أن يساعده على الخروج من أزمته. فهو إن رفضه يستثير فيه مشاعر تحقير الذات والعداوة نحو الآخرين، وان قبله قد يشجعه على تثبيت تصرفات غير صحية، قد لا يحتملها هو (البطل).

ولما كان «البطل» لا يستطيع أن يغير الواقع الموضوعي للشاب-وهذا هو المدخل السليم لحل أزمته-فان أهم ما يمكن أن يفعله هو أن يتصرف في دفء عاطفي، ويوفر للشاب علاقة تخفف ما لديه من قلق، ويشجعه على التعبير عن مشاعره ذات العلاقة بصراعاته، ويساعده على أن يخفف من دفاعاته حتى يسمح للمشكلات الدقيقة بأن تفصح عن نفسها».

هذه «الدهمات» هي-إذن-ظاهرة طبيعية ذات طابع مؤقت، تحتاج الفتاة إلى مساعدة لتجاوزها حتى لا تقف حائلا بينها وبين تكوين علاقات جنسية غيرية بعد ذلك.

ولكن الذي يحدث في أحيان كثيرة هو أن المدرسات-موضوعات حب الفتيات الصغيرات-يتضايقن من تعلق هؤلاء الزائد بهن وتتحرجن منه في بعض الحالات، ولا تترددن في صد الفتيات بعنف أو حتى معاقبتهن، مما يسبب حيرة شديدة للفتاة، تزيدها ارتباكا واضطرابا مشاعر الذنب التي تحس بها.

ويظهر في «عشق البطل»كثير من ملامح «الدهمة»، ولكنه يختلف عنها في عدم توافر للقرب الفيزيقي بين البطل والعاشق، وفي أن البطل يمكن أن يكون من الجنس الآخر، وفي أن الظاهرة غير قادرة على مرحلة المراهقة وبداية الشباب، وإنما قد تظهر لدى الأطفال الكبار.

خامسا

إن جزءا غير ضئيل من أزمتنا نحن الكبار مع الشباب يأتي من الإحساس الذي يدفعه فينا اختلافهم معنا وتمردهم علينا وانحرافهم عما نتوقعه منهم أو نتمناه لهم، بأننا مسئولون عن أخطائهم أو ما نتصور نحن أنه أخطاء منهم.

فنحن نعيش تحت كابوس «الإحساس بالذنب».

ومع أن هذا الإحساس له ما يبرره في أحيان كثيرة، فان علينا ألا نخلط بين تطورات تاريخية وتحولات اجتماعية تؤدي بالضرورة إلى تغيرات في كل جيل عن الأجيال التي سبقته وبين مسئوليتنا كأباء أو مربين.

الهوامش والمراجع

1- النصوص القصيرة التي نوردها في هذا الفصل مأخوذة من «هكذا يتكلم الأدباء الشبان- شهادات واقعية وتعليقات»، الطليعة (القاهرية)، السنة الخامسة (سبتمبر 1969)، ص ص 13-91. وقد اعتمدنا على هذه المادة في إعداد الفقرة (ثانيا) من هذا الفصل.

2- انظر منيرة احمد حلمي، مشكلات الفتاة المراهقة وحاجاتها الإرشادية، القاهرة، دار النهضة العربية، 1965، ص ص 255- 258.

الحواشي

(*) الإسقاط projection هو أن يخلع الشخص على الآخرين أو يرى فيهم ملامح أو صفات أو ينسب إليهم خبرات لا تكون فيهم حقيقية وإنما تكون فيه هو أو مجرد خيالات عنده.

7 نحو المسايرة والانصياع

الشباب العربي والعمل السياسي

أولا

لعب الشباب العربي-كما ذكرنا-دورا هاما في تحرير بلادهم ووضعها على بداية درب التحديث، وساروا بها خطوات هامة في هذا الطريق.

غير أن دراسة للتاريخ المعاصر للعالم العربي تشير-مع الأسف والأسى العميقين-إلى أن «النظم الوطنية » في فترة ما بعد الاستقلال السياسي تتجه إلى كف مبادلة الشباب وتهدئة ثوريته واحتواء نشاطهم.

ويرجع هذا الموقف من جيل الكبار إلى أن قطاعا كبيرا من الشباب-نتيجة لنقائهم ورومانسيتهم وعدم ارتباطهم بالتزامات نحو زوجة وأولاد، وعدم تقيد ولائهم بمؤسسات قائمة، وغير ذلك-يتقدمون جيل الكبار في الإحساس بالقصور الاجتماعي وفضحه، والدعوة للتغير والعمل من أجله فعلا.

وتجد «الدولة» نفسها مضطرة من أجل مواجهة هذا المد الثوري المعارض لبعض مشروعاتها إلى أن تتخذ إجراءات أو أخرى: فقد تثقل كاهل الطلبة بنظم ومقررات دراسية وامتحانات تشغلهم معظم الوقت، وقد تحرم عليهم «الاشتغال» بغير الدراسة،

و قد تستغرق نشاطهم خارج الدرس في منظمات صورية، تحرص هي على السيطرة عليها والتحكم في توجيهها . وليس من النادر أن تلجأ إلى أساليب القمع الصريح، بتعطيل الدراسة، والاعتقال والمحاكمة، وما إلى ذلك. ومن المؤلم للشباب أن بعض أدوات السلطة في التخطيط لمثل هذه السياسات-وبعضها متطرف-وتنفيذها يأتون من بين أساتذتهم في المدارس والجامعات.

ومن ثم يمكن أن نقول أن جيل الشباب في مرحلة ما بعد الاستقلال السياسي في معظم الدول العربية لا يربى بطريقة تساعد على استمرار قوة الدفع في إيجابيته ووعيه وحركته-وقبل ذلك وفوقه احتفاظه بنقائه وبراءته-ومن ثم تضمن استمرار النضال لتحقيق التقدم الاقتصادي والتطور الاجتماعي.

ثانيا [1]

فعلاقة الشباب العربي ببعض التنظيمات الاجتماعية والشبابية التي «يجربون حظهم» معها أو يجدون أنفسهم مضطرين إلى الانضمام إليها أو التعامل معها، كالتنظيمات السياسية، وجمعيات العمل الاجتماعي، والاتحادات الطلابية، ومنظمات الشباب، وما إليها-أقل ما يقال عنها أنها علاقة غير صحية، تعطى الشباب إحساسا بالغربة، وتدفعهم إلى أن يقفوا أو معظمهم منها موقف اللامبالاة. وقد يرفضها البعض ويسعى إلى تدميرها، أو يعمل على تخريبها.

وذلك لان انتماءهم إليها وعضويتهم فيها، بل ونشاطهم من خلالها، لا تتميز بتلقائية ورغبة حرة، وإنما تفرض عليهم بنوع من القهر أو «التجنيد» في بعض الحالات، أو بالترغيب والرشوة في حالات أخرى.

وفضلا عن هذا فان هموم الشباب «النظيف» الجاد مع مثل هذه التنظيمات هموم حقيقية. فثمة، من ناحية أولى، الشكوى من تعدد الأجهزة التي توفر مجالا للتربية السياسية للشباب ونشاطهم في هذا المجال، وتبعية هذه الأجهزة لجهات مختلفة. فبعضها له صلة بجهاز الدولة، وبعض ثان له صلة بإدارة المعاهد التعليمية، وبعض ثالث ينبثق من الاتحادات الطلابية. وفي حين كان يمكن أن يكون هذا التعدد مصدر ثراء ووفرة، فانه في حقيقة الأمر يؤدي إلى تعارض الأهداف، وتوزع الجهد، وتداخل المسئوليات، وضآلة

المردود. هذا فضلا عن الغموض الذي يعيش فيه الشباب من جراء عدم اتساق الأجهزة المختلفة في أغراضها وأسلوب عملها، بل وتعارضها في ذلك أحيانا.

ومن النادر أن تصاغ وثائق أهداف هذه التنظيمات صياغة محددة حاسمة توفر معايير أو محكات للحكم على أدائها، وأداء المسئولين فيها، بالنسبة للأغراض التي أقيمت من أجل تحقيقها. فالشائع هو أن تكون أهداف التنظيمات من العمومية بل والغموض بحيث لا تقدم أساسا للمحاسبة الدقيقة من جهة، وبحيث تسمح بتفسيرات عديدة لطبيعة نشاطاتها من جهة ثانية، وبحيث لا تحول دون استعمال هذه التنظيمات من قبل المسئولين عنها وبعض عناصرها الشبابية لتحقيق أغراض خاصة. ومن ثم فان الغالب هو أن تضيع الأهداف العامة في زحمة الصراع من اجل تحقيق أهداف خاصة-شخصية أو فئوية(كسب مادي، أو نفع شخصي من أنواع أخرى، أو مصالح حزبية أو سياسية ضيقة).

وهناك، من ناحية ثانية، عدم استقرار هذه الأجهزة، في فلسفتها وأهدافها وأسلوب العمل فيها. ويرجع هذا في جانب منه إلى عدم استقرار الإشراف عليها، وربما التغيرات في مجال السياسة في الدولة. ومن ثم لا تتاح للتجارب التنظيمية المختلفة فرصا كافية لاختبار كفاءتها وفعاليتها. وهكذا تمضي منظمات ويأتي غيرها بدون مبرر كاف للتغيير، وتهدر إمكانيات ويضيع وقت دون تحقيق تقدم.

فالطريقة الشائعة-والغريبة حقا-في عدد من البلاد العربية، هي أننا من النادر أن نتابع أداء أي جهاز يقام ونبحث في أسباب نجاحه أو ظروف فشله. فإذا نجح في تحقيق ما أنشئ من اجل إنجازه من مهام-أو بعضها-فلا بأس، وخيرا. أما إذا فشل-ونادرا ما يزعجنا فشل أجهزة العمل العام-وحين يضج الناس أو بعض الفئات بالشكوى، أو حين تصير حالة الفشل صارخة تضايق البعض أو تحرج بعض المسئولين، تتمثل استجابة هؤلاء عادة في إلغاء الجهاز القائم، أو ربما الإبقاء عليه وإنشاء جهاز جديد يختلف في الاسم وبعض تفاصيل الشكل دون أن يتميز في حقيقته وجوهره عن الجهاز القائم.

ومن ناحية ثالثة، لا يقوم البناء التنظيمي لهذه الأجهزة وفقا لاختيار

الشباب، بل ولا يكون الهم كلمة في التخطيط له وخلقه، وإنما تفرض عليهم قياداته إما بطريق التعيين أو نتيجة لانتخابات صورية تتحدد نتائجها قبل إجرائها-عادة. وتأتي هذه القيادات غير ممثلة للقواعد الشبابية تمثيلا صادقا كافيا. وفي حالات غير قليلة تصل إلى قمة هذه التنظيمات قيادات غير صالحة ليس لديها من المؤهلات غير ولائها للسلطة على حساب المصالح الشبابية، وتستبعد عناصر على درجة عالية من الكفاءة، لأنها تصر على دور شبابي خالص للتنظيم. ومن ثم لا تتاح للقواعد الشبابية فرص التعبير الحي عن تصوراتهم لشكل التنظيم وطريقة عمله.

وبهذا يبدأ التنظيم ودور الشباب فيه ضعيف ممزق يستثير حماسهم ولا يحوز رضاهم.

وأخطر من هذه الأمور التنظيمية قضايا أسلوب التنظيم في أداء وظائفه. فالشائع أن تتجه قيادات التنظيم-التي لا تمثل قواعده الشبابية-لا إلى تحريكه بشكل يخدم قضايا الشباب والقضايا العامة، وإنما تسير به في الحدود التي ترسمها أو تريدها له السلطة. ويتحول التنظيم إلى مجرد سباق للصفقات الخاصة، وطريق إلى تحقيق الأهداف الشخصية.

وبهذا لا تخلق التنظيمات جوا صحيا يسمح بتربية الشباب وإنضاجهم نفسيا واجتماعيا، وإنما يعمل على «قولبتهم» في أطر جامدة بالية. وهي عملية لا تؤدي إلا إلى تعويق نموهم، وكف مبادرتهم، والعمل على توجيه ولاءاتهم نحو أشخاص بالذات لا نحو القضايا العامة.

وحين يثور أو حتى يعترض من لا يستسلمون لتهديد ولا الغواية، يتعامل معهم التنظيم بقسوة لا تتفق مع «نبل» مقاصدهم وبراءة أهدافهم، وبأساليب يفجعهم عنفها، ويحول بينهم وبين الوصول إلى المستويات الأعلى أو يمنعهم من أن يستثيروا نقاشا موضوعيا جادا. فتبقى ثوراتهم صراخا في خلاء لا يسمع له صدى ولا يتحول إلى عمل مؤثر، بل ولا يخرج من دائرة المعاناة الشخصية.

ويساعد في تكريس هذا الوضع بعض ملامح التنظيم-فمن قسماته أن يتم توزيع الاختصاصات والمهام على عدد من الأجهزة على محور أفقي بفرض توزيع العبء-الضخم-واحتراما لمبدأ التخصص وتقسيم العمل. والأصل في هذا الإجراء ضمان إنجاز عدد كبير من المهام الحيوية التي قد

لا تتفق في طبيعتها (مهام فنية، ومهام إدارية مثلا). ومن ناحية أخرى يتم ترتيب المسئولية ترتيبا رأسيا هرميا بين مستويات مختلفة، تزيد السلطة كلما ارتفعنا من قاعدة الهرم في اتجاه قمته. والمفروض أن هذا يتم بغرض «تفويض السلطة»، أو إعفاء المستويات الأعلى من مسئولية البت في الأمور التافهة وضمان تفرغها لوضع الاستراتيجية واتخاذ القرارات المحورية الهامة. ولكن ما يحدث عادة هو أن توزيع الاختصاصات على المستوى الأفقي يؤدي إلى توزيع المسئولية عن العمل الواحد أو المهمة الواحدة بشكل يعيق عملية إنجازها ويضيع بعضها بين الاختصاصات المختلفة. كما أن الترتيب الهرمي للسلطة-بدلا من أن يساعده، تفويضها وتوزيعها-يؤدي إلى تركزها في المستويات الأعلى، أو في قمة التنظيم بمعنى أدق، ويعقد عملية الاتصال بين المستويات الأدنى والمستويات الأعلى نتيجة للقنوات العديدة التي يجب أن يمر من خلالها الاتصال، والإجراءات المعقدة التي يجب أن يسير وفقا لها.

ثالثا

وتختلف استجابة الشباب لهذه الطريقة «الغريبة» التي يتناول بها المجتمع أو بعض مؤسساته حماسهم واندفاعهم للعمل العام، تبعا لعوامل كثيرة معقدة. ومع هذا فانه من الممكن أن نتبين أنماطا رئيسية للاستجابة، يستقطب كل منها جماعة من الشباب.

أولها، الاستسلام للتهديد أو الغواية، والتخلي عن البراءة-أو على الرغم من البراءة-وقبول «عقد الصفقة» من ممثلي السلطة أو من يدعون ذلك، ويسير الشباب في الخط الذي يختار لهم في نظير مقابل يختلف في شكله وقيمته: من رواتب شبه ثابتة، إلى دور قيادي في حركة الشباب، إلى بعثات لدراسات عليا في الخارج، إلى غيرها من الوسائل «غير النظيفة» أحيانا.

والثاني، وقوع بعض الشباب الرافض فريسة سهلة لبعض الدعاوى المتطرفة، في مجال السياسة أو العقيدة الدينية أو غيرهما، واستجابتهم السريعة للحركات «التخريبية» في صور أقل خطرا مثل التعصبات الرياضية-في بلد كمصر بالذات-التي تذهب في عدائها بعضها للبعض الآخر وفي الصراعات بينها إلى حدود ممعنة في التطرف لا صلة تربطها بالرياضة.

والثالث، فقدان فئة من الشباب-لا تقبل أن تتنازل عن طهرها ونقائها، وتصر على الاحتفاظ بهما-الحماس للقضايا العامة والتكريس للعمل العام، فتنطوي على ذاتها، تستغل طاقاتها في مجالات الدراسة أو العمل أو الكتابة، أو بعض الهوايات الأخرى (وهو قطاع كبير من الشباب-على ما يبدو-كما تشير تحليلات نتائج الانتخابات التي لا يقبل على التصويت في أخطرها وأكثرها حسما غير نسبة ضئيلة من الشباب ممن يحق لهم التصويت، والمقيدين في جداول الانتخابات).

والنمط الرابع، والأخير، تمثله فئة من الشباب يعارضون النظام صراحة، لا الأشخاص في السلطة في المحل الأول. وعلى الرغم من أن بعض الأجهزة و«التنظيمات المشبوهة»-أي التي تعمل لغير الصالح القومي-تتسلل إلى هذه الجماعات وتستغل تحديها للسلطة استغلالا سيئا، فان الأصل هو أن موقف هذه الفئة من الشباب من النظام هو الرفض النزيه «النشيط»، على أساس أن النظام غير كفء لتحقيق الأهداف الوطنية بالقدر الذي يتصوره الشباب، أو أنه يعمل لمصلحة فئات ليست هي صاحبة الحق الأساسي في المجتمع. (ومن الأمور التي تثير هذه الفئة وتدفعها إلى مواقف متطرفة أحيانا اتهام السلطة لها «بالعمالة لمصالح أجنبية أو بالوقوع فريسة لجماعات تخريب، مما يطعنها في كبريائها ووعيها ووطنيتها).

وتستحق هذه الجماعة الأخيرة بعض التحليل والمناقشة التفصيلية. وعلى الرغم من أن هؤلاء يبدون أقلية، فانهم ليسوا في حقيقة الأمر كذلك، فثمة كثيرون غيرهم يقفون من «النظام» موقفهم نفسه، ولكنهم لا يميلون إلى التعبد عن رأيهم فيه بصراحة كافية، ومن ثم يعتبرون «أغلبية رافضة صامتة».

وهم، من ناحية ثانية، ليسوا على نحو ما تشيع عنهم بعض أجهزة الأمن والتنظيمات الموالية للسلطة من الفاشلين دراسيا، وإنما هم، على العكس من ذلك، من افضل عناصر الشباب، وان كان نشاطهم السياسي ومشكلاتهم مع السلطة في معاهد التعليم وغيرها تبدد كثيرا من طاقاتهم وتعرضهم للاضطهاد والانتقام اللذين يظهران في نتائج امتحاناتهم عادة.

ويظهر هؤلاء كجبهة تأخذ «موقف الرفض» في أغلب الأحيان. وهذا أمر طبيعي من وجهة نظرهم، لان الذي يرفضونه ليس وضعا معينا ولا

تصرفا بالذات، ولا مسلك بعض المؤسسات، وإنما هو النظام كله، في الأساس الذي يقوم عليه، والتصرفات التي يصدرها. ومن ثم يمتد رفضهم من أوضاع الدراسة والعلاقات الاجتماعية داخل معاهدهم إلى الإجراءات الحكومية المختلفة، إلى الخط الأساسي الذي تسير فيه الدولة، إلى النظام كله.

ولهؤلاء، على عكس الفئات الثلاث الأخرى، مواقف صريحة غالبا من مختلف القضايا، يعبرون عنها في «مجلات الحائط»، وفي التظاهرات في مناسبات معينة، وفي تعاملهم مع السلطة داخل معاهدهم.

وتشعر هذه الفئة من الشباب بشيء كثير من المرارة حين يتهمهم الكبار، ويلاحظون هم أنفسهم، انهم غير ناضجين سياسيا سواء في تحليلهم للقضايا التي يعرضون لها، أو مواقفهم منها، أو الطرق التي يعبرون بها عن مواقفهم. ومصدر المرارة هنا أنهم نتاج للواقع الموضوعي الذي يعيشون فيه، والذي يتسبب-بقدر كبير من القصد والعمد-في تعويق نضجهم السياسي وتعطيل فرص اكتساب الخبرة. وذلك الاتهام من جانب جيل الكبار هو واحد من العوامل التي تزكي رفضهم له، وتمردهم بل وثورتهم عليه.

ويأتي هؤلاء عادة من الطبقة الدنيا التي لا يتاح لها من فرص الحياة مثل ما يتاح للطبقات الأخرى، أو هكذا يحسون هم على الأقل، ومن الطبقة الوسطى التي يحس معظم أبنائها بأن ما يتاح لهم من فرص الحياة لا يكفي-على أهميته-لتحقيق طموحاتهم وتطلعاتهم. وليس من النادر أن تضم هذه الفئة عناصر من المستويات فوق الوسطى ذات ظروف خاصة.

الهوامش والمراجع

1- اعتمدنا في هذه الفقرة (ثانيا) من الفصل على دراسة موضوعية لتجربة واقعية. انظر «منظمة الشباب: دروس التجربة وإعادة البناء-التثقيف السياسي»، الطليعة (القاهرية) السنة الخامسة (مايو 1969)، ص ص 20- 62.

وانظر، أيضا، عماد الدين سلطان، «مشكلات طلاب الجامعات»، «المجلة الاجتماعية القومية»، المجلد الثامن (يناير 1971)، ص ص 3- 38، جدول رقم 7.

8 تهاوى الأحلام

الشباب العربي على طريق بداية الراشدين

أولا

يتوقف الطريق الذي يسلكه الشاب العربي في الحياة-التكيف في العمل وزواجه، وعلاقاته بالآخرين، ومواقفه الأخرى-على درجة الارتقاء العضوي والنفسي والاجتماعي التي يوفق في بلوغها، والظروف التي يجد نفسه فيها. وهذه كلها نتاج خبراته مع الأسرة والمدرسة والمؤسسات الأخرى، بالإضافة إلى فرص الحياة التي يوفرها له وضعه الاجتماعي الاقتصادي. أي أن نجاحه (أو تعثره) في مختلف مشروعات حياته، يعتمد إلى حد كبير على الفرص التي تتاح له لممارسة مسئوليات الراشدين، وأدوارهم، والاتجاهات التي يتبناها تجاه كل من النجاح والفشل، والقدرة على تجاوز التحديات.

ومن ثم فحين تكون فترة الارتباط بالأسرة والمدرسة وثيقة الاتصال بالحياة-الطبيعية والواقع الاجتماعي-يكون الانتقال إلى حياة الراشدين عملية يسيرة أو غير مرهقة على الأقل، وتكون خبرات الفرد الماضية مفيدة في إعداده لقبول أدوار الراشدين. وهذا هو ما يجرى عادة في المجتمعات

البدائية، وبعض المجتمعات الريفية البسيطة.

أما بالنسبة للشاب العربي في قطاع الحضر-وقد أشرنا إلى الانفصال الواضح بين خبراته في مرحلتي الطفولة والطلب وبين الواقع الحي ومقتضياته، وبعد سنوات دراسية عديدة لا تساعد كثيرا في تحقيق إمكانياته وازدهار ملكاته، بل وفي حل مشكلات بداية الشباب-فانه يبدأ رحلته مع مرحلة الرشد بأزمة لا تقل في خطورتها عن تلك التي يتعرض لها في بداية مرحلة الشباب.

ولقد أدى ظهور التعليم الرسمي إلى استلاب وظيفة الإعداد للحياة من الأسرة، ولم يعد من الممكن أن يسير الابن في الخط المهني الذي سلكه والده، ولم تعد الأسرة قادرة على مباشرة عملية المهني المتخصص. بل ولم يعد الابن يعلم شيئا دقيقا عن مهنة أبيه، ولم يعد الأب يعلم شيئا كثيرا عن الإعداد المهني لابنه، ومن ثم لم يعد ممكنا أن يساعد الأب حتى في التوجيه المهني لابنه.

وفضلا عن هذا كله، أدى ظهور التعليم الرسمي-وهو علماني أو عقلاني في طابعه العام-إلى ظهور نسق آخر للقيم والعادات والمعارف والمعتقدات وأساليب السلوك مخالف-أو على الأقل غير متفق كله-مع الأنساق التي تسود عادة. وبهذا يدخل الشباب المعاصر في علاقات ويتعرض لتجارب أوسع وأشد تعقيدا من تلك التي كان يتعرض لها نظيره قديما.

ثانيا

وتبدأ متاعب الشاب بعد استكمال تعليمه-سواء توقف عند نهاية المرحلة الثانوية المتوسطة، أو تابع حتى نهاية المرحلة الحالية-في مجال العمل.

ويشكو كثيرون من الشباب من انهم لا يجدون من يساعدهم في اختيار المهن التي يصلحون لها، في الوقت الذي لا تتوافر فيه معلومات كافية عن المهن المختلفة يستطيعون هم أن يمارسوا الاختيار في ضوئها. ونظرا لان عددا كبيرا منهم لا يعرفون كيف يبحثون عن العمل الذي يناسبهم، فانهم يعيشون في هم من أنهم سيعملون في غير مجال تخصصهم، أو سيكلفون بأعمال لم يدربوا عليها أو لم يدربوا عليها تدريبا كافيا.

وفي عدد من الدول العربية-ونتيجة زيادة معدلات النمو السكاني، وبالتالي

معدلات الطلب على فرص العمل، القليلة نسبيا، فان معظم الخريجين يظلون عاطلين مددا قد تصل إلى سنوات قبل أن يحصلوا على عمل، وهذه فترة يصل فيها الشاب إلى درجة واضحة من الضيق بالحياة، وينسى جزءا كبيرا من المعلومات والمهارات التي جمعها في سني الدراسة الطويلة، وتتكون لديه خلالها اتجاهات سلبية نحو المجتمع.

وفي حالات غير قليلة «يوزع» الشباب على فرص العمل بدون التزام بتخصصاتهم الدقيقة. فيجد الشاب نفسه يشغل عملا لم يعد له إعدادا كافيا، وربما لم يعد له على الإطلاق، لا يلتقي مع اهتماماته واستعداداته، ولا يرضي تطلعاته وطموحاته.

بل إن من يحصل على عمل في المجال الذي تخصص فيه، ومن النوع الذي أعد له سرعان ما يكتشف أن ما توافر له من معلومات وخبرات لا يفيد كثيرا في أداء مسئوليات العمل بحد معقول من الكفاءة. وذلك نتيجة لتخلف برامج الأعداد في المدرسة والجامعة عن التقدم العلمي والتكنولوجي، والانفصال الحاد بين نظام التعليم والواقع (فمهارة الناسخين على الآلة الكاتبة عند تخرجهم من المدرسة لا تؤهلهم للعمل، ويحتاجون إلى فترة تدريب طويلة في بعض الأحيان. حتى الأطباء، يوكل إلى بعضهم مسئوليات الإشراف على مستشفيات إقليمية أو أجنحة فيها فور تخرجهم بدون أن يكونوا قد أتيحت لهم فرص التدريب العملي الكافية. نعم، إلى هذا الحد وصل الحال).

وصحيح أن قوانين معظم الدول العربية تحتم أن يتم الاختبار لشغل الوظائف العامة على أساس معايير شكلية-نتائج الامتحانات أو اختبارات معينة وما إليها، ولكن الشاب الذي لا يملك غير قدراته ومهاراته الخاصة يصدمه أن يجد الممارسة الفعلية لا تلتزم بهذا الخط-أحيانا، وأن ثمة حالات يستطيع الشخص فيها أن يشق طريقه صامدا بفضل علاقاته بأشخاص مؤثرين، استعداده للدخول في صفقات شخصية لا بفضل كفاءته واخلاصه وتفانيه.

ويفقد الشاب في مثل هذه الحالة بعضا من تقديره لنفسه، واحترامه لكفاءته، وتظهر عنده-إلى جانب مشاعر اليأس-اتجاهات اللامبالاة، ما دام المجتمع يتصرف بمثل هذه الدرجة من اللامسئولية-بل والهزل.

وفي بيئة العمل-حيث يوجد موظفون مخضرمون-يدفع الشاب إلى التخلص مما بقي لديه من نقاء وجدية، ويكتسب شيئا فشيئا قيما واتجاهات ومواقف «واقعية» أو «عملية» من العمل. والحياة بعامة، تتلخص في أن الهدف ليس الخدمة العامة وإنما الكسب الشخصي، وأن الوسيلة لا يمكن-بل ولا يصح-أن تكون العمل، وإنما أقل قدر منه، إلا إذا أمكن التخلص من مسئولياته بالكامل، وأن تأمين وضع العامل ومستقبله يمكن أن يتحقق من خلال علاقات نفع شخصي مع آخرين مؤثرين.

وفي أجهزة الخدمة المدنية-الأجهزة الحكومية-في معظم البلاد العربية، يندر أن يفلت شاب من هذا المصير «المحزن» له ولمجتمعه. ويتطلب الأمر درجة عالية من قوة الشخصية ونضجها، وقدرا هائلا من احتمال الألم والمعاناة، لكي يستطيع الشاب أن يسير في اتجاه معاكس لهذا التيار.

ويفلت من هذا المصير عدد من الشبان يعملون في مهن تلتقي مع استعداداتهم وتتفق مع تخصصاتهم، وترضي طموحاتهم وتطلعاتهم. ومثل هؤلاء يكشفون عن طاقات هائلة من الكفاءة والتكريس، تبعث في نفس الملاحظ مشاعر الحسرة والألم على الطريقة التي تهدر بها مجتمعاتنا أفضل إمكانياتها وأمضى أسلحتها في، صراعها مع التخلف.

العمل في صورته المثلى هو ذلك الذي يساعد الإنسان في تحقيق ذاته، أي يساعده في تنمية إمكانياته، وهو ذلك الذي يقوم على استخدام ناضج لمهارات الإنسان وخبراته، ويهدف إلى تحقيق الإشباع النفسي والمادي. ولكن الذي يحدث في العالم العربي في الحالات الغالبة هو أن العمل يهدد الطاقات الجسمية بدلا من أن يستخدمها، ويعطل الذهن بدلا من أن ينميه، ويؤدي إلى أشياء غير الإشباع النفسي. ومن ثم، يمكن القول أن العامل «يفقد ذاته».

ومع تعقد تقسيم العمل، وتحول نصيب الفرد منه إلى وحدة يتضاءل حجمها أكثر فأكثر حتى يصبح مجرد حلقة صغيرة في سلسلة طويلة، يفقد العمل وحدته وتكامله ودلالته التي كانت له قديما، ويصبح غير ذي معنى.

ونتيجة للحرص على «تنميط» السلوك في نظام أو روتين معين-من حيث الوقت والترتيب والشكل-يفقد العمل مرونته واتساقه مع الإيقاع الطبيعي للذهن والجسم البشريين، ويصبح رتيبا مرهقا لا يساوي-في نظر

صاحبه على الأقل-ما يتكلفه من طاقة نفسية ما يعود به، فيفقد حتى معناه المادي.

تعاني مجتمعاتنا-إذن من التخلف في إعداد الطاقة السرية والتخطيط لاستخدامها وتشغيلها وتعاني، فضلا عن هذا، من عدم الاستقرار السياسي- والتعقيدات البيروقراطية. وثمة من ناحية أخرى افتقاد المناخ العلمي في محيط العمل، وتأثر نظام الحوافز-والجزاء بصفة عامة-بعوامل شخصية وسوء العلاقات بين العاملين نتيجة لهذا، «وللشللية».

ولما كان الشباب من أشد فئات المجتمع حساسية، وبالنظر إلى طموحهم وتطلعاتهم لأنفسهم ومجتمعاتهم، فانهم من أكثر فئات المجتمع معاناة من هذا الواقع. والذين يحتفظون بنقائهم، وإيجابيتهم وروحهم المعنوية العالية، وشغفهم بالابتكار والتجديد جد قليلين. أما الأغلبية من الشباب فانهم- وبازاء هذه العوامل الدافعة إلى الانحراف عن أهداف المجتمع على الأقل- يستجيبون في صور مريضة عديدة. بعضهم ينحرف فعلا فيستغل الإمكانيات التي يتيحها له موقعه الوظيفي-يسرق، أو يرتشي، أو يختلس، وما إلى ذلك، على حساب مسئولياته الوظيفية وعلى حساب المصلحة العامة. وخيال بعض الموظفين في ممارسة هذه الانحرافات واسع لا يقف عند حدود.

وبعضهم يفقد أيمانه بقيم المجتمع، وحماسه لأهدافه، وجديته في العمل، وبخاصة بعد أن تدله خبرته على أن الالتزام بشيء من هذا لا يعود بكسب حقيقي، وقد يعود بضرر محقق. ومن ثم يلوذ بحرفية القوانين واللوائح، يلتزم بها في عمله مهما ترتب عليها من تعويق وتعطيل وضرر، ففيها سلامته حتى وان كان موقفه منها غير متسق مع الأداء الجاد لمسئولياته الوظيفية. هذا الموقف لا يمليه العجز، فبعض هؤلاء يملكون قدرات ومهارات وخبرات مهنية عالية. ويضطر بعض هؤلاء إلى استعمال الطاقات في مجالات غير العمل من أجل تحقيق أهداف خاصة.

غير أن أزمة الشباب العربي في مجال العمل لا تقتصر على ذلك الذي يمارس في الأجهزة البيروقراطية، وإنما يمتد إلى مجالات أخرى، حتى مجالات الإبداع الفني، يقول أديب شاب «توقفت عن الكتابة بعد مدة من بدئها على أثر أزمة حادة نشأت بيني وبين نفسي من جدوى الكلمة في مجتمع لم يعد يصغي إلا لهدير الإذاعة ومبالغات الصحف، ثم عدت اكتب

(أعمل بفلسفة) قلها وامض...» [1].

ولكن إذا كان الشاب يعبر عن معاناة من أغلال الوظيفة ومن مجتمع الموظفين الراكد الضحل المثبت، فانه لا يتكلم من عمل، وإنما هو يوجه غضبه نحو نفسه أيضا، نحو حالة هو جزء منها-ولهذا تنطوي غضبته على نوع من الوعي الاجتماعي والنقد الذاتي في الوقت نفسه.

ويصور شاب وضع الموظف وعقليته والعلاقات الإنسانية في مجال العمل في عبارة شديدة القسوة إذ يقول: «نحن (الموظفين) خائفون دائما... من الخطأ، من العقاب من الرؤساء، من نفاذ النقود في آخر الشهر. وعلى هذا، فنحن حذرون مداهنون مرتعدون إلى النخاع. وهذا يعني إلغاء كل العواطف الإنسانية النبيلة، وإذا امتدت بين بضعة أفراد وشائج من التبادل الصادق الودود، دارت قرون الاستشعار... باحثة وحملقت العيون المرعوبة دهشة، واهتزت الأسلاك بالوشاية، وانقض الأمر الإداري يفرق ما اجتمع، ينشر الذعر، ويعيد الموظفين إلى القواقع التي يحملونها فوق ظهورهم جاهزة للهرب». [2] ولا يخلو هذا التصوير للموقف من حساسية ومبالغات، ولكنه يعكس الجو الخانق الذي تعيش فيه بعض الجماعات، والمرارة القاسية-والمدمرة أحيانا-التي يتركها في بعض النفوس مرهفة الحساسية.

لهذا كله، ونتيجة لنقص التربية السياسية، أو عدم كفاءتها لا يجد الشاب دافعا قويا للحماس للعمل الاجتماعي، ويتحول العمل بالنسبة لبعض الشباب إلى نشاط مرهق خال من القدرة على الإرضاء النفسي، يضطرون إلى ممارسته من أجل العيش، ويفقدون فيه إنسانيتهم التي لا تتحقق أوضح ما تتحقق إلا من خلال العمل، ويهدر المجتمع طاقاتهم، وربما كانت افضل جانب من ذخيرته البشرية.

وفي بداية الشباب-بخاصة-يتجه الذكور إلى تحقيق نوع من البطولة: فهم يريدون أن يكونوا مرموقين في مستقبلهم ضباطا في الجيش أو البحرية أو الطيران أو أطباء أو مهندسين أو صيادلة. أما الإناث، فهن يملن إلى «عشق البطولة» فالفتاة تريد أن تكون كمدرستها أو كممثل آخر تحتذيه.

إلا أن الشاب يفاجأ بأنه غير مطلوب منه أن يعمل أو يكفي أن يعمل قليلا، ويجد أن وضعه في العمل والعائد عليه منه لا يعتمدان على ما يبذله من جهد وما يحققه من إنتاج، وإنما يتوقفان على نوع العلاقة الشخصية

التي يقيمها مع رؤسائه وزملائه. ويلاحظ، بأسى عميق، أنه لا توجد معايير عامة معقولة تستند إلى محكات مهنية لتقييم الأداء، وأن الأمر كله يتوقف على اعتبارات شخصية.

وفضلا عن هذا يفجع بعض الشباب حين يجدون أن علاقات العمل هي علاقات ذاتية مريضة تخلو من جو الإثارة المهنية والحفز والدفع، وتتسم بقدر كبير من المنافسة غير النظيفة التي تستعمل فيها كثير من الأسلحة «القذرة» مثل الوقيعة، وما إليها.

وثمة، من ناحية ثانية، الانخفاض الرهيب في الأجور في بعض الدول العربية. والذي يكتسب أهمية لا في حد ذاته، وإنما بمناقشته في ضوء التوزيع النسبي للدخول أو نظام توزيع الثروة(وعلى سبيل المثال، في حين يعجز الشاب الذي يحمل شهادة جامعية ويعمل حديثا عن إعالة نفسه في حياة معيشية مستقلة، فان الامتيازات التي يحصل عليها العاملون في المستويات العليا يصل إلى حدود «رهيبة») والخطر الذي ينطوي عليه انخفاض الأجور لا يقتصر على الجوانب المادية-وهي بالغة الأهمية-ولكنه يتعداها إلى الإحساس بالظلم الاجتماعي، وبأن لا قيمة للجدية والتكريس.

ومن ثم يترتب على طريقة استخدام العربية لطاقات الشباب فيها فاقد هام، يصل إلى حدود خطرة في بعض الحالات. فثمة، من ناحية، تسرب بعض من أفضل عناصر الشباب إلى الخارج، إلى خارج العالم العربي كله. وهناك من ناحية أخرى قلة إنتاجية العناصر التي تختار البقاء في بلادها وترفض-لاعتبارات مختلفة-الهجرة إلى الخارج. ونظن أن إنتاجية العمل في معظم الدول العربية هي في أدنى مستوياتها في العالم كله.

فليس من الغريب أن أكثر من نصف من هم في سن العمل (القادرون عليه) من غير طلب المدارس والمعاهد العليا والمعوقين في الكويت لا يعملون وهو فاقد خطير بغير نظير حتى في أكثر دول العالم ثراء. ويحدث هذا في الوقت الذي تضطر فيه الكويت إلى استقدام الجزء الأكبر من القوى العاملة اللازمة من الخارج، حتى لقد أصبح أكثر من نصف سكان البلاد من الوافدين.

وفي كثير من الدول العربية-حتى أكثرها فقرا وتخلفا-يرفض قطاع كبير من الشباب-أو على الأقل لا يرتاحون إلى-العمل في الريف، ويحملون

ما وسعهم الجهد وأسعفتهم الحيلة على الاستقرار في المدن، والمدن الكبرى بصفة خاصة، والعواصم بصفة أخص.

فبالنظر إلى الهوة الواسعة التي تفصل بين مستوى الحياة في الريف العربي-الممعن في التخلف، ومستوى الحياة في المدينة-التي تفرض على بعضها بعض ملامح أرقى المدن الأوروبية أحيانا، شان معظم الشباب يرفضون فكرة العمل في القرى، في ولظروف-معيشية عادة-يتمادى بعض الشباب ويخشون العمل بعيدا عن الأسرة. هذان الاتجاهان يشيعان بين الإناث اكثر مما يترددان بين الذكور، وبين أبناء الطبقتين الوسطى والراقية اكثر مما يحدث بين الشباب من الطبقة الدنيا.

ومن ثم ففي حين يفتقر الريف العربي إلى الصفوة المتعلمة القادرة على تطويره، بل وحتى اللازمة لتوفير الحد الأدنى من احتياجات إدارة المرافق الأساسية فيه، نجد المدن مكدسة بعمالة زائدة في معظم الحالات (الطب، والصيدلة، والتعليم، والثقافة، وغيرها). ومن الطريف-والمؤلم في الوقت نفسه-أن جهاز الدولة في عدد من المجتمعات يستجيب لهذا الضغط أو الطلب، ويركز في المدن معظم مشروعات التنمية الاقتصادية والتطوير الاجتماعي حتى بعض خدمات تطوير الريف واستصلاح الأراضي وما إلى ذلك.

ومع أن ثمة اتجاها ناميا نحو التخلص من بعض الأفكار القديمة تجاه العمل التي تميز بين مهن «ذهنية»، ومهن «يدوية» وترجح الفئة الأولى كثيرا على الثانية، فان الأغلبية من جيل الشباب ما زالت تفضل العمل الذهني أو الإشرافي على الأقل، وتنظر بشيء من الفزع لفكرة ممارسة أعمال يدوية حتى حين يكون العائد منها أكبر من العائد في حالة الأعمال الذهنية. وحتى عهد قريب بقريب وبالنظر إلى ضيق سوق العمل، ونقص إغراء شروطه وعدم استقرار ظروفه-كانت نسبة عالية من الشباب تفضل العمل في الحكومة أو في القطاع العام على العمل الحر. بل إن كثيرا من الشباب لا يميلون إلى العمل المتضمن جهدا في الميدان ويقبلون على العمل في المكتب. ومثل هؤلاء ينفصلون عن الواقع، ويفقدون ملاحقة نبضه وهم في شرخ شبابهم، ويصيرون بسرعة عالية على العمل الاجتماعي بدلا من أن يكونوا عونا في إنجازه.

(ولكن ثمة شواهد عديدة على أن قطاعا كبيرا من الشباب يعيد النظر في مواقفه من العمل والمهنة. فكثيرون منهم يقبلون الآن على فرص «العمل الحر» المغرية في تسابق وبأعداد متزايدة، يبحثون عن «عن تحقيق ذواتهم» بعيدا عن القطاع الحكومي والقطاع العام. وتستأثر شركات القطاع الخاص والاستثمار الأجنبي«بأفضل عناصر خريجي الجامعة في مصر-مثلا-ويرفض كثيرون منهم فرص عمل في الحكومة كانت من أغلى أحلامهم منذ سنوات)[3].

وتتبنى بعض قطاعات الشباب العربي اتجاهات غير مواتية لضرورة استغلال الطاقات المتاحة للمجتمع أقصى استغلال ممكن والتخلص من بعض الأفكار التقليدية التي لا تستند إلى مصلحة اجتماعية حقيقية. ومن ذلك، مثلا، أن أكثر من نصف الطلبة الجامعيين في العينة في إحدى الدراسات المصرية رأوا «أن البيت هو المكان الطبيعي للمرأة»، وأن اكثر من خمس هؤلاء الطلبة ذهبوا إلى أنه: «ينبغي أن يقتصر توظيف المرأة على (مهنتي) التمريض والتدريس»، ورأى حوالي نصف الطلبة أنه «ينبغي أن يأخذ الرجل أجرا أكبر من أجر المرأة على العمل نفسه». [4] ومن الأمور اللافتة للنظر أن نسبة ضئيلة من طالبات الجامعة في العينة في تلك الدراسة رأين رأي الذكور فيهن (ونخصص الفقرات التالية لمناقشة هذه النقطة بشيء من التفصيل). والمتوقع أن يكون الشباب أشد محافظة في المجتمعات العربية الأخرى-أو أغلبها على الأقل.

ثالثا

قصدنا من المناقشة السابقة أن نبين أن علاقة الشباب بالعمل المنتج تنطوي على مشكلات يصل بها إلى حد الأزمة. أما عمل «الفتاة» فانه ينطوي على «مأساة» حقيقية سواء بالنسبة لها أو بالنسبة للمجتمع.

ولقد أوضحنا في موضع سابق (الفصل الثاني من هذا الباب) كيف أن مأساة المرأة في هذا المجال تبدأ منذ طفولتها الباكرة، حين تفهم-من نظرة الأسرة إلى تقسيم العمل بين الجنسين تحديدها لمعنى الذكورة والأنوثة-أن الفتاة لم تخلق للعمل المنتج في المزارع، أو المناجم، أو المصانع، مثلا، وإنما خلقت لدورين محددين هما الزوجية والأمومة. وتكرس هذا التصور لدور

المرأة في الحياة من خلال تجارب الفرد اليومية، وتوقعات الآخرين منه، ونوع الإعداد الذي يوفر له في مختلف مراحل عمره.

ومن ثم فان نسبة من يلتحقن من الإناث بالمدارس ومعاهد التعليم العالي أقل بكثير من نظيرتها. عند الذكور، ونسبة التسرب عن التعليم-أن التوقف عن استكماله-أعلى عند الإناث منها عند الذكور، وهى ترتفع كلما تقدمن في مستوى التعليم.

وتخرج الفتاة بانطباع أن تعليمها هو في أحسن الأحوال نوع من تنمية بعض إمكانياتها الذاتية وقدرتها على فهم الحياة، وليس الغرض منه أصلا ممارسة عمل منتج. ولهذا نادرا ما تتردد الأسرةفي وقف تعليم بناتها في أي وقت تتاح لهن فيه فرصة الزواج. بل إن كثيرا من الأزواج والشباب لا يسمحون لزوجاتهم بالعمل حتى إذا كن قد بدأنه قبل الزواج.

ولهذا تضيع على الفتاة فرص تنمية قدراتها الحقيقية وتفجر إمكانياتها، بل إن ذكاء بعضهن يتوقف عن النمو بالنظر إلى فقر تجاربهن وضعف حماسهن واعتقادهن بأن الأنثى تعيش بجسدها، وأن المهم أن تعرف كيف تستعمله للإثارة، أي تستعمله استعمالا غير إنساني حتى في حالة زواجها.

وفي حين لا يجد المجتمع في عزوف الرجل عن الزواج ما يعيبه أو يقلل من قيمته الاجتماعية، فان تأخر المرأة في الزواج يحط من قيمتها الاجتماعية كثيرا. ولا يغير من نظرة المجتمع إليها إنها قد تنجح نجاحا واضحا في مجال عمل منتج. وينعكس هذا على تقديرها لذاتها. ومن ثم، يلح على المرأة أن تحقيق ذاتها إنما يكون بالزواج وفيه. ويؤثر هذا على تصرفها نحو أهداف أخرى في الحياة، وسعيها من أجل تحقيقها.

والمؤسف حقا أن هذا النمط المؤلم لتقسيم العمل وتحديد الذكورة والأنوثة يرسخ في وجدان المرأة ذاتها حتى ليصبح جزءا منها، فنجد معظم الإناث يرونه «طبيعيا»، أو ناتجا من فروق طبيعية بين الجنسين، وليس راجعا إلى ظروف تاريخية. وما زالت نسبة كبيرة منهن تملن إلى الاعتقاد في أن «المرأة خلقت للبيت»، أو أن «مكان المرأة الطبيعي هو البيت»، وأنها «أضعف من أن تنافس الرجل في مجال العمل»، أو «يستطيع الرجل أن يحقق ما لا تستطيع المرأة أن تحققه في ظل ظروف متساوية»، ومن ثم «ليس من حق المرأة أن تطالب بالأجر الذي يحصل عليه الرجل على العمل

نفسه».

وليس من الغريب بعد هذا كله أن ترفض النسبة الغالبة من الفتيات بعد تخرجهن العمل في الريف، أو يخشين العمل بعيدا عن الأسرة، أو حتى الذي يقتضي النزول إلى الميدان. وتصاب بعضهن بالذعر من مجرد احتمال أن ينطوي عملها على أعباء يدوية، أي يقتضيها استعمال يديها بدلا من إصدار التعليمات. (هذا الوضع، بالطبع، يمثل الاتجاه الغالب فقط، وهو لا ينفي أن ثمة فتيات يعملن ف أعماق الأرض في المناجم أو في مناطق نائية في الصحراء، وأن ثمة بنات من «كرائم العائلات» يعملن «مضيفات» في كافتيريات الفنادق أو المطاعم الكبرى. وهؤلاء، على أي حالة، يقدن الثورة على الوضع القائم ولا يمثلنه).

ويكرس المجتمع أو السلطة فيه بمعنى أدق هذه الاتجاهات لدى المرأة، فتحرص أجهزة التوظيف على تشغيلها في أعمال معينة كالتدريس والطب والتعريض، والسكرتارية، وما إلى ذلك، من العمل في القطاع الخدمي «حفاظا على المرأة من الغواية» من جهة، وتأكيدا للاعتقاد «بأنها لا تصلح لبعض الأعمال-أعمال القضاء، والدبلوماسية، والأعمال التي تتطلب جهدا عقليا أيضا»-من جهة أخرى.

وحتى هذه اللحظة ما زالت مناقشة أهلية المرأة-أو صلاحيتها-لشغل وظائف معينة، مثل القضاء، تأخذ شكلا خاطئا لا يستند إلى أساس علمي سليم، مهينا للمرأة كجنس، بل وللرجل كمسئول عن تصريف شئون المجتمع. ففي العاشر من يونيو 1977، نشرت صحيفة الفكر الديني بصحيفة الأهرام القاهرية رأيا لأحد كبار رجال الدين يقول فيه في تبرير حرمان المرأة من شغل مناصب قضائية...«فان القضاء، والفصل في الأمور عموما، لا يتوقف فقط على الذكاء والعلم، وإنما يحتاج كذلك لكثير من الصلابة والقدرة على عدم التأثر بما يبديه المتنازعون من عبارات عاطفية... والمرأة بطبيعتها مخلوق عاطفي... وإذاأضفنا إلى هذا ... إن المرأة تتعرض بحكم تكوينها فسيولوجيا لبعض التطورات النفسية والبيولوجية، بالإضافة إلى فترات الحمل والوضع، فان كل هذا يجعلها في حالات مرضية تؤثر في أحكامها من ناحية، وتعطل الحكم في بعضها، مما يضر بالمصلحة العامة، من ناحية أخرى».

ولقد نشرت صحيفة الأهرام القاهرية في أحد أعدادها الصادرة في أبريل 1977- على ما نذكر-تحقيقا يتضمن شكوى من اثنتي عشرة مهندسة زراعية من خريجي كليات الزراعة بالجامعات المصرية. ومن الطريف-والمؤسف-أن الشكوى لا تتعلق بالمرتبات ولا بالعلاوات، ولا بقسوة ظروف العمل، ولا بظروف مماثلة، ولكن مضمونها أنهن تسلمن عملهن في مديرية الزراعة بمحافظة الجيزة قبل ستة اشهر ومن وقتها لم يكلفن بعمل من أي نوع، وأنهن يقضين وقت العمل في حديقة الإدارة بمدينة الجيزة يحتسين القهوة والشاي، ويقرأن الصحف، ويقتلن ساعات الصباح في حديث لا يمكن أن يكون منتجا. ويسلم مدير الزراعة بالجيزة بكل ما جاء في شكوى المهندسات الزراعيات، وحين سئل عن تفسيره للوضع، قال أنهن «عمالة زائدة» بالنسبة لاحتياجات العمل بإدارته بمدينة الجيزة. ولما كن إناثا، فانه لا يقبل أن يكلفهن بعمل في قرى محافظة الجيزة، لان ذلك يعرضهن لمخاطر لا تقبلها «تقاليده المحافظة»، فهذا من قبيل «العيب». المهندسات الزراعيات ترفضن هذه «الوصاية الأخلاقية»، ولا ترين غضاضة في العمل في ريف المحافظة، وكل ما يطلبنه هو توفير وسائل مواصلات واتصال سهلة ومنتظمة.

وأيا كان العمل الذي تقوم به المرأة، فان تقدير الرؤساء والزملاء لإنجازها يتم على أساس كفاءتها فيه وحماسها له، وإنما على أساس مظهرها في موقع العمل ونوع العلاقات التي تنشأ بينها وبين الآخرين فيه، أي أن التركيز يكون على دورها كأنثى حتى في موقع العمل.

ولهذا، وبدون مبالغة، يخسر المجتمع جهد نصف طاقته البشرية تقريبا، وتفقد المرأة إنسانيتها، أو جزءا هاما منها على الأقل.

ولعل من اكثر الأمور إثارة للدهشة-والألم-ما يثار الآن مصر-وبعض البلاد العربية الأخرى-من الدعوة لان تتوقف المرأة عن العمل وتلزم البيت، تقوم بمهمتها الطبيعية كزوجة تقدم الراحة والمتعة للرجل، وكأم، توفر للنشء فرصا كافية لتربية «صالحة»، وأن تتقاضى نصف اجرها مع ذلك. وتستند الدعوة في ظاهرها إلى متاعب المرأة في العمل-المواصلات مثلا-من جهة، ونقص إنتاجها-في شكل عدد أيام الغياب أو التأخر والإجازات المرضية-من جهة ثانية، والمشكلات التي يواجهها الزوج والأبناء بسبب

اشتغالها من جهة ثالثة.

والدعوة في حقيقتها نوع من «الردة» الاجتماعية، في وقت تحرص فيه كثير من المجتمعات على رفع معدلات تشغيل المرأة-(ومعدلات تشغيلها في بلادنا تافهة إذا قيست بنظيراتها في دول أخرى كثيرة) في محاولة تعبئة كل القوى القادرة على العمل من أجل زيادة معدلات الإنتاج الاجتماعي.

وفضلا عن أن أصحاب هذه الدعوة يغفلون أو لا يفطنون إلى أن مشكلات تشغيل المرأة-المواصلات إلى العمل، حضانة الأطفال، وغيرها هي من خلق المجتمع ولا جريرة للمرأة فيها، فانهم لا يدركون أن اشتغال المرأة هو نوع من تحقيق الذات، والتحرر من سيطرة الرجل اقتصاديا ونفسيا. وهذا مما يستثير غيظ الرجال الذين يدركونه، ويدفعهم إلى مقاومته).

الهوامش والمراجع

1- «هكذا يتكلم الأدباء والشباب، شهادات واقعية وتعليقات»، الطليعة (القاهرية)، السنة الخامسة (سبتمبر 1969)، ص ص 13-61.
2- المرجح نفسه، ص 21.
3- محمود عبد القادر محمد، «التوافق النفسي والاجتماعي للشباب الكويتي ومشكلاته»: الفئة العمرية من 13-18 سنة، الكويت، رابطة الاجتماعيين، 1975، ص 15.
4- عماد الدين سلطان، «الصراع القيمي بين الآباء والأبناء وعلاقته بتوافق الأبناء النفسي»، القاهرة، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، 1973. جدول رقم 7.

التجانس واللاتجانس في مواقف جيل الشباب العربي

أشاعت كتابات جورج ستانلي هول-الذي تصور المراهقة والشباب على أنها «فترة عواصف وتوتر وشدة» نظرة قاتمة مستسلمة إلى الشباب ومشكلاتهم، وهو اتجاه كتابات يونج وسيجموند فرويد، وان كان هذان قد تخلصا من كثير من «الانطباعية» التي اعتمد عليها هول، وكانا من طلائع رواد الاتجاه الإكلينيكي في دراسة أزمة المراهقة والشباب.

ومنذ بداية النصف الثاني من القرن الحالي، طرأ على دراسات الشخصية الإنسانية ودورة حياة الإنسان تحول بالغ الأهمية، تمثل في بحوث الأنثروبولوجيين الأول (ومارجريت ميد وروث بنديكت بصفة خاصة) للجماعات البدائية. ولقد كانت هذه الدراسات حاسمة في إبراز حقائق هامة من أخطرها أن الأزمة ليست قسمة جوهرية وعامة في مرحلة المراهقة والشباب، فهي لا تكاد تظهر في بعض الجماعات البدائية، وأن الأمر فيها يرجع

في المحل الأول إلى الظروف الحضارية-نظام الإنتاج، ونسق القيم، وصيغ العلاقات الاجتماعية، وما إلى ذلك.

وشهدت الفترة منذ منتصف القرن ازدهارا لدراسات حول المراهقة والشباب، استفادت من بعض الأفكار التي قدمها الاتجاهان الآن وتجاوزتها، وبخاصة في مجال علم الأنفس الاجتماعي الذي تميزت دراساته بالملاحظة الدقيقة والتحليل المتعمق.

ولقد تطرقت الدراسات الأولى-وبخاصة دراسات هول ويونج وفرويد- في النظر إلى المراهقين والشباب على أنهم مجموعة متجانسة، فأغفلت فوارق عضوية ونفسية وعقلية هامة تميز بعضهم عن البعض الآخر، وأهملت تغاير الظروف الحضارية والاجتماعية التي تختلف باختلاف أجيال الشباب والمجتمعات-وربما الطبقات التي ينتمون إليها. وتطرقت دراسات حديثة كثرة في تأكيدها على تمايز أنماط المراهقين والشباب إلى حد القول بعدم وجود مشابهة تامة بين اثنين من المراهقين، حتى لقد ذهب بعضها إلى أن عدد الأنماط المختلفة في المراهقة لا يقل كثيرا عن عدد المراهقين أنفسهم.[1]

وبدون محاولة للتوفيق التعسفي-أي التلفيق-يمكن أن يقال أنه بالرغم من وجود ما يميز المراهقين والشباب بعضهم عن البعض الآخر من النواحي العضوية والنفسية والعقلية والاجتماعية وغيرها، فان من الممكن أن نوزعهم بين فئات واسعة تجمع بين من يندرجون في كل منها قسمات عامة مميزة، وان اختلفوا بعضهم عن البعض الآخر في التفاصيل أو السمات غير الجوهرية.

ولقد التزمنا في طرح أزمة جيل الشباب في المجتمع العربي، ملامحه، والمتغيرات التي تؤثر فيه ومشكلاته (أزمة الهوية، والصراع بين الأجيال، والتوافق مع المجتمع) التزمنا في عرضها وتحليلها ومناقشتها خطا يوحي بأن جيل الشباب العربي متجانس في ملامحه العامة، وفيما يتعرض له من مشكلات، وفي الرد عليها. وهذا غير صحيح. ولهذا خصصنا الفقرات الختامية للباب الثاني من الدراسة لتوضيح موقفنا في هذه النقطة، بحيث نزيل الغموض من حوله.

وقبل أن نمضي في المناقشة، نود أن نشير إلى أن النظر إلى جيل الشباب العربي على انه متجانس، أو تصويره على أنه غير متجانس، يتوقف

إلى حد ما على المستوى الذي ننظر منه إليه. فإذا كنا نراه من مستوى موقفه التاريخي العام باعتباره استجابة لظروف اجتماعية اقتصادية وحضارية محلية وعالمية، فان من الممكن أن نعتبره جيلا متجانسا إلى درجة تبرر إغفال الفروق بين عناصره المختلفة. أما إذا كنا نتناوله في حدود موقف خاص أو مشكلة بعينها، فان من الخطأ أن نغفل التغاير بين فئاته المختلفة. يتوقف أمر التجانس أو اللاتجانس-إذن-والى درجة كبيرة على الأقل-على مستوى الرؤية: فكلما نزلنا من مستوى «التضاريس العامة» إلى مستوى «التفصيلات الدقيقة»، قلت درجة التجانس وازداد التغاير وضوحا.

ويمكن أن نلاحظ أن معظم الدراسات الموضوعية الجادة التي أجريت في موضوع الشباب العربي قام بها علماء النفس، والتزم أغلبها بالخط التقليدي لعلم النفس في منطقة المدنية الأوربية الغربية-والذي يتمثل في تفسير سمات الشخصية الإنسانية بعضها في ضوء البعض الآخر أو في ضوء متغيرات لا تخرج عن نطاق الجماعات الصغيرة إلا نادرا.

ومن ثم فان الاتجاه الغالب على هذه الدراسات هو الحديث عن التغاير من ثلاث زوايا:

أولاها: زاوية الجنس:

والثانية: زاوية السن.

والثالثة: زاوية المشكلات نفسها.

وبهذا تغفل أبعاد في غاية الخطورة، مثل الفروق الحضارية العامة-بين حضارة الريف وحضارة المدن مثلا-والفروق الاجتماعية الاقتصادية-بين الطبقات الاجتماعية المختلفة بعبارة أدق، وما إلى ذلك. وفي تقديرنا أن إغفال مثل هذه المتغيرات (الحضارية والاجتماعية الاقتصادية) لا يؤدي فقط إلى قصور في تغطية العوامل التي تؤثر في جيل الشباب العربي، ولكنه يقود إلى أحكام غير دقيقة-وربما خاطئة-بالنسبة لملامحه، ووضعه، ومشكلاته، وما إليها.

ونحن لا نريد بهذا أن نقلل من شأن المتغيرات التي يتناولها علماء النفس وغيرهم بالدراسة،ولا أن ننكر أهميتها في موضوعنا هذا، ولكننا نرى أنه من الضروري أن توضع في وضعها الصحيح كمتغيرات «وسيطة»

على احسن الاحتمالات تباشر تأثيرها لا بصورة مطلقة، وإنما كوسائل لعوامل أخرى أسبق منها في الأهمية، وان كانت أبعد-للرؤية السريعة-عن الموقف الذي تتفاعل فيه العوامل، وتظهر فيه الاشكالات. وهي العوامل الاجتماعية والحضارية التي استعرضناها في مختلف فصول الكتاب.

وهنا يلزم أن نوضح أمرا على جانب كبير من الأهمية، وهو إن كل عامل من العوامل التي تتأثر بها المراهقة والشباب ليست له، على حدة، قيمة كبيرة. وإنما يتوقف أثره على مجموعة من العوامل الأخرى التي قد توجد إلى جانبه وعلى الطريقة التي تتفاعل بها هذه العوامل معه.

فإذا اعتبرنا عاملا مثل ترتيب المراهق بين اخوته (كأن يكون أكبرهم أو أصغرهم أو اكبر الذكور... الخ)، فانه يصعب التنبؤ-من معرفة هذا الترتيب وحده-بما يمكن أن يكون له من أثر في تكييف المراهقة. ذلك أن هذا الترتيب لا يحمل دائما بطريقة واحدة، وإنما عمله باختلاف بعض العوامل الأخرى: مثل ثقافة كل من الوالدين، ونضجهما الوجداني، وما إليهما، ليس هذا فحسب، بل لقد تختلف معاملة اثنين من الآباء لابنهما الأكبر-مثلا- فيسرف الواحد في تدليله ويمعن الآخر في القسوة عليه. كلا الأبوين يستهدف التخصيص في رعاية الابن الأكبر، كل من وجهة نظره. ولقد يحظى أحد الأبناء من غير ذوي الترتيب الممتاز رعاية لا يلقى مثلها أخ له متميز في الترتيب، وذلك بسبب مرض الأول المتكرر أو تفوقه في بعض الاستعدادات التي تصيب اهتمام أحد الوالدين أو كليهما... إلى غير ذلك من الظروف التي يمكن أن تحيط بالوضع الخاص للمراهق في الأسرة، فتجعل له معنى خاصا في كل حالة، ويختلف بالتالي تأثيره في صورة المراهقة. (2)

وفضلا عن أن الابن الأكبر يمثل التجربة الأولى للوالدين يجربان فيه أفكارهما وخبراتهما التربوية، فانه يكون عادة محط آمالهما وتطلعاتهما في الدراسة والزواج والحياة. وقد يدفعهما هذا إلى تدليله أو القسوة عليه. ويزيد من تعقيد وضعه انه لا يجد في الأسرة من يحذو حذوه في مواجهة مشكلات ارتقائه.

ومن الشائع أن يواجه اصغر الاخوة ضغطا غير عادي من والديه واخوته الذين يقاومون تطلعه إلى النضج والاستقلال ويصرون على أن يعاملوه

كطفل. وكذلك الحال بالنسبة للابن الوحيد، أو الذكر الوحيد، أو الأنثى الوحيدة، وهكذا.

وبالرغم من وجود فروق فردية-واضحة أحيانا-داخل كل من الجنسين، يبدو أن الذكور يحتاجون للنضج لفترة أطول مما تحتاج الإناث. ويتحقق النضج بالنسبة لهم بدرجة من الاتساق بين مكوناته أقل مما يحدث في حالة الإناث-ويبدأ التحول من الطفولة إلى الشباب متأخرا في حالتهم عنه عند الإناث.

ونلاحظ أن نقد الذكور من الشباب للنظام الاجتماعي ورفضهم له وتمردهم عليه، يأخذ شكلا عنيفا ويتجه نحو السلطة وممثليها وما يرمز إليها-أما تمرد الإناث فيتجه الجزء الأكبر منه إلى مجال الجنس ووضع المرأة في المجتمع، سواء في مجال القيم والأفكار أو في مجال السلوك والتصرف. وان كان هذا لا يعني أن الأمر يصل إلى التخصيص، فان ثمة عديدا من القضايا المشتركة تجمع بين الجنسين، الثورة من أجلها أو عليها.

وتتفق دراسات عدة على أن متوسط حجم المشكلات الكلية للتوافق بالنسبة للبنات أعلى منه عند الذكور، ومما يجعل لهذه النتيجة أهمية في نظر البعض أنها صادقة بغض النظر عن الفروق الثقافية-الحضارية-أكدتها بحوث في مصر، وفي الكويت، وفي الولايات المتحدة الأمريكية [3].

وفي تفسير هذه الظاهرة، يذهب بعض الباحثين إلى «أن الذكور اقل استهدافا لمشكلات التوافق من (الإناث). وأنه من الممكن أن نفسر اختلاف درجة الاستهداف الذي يتحدث عنه هؤلاء الباحثون لا يرجع إلى طبيعة المواقف الاجتماعية التي يعيش فيها الشباب من الجنسين والمسئوليات التي يتحملها[4]. ففي رأي هؤلاء أن كبر حجم المشكلات النفسية عموما-ومشكلات التوافق خصوصا-عند الإناث (إذا ما قورن بالذكور) لا يرجع إلى اعتبارات حضارية بقدر ما يعزى إلى اعتبارات تتعلق باختلاف طبيعة المراهقة عند الجنسين» [5].

وعلى الرغم من شيوع هذا التفسير في الدراسات النفسية، نجد تحفظات هامة عليه. إذ تغفل الدراسات التي تنتهي إلى مثل هذه النتائج دلالة بعض المادة التي تقدمها هي نفسها والتي تشير بشكل قاطع إلى أنه إذا كانت هناك مجالات من مجالات التوافق-التوافق مع الذات أو قبول

الذات والتوافق مع الأسرة-تزيد فيها مشكلات الإناث على مشكلات الذكور، فان ثمة مجالات تفوق فيها مشكلات الذكور مشكلات الإناث (ومن أمثلتها إشباع الرغبات الجنسية والاستقرار الاقتصادي، والنشاط السياسي والعمل الاجتماعي بصفة أعم، وهي مجالات يبدو أن مسئوليات الذكور فيه تزيد على مسئوليات الإناث).

وحتى لو سلمنا بزيادة المشكلات عند الإناث عنها عند الذكور، فليس صحيحا أن هذه الأزمة ترجع إلى اختلاف طبيعة المراهقة بالنسبة للجنس لا إلى اعتبارات حضارية. فباستثناء بعض الأعراض المرضية البسيطة التي تأتي بها تحولات فترة بداية الشباب للإناث والتي تترتب على اضطراب الحيض، تنبثق معظم المشكلات لا من التغيرات العضوية أو العقلية أو النفسية في حد ذاتها، وإنما من فهم المجتمع لها، وموقف الآخرين منها، واستجابتهم لها. (ولقد خصصنا لمناقشة هذه النقطة الفصلين الأول من الباب الأول والأول من الباب الثاني).

وتبدو الإناث أوفر حساسية وأسرع إلى الانفعال-العنيف عادة-من الذكور، فنوبات «الانفجار الانفعالي» اكثر شيوعا بينهن منها بين الذكور، ونوبات الانفجار في البكاء أمر يكاد يكون قاصرا عليهن. وربما كان ذلك راجعا إلى أن الكف أو الحرمان الذي تتعرض له رغبات الأنثى أقوى وأعنف عما يحدث بالنسبة للذكر. ومن ثم فان خوف الفتاة من عدم استقرار العلاقات الأسرية، وانزعاجها لفشل علاقة الحب أو انهيار صداقة، وقلقها على صحة من يعنيهم أمرها وما إلى ذلك، هي من الأمور التي تفسد عليها حياتها، ولو لفترة على الأقل.

لقد تركز ما يسمى «حركة تحرير المرأة» على المظاهر الخارجية لوضعها في المجتمع والجوانب الشكلية فيه-كالحجاب، وقليل من الجوانب الموضوعية فيه مثل حق التعليم وحق العمل، ولم يمتد إلى جوهر القضية، وهو مركز المرأة بالنسبة للرجل والعلاقات بين الجنسين «ويبدو أن كثيرا من النساء-لظروف تاريخية وحضارية-لسن على استعداد لدفع ثمن ثورة التحرير الكامل وتحمل مسئوليات الحرية الحقيقية. فالإناث بصفة عامة-لسن أقل محافظة ومسايرة للتقاليد والعادات ومراعاة لمقتضياتها من الذكور (وان كان هذا لا ينطبق على قضايا معينة مثل وضع المرأة في المجتمع والأمور التي تعنى

شخصها بالقدر الذي ينطبق به على الموضوعات أو الأمور الأخرى). والتحول الذي يطرأ على الاتجاهات المحافظة لدى الإناث قرب نهاية التعليم الجامعي بالقياس إلى ما كانت عليه اتجاهاتهن في نهاية المرحلة الثانوية أو قبل حوالي أربع سنوات-أقل من التغير الذي تتعرض له الاتجاهات المحافظة عند الذكور في الظروف نفسها. وربما كان الأمر راجعا إلى أن عوامل التغير التي يتعرض لها الذكور أكثر وأعمق من تلك التي تتعرض لها الإناث.[6] ويحدث أحيانا أن يكون الميل إلى المحافظة أقوى عند الذكور منه لدى الإناث، وفي مثل هذه الحالات يغلب أن تأتي الإناث من مستويات اجتماعية أرقى، وبالتالي اكثر ليبرالية-من المستويات التي يأتي منها الذكور.

ومن المجالات التي تبدو فيها آثار التشويه الاجتماعي لشخصية الشباب اتجاهات الشباب نحو مكانة الفرد في المجتمع. صحيح أن الشباب لم يعودوا يوافقون على أن يتحدد مركز الشخص في نظر الآخرين تبعا لجنسه ونسبه، ويرفضون أن يكون المظهر أو الثروة أساسا سليما لمقدار ما يمنح الشخص من احترام. ومن الأغلبية الساحقة-فوق ثلاثة أرباع-من الشباب الذكور ونسبا كبيرة (تزيد على النصف) من الإناث-في إحدى الدراسات ترى انه «إذا تساوت المرأة والرجل في جميع النواحي، فيجب أن يظل للرجل أفضلية عليها». وأنه «يستطيع الرجل أن يحقق ما لا تستطيع المرأة تحقيقه حتى في الظروف المتساوية».

ومع أننا نلاحظ اتجاها بين الشباب نحو المطالبة بالاستقلال والحرية الشخصية في التفكير واتخاذ القرارات المتعلقة بمستقبلهم، والتصرف في شئون حياتهم اليومية (الاستذكار، واختيار الملابس، والأنفاق الخاص، واختيار الأصدقاء، وشغل وقت الفراغ والترويح، وغيرها) فان الإناث أقل تطرفا وأقوى ميلا إلى قبول تدخل الكبار، واكثر استعدادا للطاعة والامتثال، من الذكور.

وهذا أمر لا نعتقد أنه يرجع إلى اختيار مبدئي حر بقدر ما يرجع إلى طبيعة وضع المرأة في المجتمع ففي مقدور الشاب الذكر أن يذهب بصراعه مع الأسرة والكبار إلى حد الاستقلال عنهم، ولكن الفتاة لا تستطيع أن تفعل ذلك-حتى بالزواج-إلا في حالات استثنائية.

ونظن انه من الطريف-والمؤسف في الوقت نفسه-أن يشيع بين طلاب

الجامعة الذكور أفكار مثل «المرأة مخلوق ضعيف»و «الرجال اكثر ذكاء من الإناث»، و «معظم متاعب الحياة سببها المرأة»، و «خلق اللـه المرأة متعة للرجل»، و «النساء أقدر على مقاومة الغواية من الرجال»، و «المرأة شريرة بفطرتها». وفضلا عن أن مثل هذه الاتجاهات تعكس حقيقة نظرة الرجل المحطة للمرأة، فإنها تستغل لتبرير بعض التصرفات كمعاملتها معاملة غير متكافئة في مجالات العمل والجنس، وغيرهما، واعتبارها مخلوقا من «الدرجة الثانية».

وفي دراسة أجريت على طلبة الجامعات المصرية في أوائل السبعينات، عبر اكثر من نصف الطلبة الذكور عن رفضهم لفكرة المساواة بين الرجل والمرأة. ومن الطريف إن نسبة الإناث اللاتي سايرن الذكور في هذا الاتجاه زادت على 25٪ [7].

وثمة شبه إجماع بين الطلبة والطالبات الجامعيين في إحدى الدراسات الحديثة على أن اللـه «خلق المرأة لتخفف من قسوة الحياة على الرجل»، أما دورها الإنتاجي في المجتمع، ومسئولياتها في عملية التطبيع الاجتماعي فهي أمور غير واردة. وإذا كنا نجد مبررا لمثل هذه الاتجاهات لدى الذكور- على أساس أن ثمة صراعا بين الجنسين على الاستئثار بفرص الحياة-فان شيوعها بين الإناث أمر ذو دلالات خطيرة [8].

وتسلم أغلبية كبيرة من الشباب بأنه «ينبغي أن يكون الزوج اكبر سنا من الزوجة»، وتأييد الأنات لهذه القضية أقوى من تأييد الذكور. وهو أمر متواتر غريب بعض الشيء، إذا علمنا أن المرأة تعمر عادة خمس سنوات-في المتوسط-أطول من الرجل-وفي تصورنا أن الأمر يرجع إلى تصور وضع المرأة في الزواج على أنه وضع تابع لوضع الزوج، وتصور دورها على انه يتمثل أولا في المهام العاطفية والجنسية، وهى مهام ترتبط بالشباب وصغر السن أساسا.

وفي حين نجد ما يشبه الإجماع بين الجنسين-وان كانت الأغلبية أقل في حالة الإناث-على أنه «يجب طلاق الزوجة إذا ارتكبت جريمة الخيانة الزوجية»، فان أغلبية كبيرة من الجنسين ترى «أن عدم وفاء الزوج لزوجته ليس مبررا كافيا للطلاق». ومن الطريف والدال في الوقت نفسه-أن زنا الزوجة يسمى-عادة-«خيانة زوجية»، في حين أن زنا الزوج يسمى «عدم

وفاء للزوجة». [9]

ولا يبدى الشباب غير ميل ضعيف نحو تفضيل الزواج من الأقارب، وميل الإناث أقل بشكل واضح من ميل الذكور في هذا الصدد. ولا نعتقد أن هذا الميل من الأمور التي يمكن تعميمها على المجتمعات المختلفة، بل ولا على المناطق والطبقات المختلفة في المجتمع الواحد وفي تقديرنا أن الاتجاه نحو زواج الأقارب ما زال قويا في المجتمعات التي لم تقطع شوطا طويلا في طريق التقدم، حيث ما زال لصلات الدم والعلاقات القرابة دور هام.

ومع أن الاتجاه قوي بين الشباب للمناداة بفكرة الاختلاط بين الفتى والفتاة قبل الزواج، وفي قبول فكرة الحب في هذه المرحلة، فان حماس الإناث فيهما أقل بشكل ملحوظ من حماس الذكور. ويرجع ذلك فيما يبدو إلى أن تأثر الفشل في تجارب الاختلاط والحب في مركز الأنثى أخطر وأبعد من تأثيره في مركز الرجل. ففي بعض الحالات تؤخذ علاقات حب سابقة أو الاختلاف بالشباب على انه أمر يسيء إلى سمعة الفتاة، ومن ثم يقف حائلا بينها وبين حياة زوجية مستقرة. (ولكن الدعوة إلى الاختلاط ليست مطلقة وعامة. فان اكثر من ربع الشباب الذكور-ونسبة اقل من الإناث-في إحدى الدراسات تطالب بالفصل بين الجنسين في التعليم الحالي وإنشاء كليات خاصة بكل من الجنسين).

وفي دراسة طريفة، وذكية بعنوان «المؤامرة على المرأة تبدأ في سن الرابعة تتعلق بعملية التطبيع الاجتماعي وتوزيع الأدوار أو تقسيم العمل الاجتماعي، نشر عرض لها في إحدى مجلاتنا الأسبوعية [10]-لوحظ أن الأبطال في حوالي ثلاثة أرباع قصص الأطفال كانوا من الذكور، واقتصرت بطولة الفتيات على ما يزيد قليلا على الربع. وانه في حين اتسم نشاط الذكور في القصص بالقوة والحيوية والحسم، واتجه نحو الاكتشاف والمغامرة والبناء، اقتصر دور البنات على اللعب بالعرائس، ومعاونة الأم، والابتسام تشجيعا للذكور. وفي قطع المطالعة اقتصر نشاط الأم على التواجد داخل المطبخ وإعداد الطعام، وانتظار الأب الذي يقوم بالدور المنتج الفعال.

ومعنى هذا أن الولد هو الكائن الأقوى، وأن البنت هي الجنس الأقل فاعلية وبالتالي أهمية فكل الوجوه النسائية في كتب الأطفال تلعب أدوارا ثانوية الأهمية. فالرجل يكد ويكدح وينجح ويفشل، ولكنه ينتج عادة. أما

المرأة، فهي سلبية عادة، تنتظر الحبيب، أو الزوج، وتتأمل الطبيعة، وما إلى ذلك.

فعملية اضطهاد المرأة، واعتبارها كأننا من الدرجة الثانية، ومعاملتها على هذا الأساس، لتضرب بجذورها في أعماق النظام الاجتماعي، ومن مرحلة باكرة في دورة حياة الإنسان. بل إنها تبدأ قبل ميلاد الفتاة بالقلق على جنس المولود، والأمل في أن يكون ذكرا، والخوف من أن يكون بنتا. ومن ثم فانه ليس من قبيل الصدفة أنه حين سئل الأطفال عما إذا كانوا يريدون الانتماء إلى الجنس الآخر، رفض 95٪ من الذكور ذلك، في حين قبلته 70٪ من الإناث.

فالمجتمع ينظر إلى الأنثى كشكل، أما محتوى هذا الشكل وما بداخله فلا أهمية كبيرة له. ومن ثم يركز الاهتمام على ملامح جسم المرأة وملابسها (دون أية إبعاد أخرى منها) على اعتبار أنها ذات صلة بالدور الذي يفضله ويحرص عليه الرجل: دور موضوع متعته الجنسية في المحل الأول. ومازال الدور المفضل للمرأة وفي نظر الرجل-دور «سندريلا» في انتظار «فتى أحلامها الأمير». وحكايات ما قبل النوم تخلو من المرأة العاملة الإيجابية، فان وجدت شخصية نسائية قوية في حكاية ما فهي ساحرة تعتمد لا على قوتها الذاتية، وإنما على خوارق غير طبيعية.

وللسن التي يبلغ فيها الشاب الحلم اثر هام في اتجاهاته وتصرفاته، فأولئك الذين يبلغون الحلم مبكرين تكون طفولتهم اقصر ومراهقتهم أطول، ما يحمل معه قدرا أكبر من المعاناة ممن يبلغون متأخرين. ويزيد من مشكلاتهم أن نضجهم الجنسي يتحقق قبل ارتقائهم النفسي والاجتماعي، ومن ثم يواجهون احتمالات قسوة التوافق والتكيف بدرجات أكبر ممن يبلغون متأخرين. وفضلا عن هذا كله يفقدون مكانتهم في جماعات الأطفال دون أن يكونوا قادرين على تعويضها بالانضمام إلى جماعات الكبار. وان كان نضجهم المبكر يضعهم في مركز مرموق بالنسبة لأقرانهم.

ويشير عدد من الدراسات إلى أن حجم أزمة الشباب-مقياسا بعدد المشكلات وحدتها-مقدرة بشدة المشكلات، يختلف باختلاف السن بالنسبة للجيل كله في بعض الحالات وبالنسبة لكل من الجنسين على حدة في حالات أخرى.

فمن المشكلات التي تكون واسعة الانتشار أو حادة في بداية الشباب، ثم يقل تكرارها وتخف حدتها مع تقدم السن «أزمة الهوية»، وعلاقات الشباب بالأسرة، وعلاقتهم بالكبار. تبدأ بعض هذه المشكلات حادة للغاية، ثم تهبط حدتها كثيرا-ومن أمثلتها أزمة الهوية أو تقبل الذات التي تبدأ عند نسبة من الشباب برفض الذات والرغبة في العودة إلى مرحلة الطفولة.

ولسنا نعتقد أن السن هو العامل الحاسم في حد ذاته، بمعنى إنه مع تقدمه يجد الشاب نفسه-آليا وبالضرورة-أمام مشكلات اقل وبإلحاح أدنى. والاجتماعي التفسير المعقول هو أنه مع تقدم السن يمنح المجتمع الشاب اعترافه به كراشد، ويسمح له بشغل أدوار الراشدين والتمتع بالتالي ببعض ما يتمتعون به من امتيازات. ومن ثم تسقط قضية الصراع الحاد بين الجيلين في جزء منها، ويستقر الشاب على هويته بعد طول غموض وتردد. (ومما يدعم هذا التفسير أن أزمات الهوية والعلاقات مع الأسرة والكبار بعامة لا تخف عند الإناث بالدرجة التي تخف بها عند الذكور، ومعروف أن مركز الذكور في المجتمع أكثر استقرارا وتدعما من مركز الأنثى). وفضلا عن هذا يتجه الشاب-ذكرا كان أو أنثى-إلى تقبل ذاته على علاتها، مع تقدم سنه، على أساس أنه لا يمكن أن يمضي إلى النهاية في رفضها، وإلا استحالت عليه الحياة.

ومن ناحية ثانية، تميل مشكلات الخوف وحدة الطبع إلى التناقص في تكرارها وشدتها، بالنظر إلى أن تراكم خبرات الشاب في الحياة ونمو معرفته بها، ونزول كثير من المخاوف الوهمية بصفة خاصة. وان كانت الإناث أكثر استهدافا لبعض المخاوف والقلق في نهاية مرحلة الشباب عنهن في منتصف المرحلة، وربما كان ذلك في مجال الزواج والأسرة في المحل الأول، ثم العمل واحتمال الاضطرار إلى الحياة بعيدا عن الأسرة بدرجة اقل.

ومن ناحية ثالثة، تتجه بعض الأبعاد في أزمة جيل الشباب وحدتها إلى الزيادة من تقدم الشباب في العمر. فاعتراف الكبار بالشاب كراشد وتحميله بعض مسئوليات الكبار-وهو أمر يأتي بعد بداية فترة الشباب، وربما حول منتصفها-يعقد مشكلات الكف الانفعالي ويزيد حساسية الشاب لرأي الآخرين ونقدهم له، وحرصه على النجاح وقلقه من الفشل.

وتميل بعض الدراسات [11] إلى اعتبار السابعة عشرة سن «أزمة حقيقية» عند الإناث، ترتفع (فيها) مؤشرات المشكلات فجأة وبصورة حادة. «في هذه السن»، كما يقال، «(يلاحظ) أن مشكلات النمو الجنسي والكف الانفعالي قد اقتربت من حدود الخطر... (ثم تنخفض حدتها فجأة، ويزول الخطر تقريبا)، ويحدث الأمر بالنسبة لازمة الهوية، والتوافق مع الأسرة». غير أن الدراسات التي تصل إلى هذه الملاحظة لا تقدم لها تفسيرا-مما يوحي بأن زيادة تكرار المشكلات وحدتها في هذه السن بالذات، على افتراض انه صحيح-هو من قبيل العلاقات غير الحقيقية أو الظواهر الزائفة التي تختفي مع زيادة الدقة في المنهج وعمق التحليل.

نقطة هامة، تتعلق بالطبيعة المعقدة لازمة المراهقة والشباب، ونعنى بها العلاقات الدينامية، المتبادلة بين المشكلات بعضها والبعض الآخر. وسواء بالنسبة للمجال الواحد من مجالات التوافق التي تحدثنا عنها في الفصل الإناث من الباب الإناث، أو بالنسبة للمجالات كلها مجتمعة، تؤثر المشكلة الواحدة في غيرها من المشكلات وتتأثر بعدد منها على الأقل. فالحيرة المترتبة على سرعة التحولات العضوية في بداية الشباب، والحساسية الزائدة التي قد تصل التي حد الشعور بالنقص نتيجة لقصور جسمي (مثل السمنة المفرطة أو ضعف البصر الشديد أو ما إليهما) وما يترتب عليه من سخرية مؤذية أو عطف شديد جارح للكبرياء، وغيرها، قد تتسبب في اضطراب انفعالي يؤدي بدوره التي عدد من الإعراض المشكلة الأخرى مثل الصداع، والإحساس بالإعياء، واضطرابات الجهاز الهضمي. غير أننا لا نحب أن نعطي انطباعا بأن التغيرات العضوية الأول تطرأ على كيان المرهق، وما يترتب عليها من مشكلات، هي وحدها المسئولة عن الانفعالية الشديدة-التي درجة المرض أحيانا-عند بعض الشباب. فالحقيقة أن الأثر السلبي لتحول عضوي ما-حتى في حالة كونه قصورا جسميا-لا يرجع الى التحول في حد ذاته، بقدر ما يرجع التي المعنى الذي يخلع عليه والاستجابات التي يستثيرها-ومن ثم يمكن أن نقول أن معظم المثيرات في هذا الصدد اجتماعية حضارية). وهذه المشكلات نفسها، وهي من مشكلات توافق الفرد مع ذاته في المحل الإناث، تتعدى مجال «أزمة الهوية» فتؤثر في سلوك الشاب في مجالات أخرى في المدرسة مثلا، في علاقاته من رفاقه، والمدرسين،

وتحصيله الدراسي، وعلى نشاطه غير الدراسي، النشاط الرياضي، والترويحي، والاجتماعي وما إليها.)

ومن ناحية ثانية، يحمل الشاب مشكلات علاقاته بأسرته التي مجالات عديدة خارج البيت. فعلاقاته في المدرسة والمجتمع هي بدرجة ما امتداد لموقفه من الأخر وموقفها هي منه وليس من النادر أن يخفق الشاب المدلل (من أبويه) في تحمل مسئوليات العلاقات بالرفاق وبالمدرسين. وكثيرا ما يجد الشاب المحيط في علاقاته الأسرية في جو المدرسة فرصة للتعويض المريض أو غير السوي. فالإشراف التسلطي أو التوجيه الاستبدادي للأهل على الشاب، والذي يمرون فيه على معاملة الشاب كما لو كان طفلا عاجزا عن الاختيار السليم، قد يدفعه إلى الإحساس بالظلم والقهر، ويميل به إلى الاحتجاج غير الصريح بأن يكون عنيدا أو سلبيا أو سهل الإثارة.

والتربية الأسرية المفرطة في التزمت، في أمور العلاقة بين الجنسين: قد تخلق في نفوس الشباب، وبخاصة الإناث، اتجاهات غير صحية أو غير واقعية تجاه الجنس الآخر. وهي اتجاهات تؤدي إما إلى موقف رفض غير موضوعي، أو شك يصل إلى حد عدم القدرة على الدخول في علاقة صحية بناءة، أو نظرة خاطئة تؤدي إلى عدم احترام الجنس الآخر.

ومن ناحية أخرى، يخرج الشاب من علاقاته الأولى مع أجهزة العمل السياسي أو التنظيمات الشبابية المختلفة بموقف عدائي من السلطة أو موقف رفض لها على الأقل ينسحب على نسق القيم الذي يأخذ به كراشد وأنماط التصرفات التي تصدر عنه فيما بعد.

لقد أغفلت معظم الدراسات العربية التي تيسر لنا الاطلاع عليها خريطة توزيع مشكلات جيل الشباب منظورا إليها من زاوية اختلاف المستويات الاجتماعية الاقتصادية، وتناولها عدد قليل من الدراسات من هذه الزاوية بسطحية لا تكشف عن شيء ذي قيمة. وفي الوقت نفسه، اهتمت بعض الدراسات بمقارنات «حضارية» أو «عبر حضارية» cross-cultural بمعنى أدق، فحاولت أن تكشف عن تغاير أزمة جيل الشباب من حضارة إلى أخرى. وكان الاهتمام هنا بالمقارنة بين الحضارة المصرية أو عدد من الحضارات العربية، وبين الحضارة الأمريكية-الولايات المتحدة الأمريكية.

وتشير إحدى هذه الدراسات [12]-إلى تقارب واضح بين العينات المصرية

والأمريكية في مشكلات النمو العضوي الجسمي والجنسي، وأزمة الهوية، ومعظمها يرجع في جزء جوهري منه إلى التحولات التي تطرأ على كيان الشاب في هذه الفترة وهي تحولات لا تتغاير كثيرا-وان تغايرت الاستجابة التي تصدر من المجتمع لها .

وثمة أيضا تقارب بين العينات من الحضارتين في مشكلات الارتقاء النفسي أو «ميلاد الأنا»، كما سماه البعض. ومن أهمها شدة القابلية للانفعال وسهولة الاستثارة، والتوتر العصبي المصاحب، والتقلب في المزاج وما إلى ذلك من حالات ترتبط بالارتقاء العضوي من جهة، وبوضع الشباب الهامشي في المجتمع من جهة أخرى.

أما مشكلات التوافق الاجتماعي في المجالات الأخرى (مثل الأسرة، والكبار بعامة، والدراسة، وغيرها) فهي أوسع انتشارا وأكثر حدة عند الشباب المصري-والعربي-منها عند الشباب الأميركي، نظرا لاختلاف الوضع في الحضارتين اختلافا جوهريا .

وهناك أخيرا المشكلات، المعيشية والمهنية، وهي أوسع انتشارا وأثقل وطأة على الشباب الأمريكي يستقل عن أسرته اقتصاديا ومعيشيا في فترة مبكرة من حياته (ربما مع بداية الشباب)، ويتحمل مسئولية مشكلاته، في حين يظل الشاب العربي معولا حتى يستكمل دراسته الجامعية، وربما لعدة سنوات بعد الفراغ منها .

وقياسا على هذا، فمن الطبيعي أن تكون مشكلات العلاقة بين الجنسين-والعلاقة الجنسية بصفة خاصة-اكثر وأشد إرهاقا للشباب العربي منها بالنسبة للشباب الأمريكي. وقد أشرنا إلى عدد من الضغوط وصور الكف والإحباط التي تحبط بها الحضارة العربية-والمصرية كنموذج لها-الرغبات الجنسية والسلوك الجنسي. وهو وضع يبدو مختلفا اختلافا جوهريا عن الحال في الحضارة الأميركية، حيث تحللت هذه الضغوط والضوابط، وضعف ما بقى منها .

وعلى هذا النحو، نجد الأمر بالنسبة للمشكلات المتعلقة بالأمور الدينية والأخلاقية.

على أن ثمة نقطة بديهية، فاتت على معظم الذين أجروا دراسات مقارنة «عبر حضارية» وهي أن المشكلة قد تكون لها مضمونان حضاريان مختلفان-

اختلاقات جوهرية-بالرغم من وجودها بالشكل نفسه في حضارتين مختلفتين، ومن أمثلة ذلك المشكلات التي تتصل بالحرية، والتبعية، والليبرالية-والمحافظة، والاستقلال-والاعتمادية، وما ليها . فلكل من هذه المفاهيم دلالات تختلف من حضارة إلى أخرى (وربما من حضارة فرعية إلى حضارة فرعية أخرى داخل الحضارة العامة الواحدة).

الهوامش والمراجع

1- صمويل مغاريوس،«أضواء على المراهق المصري»، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1957، ص 12.
2- المرجع نفسه،ص ص 14-15.
3- محمود عبد القادر، «التوافق النفسي و الاجتماعي للشباب الكويتي ومشكلاته، الفئة العمرية من 13 سنة إلى 18 سنة»، الكويت، رابطة الاجتماعيين، 1975، ص 71.
4- المرجع نفسه.
5- المرجع نفسه، ص ص 71-72.
6- جابر عبد الحميد جابر، «التعليم الجامعي في العراق وتغير القيم»، «المجلة الاجتماعية القومية»، المجلد الخامس (يناير 1968): ص ص 3- 18.
7- عماد الدين سلطان، «احتياجات طلبة الجامعات»، القاهرة، «المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ووزارة الشباب، 1971، جدول رقم 11.
8- جابر عبد الحميد جابر، «الاتجاهات النفسية للشباب نحو مركز المرأة في المجتمع العراقي»، «المجلة الاجتماعية القومية»، المجلد السابع (سبتمبر 1970)، ص ص 25-47.
9- المرجع نفسه.
10- مجلة «صباح الخير» القاهرية، عدد 1107 في 14 مارس 1977.
11- انظر مثلا: محمود عبد القادر، مرجع سابق، ص ص 91-93.
12- منيرة احمد حلمي، «مشكلات الفتاة المراهقة وحاجاتها الإرشادية»، القاهرة، دار النهضة العربية، 1965، ص ص 73-89.

الباب الثالث
رد الفعل

٩ حضارة الشباب الخاصة أو عالم الشباب الخاص

أولا

يحب الشاب في صراعه-من أجل أن يشعر بأنه لم يعد طفلا، بل من اجل أن يستقر تقديره لذاته- إلى أن يكتسب مكانة مستقرة بين الراشدين. وهذا مطلب يتعذر تحقيقه لفترة قد تطول أحيانا، وأزمة تكلف الشاب ثمنا باهظا، حتى تحل. وقد تصير أرضية لعدد من الانحرافات. ومما يزيد من وطأتها على الشاب شعوره بأنه يقف وحده، وبأن الكبار لا يفهمونه، أو لا يعنيهم أمره.

وقد أشرنا في فقرات سابقة إلى صور عديدة من ردود الفعل يستجيب بها الشباب العربي لازمتهم مع أنفسهم ومع مجتمعاتهم. ويهمنا هنا أن نستخلص بعض القسمات العامة لردود الفعل هذه، بصرف النظر عن تفصيلات ملامح كل منها:

١- فهي تأخذ أشكالا عدة من الاستسلام التام و الانصياع للنظام الاجتماعي، ولسلطة الكبار بعبارة أدق، إلى الرفض المطلق لكل ما يمثله الكبار.

2- وكلها تعبر عن نوع من «الخلفة» مع جيل الكبار، على حد تعبير مصطفى سويف. صحيح أن

«الخلفة» ليست تامة، ولكنها توجد بمثابة«النغمة الدالة» في قيم الشباب واتجاهاتهم وتصرفاتهم.

3- ولكنها بالرغم من هذا-لا تعبر عن يأس نهائي من الحياة، ورغبة في التحلل من مواجهتها وتحمل مسئولياتها وإنما هي-على العكس من ذلك تماما-تعبر عن الحرص على استمرار النضال من اجل تحقيق المثل التي يحلم بها جيلهم.

4- إن من أهم مصادر معاناة جيل الشباب، عدم وجود فرص ولا وسائل يعبرون من خلالها عن همومهم ويطرحون قضاياهم وطموحاتهم. فوسائل الإعلام لا توفر مثل هذه الفرص، ومنظمات الشباب-إن وجدت-عاجزة لا تمثلهم من قريب ولا بعيد. ولهذا، يتراكم عدم الرضا والرفض والتمرد، فيهم شيئا فشيئا حتى ينفجروا ثائرين حين تتاح لهم الفرصة.

ما زالت المتمردات الصريحة لجيل الشباب العربي غير شائعة الحدوث، ومحصورة أساسا في فئة محدودة أو أقلية من شباب الجامعات. أما النسبة الغالبة من الشباب فلا تقف موقفا نقديا صريحا من المجتمع، وإذا حدث ووجدت ما تأخذه عليه فإنها لا تذهب إلى حد الرفض. وهؤلاء «مسايرون» يقبلون واقعهم «على علاته»، ويسعون إلى التكيف معه بشروطه، وهم على أية حالة، أخطر عليه في التحليل النهائي من أولئك الذين يثورون ضده، أو على الأقل يقفون منه موقفا نقديا.

ومن أكثر مظاهر رد الفعل السوية شيوعا اتجاه الشباب نحو تكوين صداقات وثيقة مع أفراد في مرحلة العمر نفسها، بقصد تدعيم موقفهم إزاء الكبار-الذين اضطربت علاقتهم بهم. [1]

وتشهد فترة بلوغ الحلم تفكك جماعات الأطفال ويميل عدد من المراهقين إلى الانسحاب، يؤثرون نوعا من العزلة والوحدة، يتأملون فيه ذواتهم، ويحاولون فهم ما يجري فيهم ومن حولهم، ولا يبدون إلا قليلا من الاهتمام بأصدقاء طفولتهم. ويحفظون بمسافة اجتماعية ونفسية بينهم وبين الكبار، حتى لتبدو تصرفاتهم للبعض لا اجتماعية. فان هذا الموقف من الآخرين والعلاقات الاجتماعية لا تستمر طويلا. فسرعان ما يبحث الشاب عن رفاق من جنسه يمكن أن يشاركوه تأمل ما يجري في كيانه ويساعدوه في فهمه.

وبالرغم من أن علاقات الشاب الشخصية تتجه إلى التخصيص والتعمق مع الجنس الآخر، فان جماعة أو ثلة الأقران-سواء كانت من جنسيه فقط أو من الجنسين-تبدأ تلعب دورا هاما في حياته. وتضم ثلة الأقران عادة عددا محدودا من الأعضاء-ثلاثة أو نحو ذلك-لا توجد بينهم فوارق كبيرة في السن ولا في الذكاء ولا المستوى الاجتماعي الاقتصادي ولا الاهتمامات.

ولا تستغرق العلاقات بالجنس الآخر كل نشاط الشاب-فوجوده الاجتماعي يتوزع بين عوالم ثلاثة: الأسرة، ورفاق الدراسة، والأصدقاء أو ثلة الأقران. ومن بين هذه الجماعات الثلاث تنفرد ثلة الأعضاء بتأثير خاص في حياة الشاب، فهي جماعته المرجعية تسبق في أهميتها غيرها، أو يستمد الشاب منها قيمه وعاداته وأساليب تصرفاته ومعايير الحكم على الذات والآخرين.

وترجع أهمية ثلة الأعضاء في حياة معظم الشباب المتمردات عدة عوامل، من أهمها:

أولا: ما توفره لأعضائها من صحبة دافئة وتقبل وصداقة حقيقية، تزودهم بطاقات متجددة لتحمله متاعب الحياة ومشكلات مرحلة السن.

ثانيا: ما تقدمه لهم من فرص تصريف التوترات التي يعانون منها في حياتهم. وبهذا تحول بين عدد منهم وبين الانحراف الحقيقي.

ثالثا: ما تتيحه للشباب من خبرات حية ومهارات حقيقية هي أساس تكيفهم السليم مع الحياة في حالات كثيرة.

رابعا: ما تبعث فيهم من شعور بالأهمية الشخصية، بعد أن يدفع فيهم تعامل الكبار معهم مشاعر الدونية وعدم الأهمية.

خامسا: ما تسيره لهم من نماذج للقيم والاتجاهات والسلوك.

ومن هنا كان الحرص الشديد من جانب الشباب على عضويتها، واستعدادهم للتكريس من أجلها والتضحية بأشياء كثيرة في سبيلها، وكان التوحد-الغريب في تطرفه أحيانا-الذي يبديه بعض الشباب معها في المظهر والملبس واللغة والسلوك وما إليها.

غير أن لثلة الأقران وجها آخر تمثله بعض أبعادها السلبية، التي من أهمها:

أولا: التسلح على الأعضاء وقهر فرديتهم وإلغاء استقلالهم. ومن ثم

يستبدل الشاب تسلط الرفاق بتسلط الأسرة.

ثانيا: ليس من النادر أن تتسبب ثلة الأقران في زيادة حدة الصراع بين الشاب وأسرته ومربيه والكبار الآخرين، لما توفره له من دعم في تحديه لهم وثورته عليهم.

ثالثا: قد تدفع الجماعة بعض أفرادها قسرا إلى التورط في ألوان من السلوك اللااجتماعي أو المضاد للمجتمع لم يكونوا ليقدموا عليها وحدهم.

رابعا: قد تؤدي بعض الجماعات ببعض الشباب إلى حالة من العزلة والوحدة القاتلة نتيجة لأنهم لا تتوافر فيهم المواصفات التي يتطلبها في من يقبل في عضويتها. وبحكم مثاليته الساذجة ونقص خبرته في الحياة واندفاعه غير المتبصر أحيانا، فان الشاب يمكن أن يكون فريسة سهلة للإحباط والفشل وخيبة الأمل. فحين لا يجد التقدير ولا حتى الفهم لمحاولاته للمساعدة والإصلاح والإسهام في حياة الجماعة، فانه سرعان ما يشعر باللامبالاة نحوها ونحو المجتمع، وهو شعور قد يتحول إلى نوع من العداء.

وتتميز جماعات الشباب هذه بخاصتين هامتين، أولاهما الحواجز القوية التي تحاط بها والتي تجعلها أشد تماسكا واستقرارا من جماعات الأطفال والأخرى، الخوف الشديد من الرفض الذي يشعر به المراهقون كأفراد تجاه هذه الجماعات، (وهو دليل على زيادة حساسية المراهقين الاجتماعية من جهة، وعلى أهمية مثل هذه الجماعات في حياتهم من جهة أخرى).

ويساعد تقارب السن ووحدة الأزمة في شيوع روح ديمقراطية داخل الجماعة. فتتقارب مستويات الأعضاء، وتتوزع السلطة بدلا من أن تتركز، وتقل سلطة الزعماء على الأعضاء عما هو الحال في جماعات الأطفال. وان كان هذا لا يمنع من أن درجة التغاير في جماعات الشباب أرقى منها في جماعات الأطفال، إذ أنها تسمح للأعضاء بأن ينظموا علاقاتهم بعضهم مع البعض الآخر بشكل يحترم اختلاف شخصياتهم وتبرزه. ومن ذلك مثلا أن أعضاء الجماعة ليسوا على درجة واحدة من «القرب» بعضهم من البعض الآخر، وإنما تتفاوت علاقة الواحد بالآخرين من العلاقات الحميمة الوثيقة إلى العلاقات العابرة. [2]

غير أن هذا كله لا يعني أن جماعات الشباب تصل إلى أعلى مستوى ارتقائي ممكن. فهي، بعكس ذلك، دون مستوى جماعات الراشدين من

جوانب كثيرة. [3]

أولها: إن النشاط داخلها عشوائي لا هدف موضوعي له «ويرجع ذلك إلى أن السبب الذي تلتئم من اجله هذه الجماعات ذاتي، وهو مجرد القلق والاضطراب الذي يطغى على المراهقين وعلاقتهم بأسرهم والراشدين.

ثانيا: السهولة التي تنشأ بها مثل هذه الجماعات أو ينفرط بها عقدها، فقد تنشأ لأسباب تافهة وقد تنفض لخلاف بسيط.

ثالثا: إن التجانس في الجنس والسن والدين والمستوى الاجتماعي والاقتصادي يضع حدودا لتغاير الجماعة وطبيعتها بالنسبة للواقع الاجتماعي.

رابعا: أن انغلاقها الشديد-أو الواضح على الأقل-يعزلها عن الواقع الاجتماعي ويدمر بعض علاقاتها به.

خامسا: نقص استبصار الشاب بالواقع ومقتضياته، وثقته التي لا تقف عند حدود معقولة في جدوى هذه الجماعات، وما تستطيع أن توفره له من إشباع. وهذا نفسه سبب من أسباب عدم استقرار صداقات الشاب إذ تجعله اشد تعرضا لخيبة أمل وأكثر معاناة منها من جراء أتفه الأخطاء التي قد ترتكب في حقه.

ثانيا

ويلوذ جيل الشباب بعالم خاص أو حضارة خاصة هي حضارة الشباب youth culture يخلقونها بأنفسهم، وفقا لمعاييرهم، من أجل أن يخفف همومهم ويقربهم من تحقيق تطلعاتهم وطموحاتهم وتطبيق مشروعاتهم في الحياة (سواء فعلت ذلك حقيقية أو أوهمت فقط بفعله).

وعالم الشباب الخاص هو أسلوب حياة مستقل-جزئيا بالطبع-عن عالم الكبار، سواء تم في معيتهم أو بعيدا عنهم، وغير خاضع لمعايير الكبار وقيمهم ومعتقداتهم وأساليب سلوكهم، وإنما يقوم على نسق من القيم والمعايير والأفكار وأساليب السلوك المعارضة-أو على الأقل غير الملتزمة-بتلك التي ينادون بها.

وحضارة الشباب الخاصة أو عالمهم الخاص ليس مجتمعا اصغر-أو فرعيا-داخل المجتمع على نحو بعض «منظمات الشباب» في بعض المجتمعات

البدائية (والتي تنتظم على أساس اهتمامات الشباب وأسرارهم الخاصة متميزة داخل المجتمع الذي يعيشون فيه) وإنما هو نوع من اللغة والقيم الخاصة والتصرفات المتميزة.

وهي عالم يغلب على المناخ السائد فيه روح التمرد، والاهتمامات الجنسية غير الصريحة غالبا، والعناد أو الغطرسة تجاه الراشدين حتى بدون سبب واضح أحيانا. وهو-في مضمونه العام يعني أن عالم الكبار هو عالم أعفى عليه الزمن، كئيب، يقوم على قدر كبير من النفاق (وان كان هذا لا يمنع من انه غير شرير بالضرورة).

ويحرص معظم الشباب على تأكيد تميزهم وإبراز هويتهم من خلال رموز خاصة، منها مودالات الملابس، وإطلاق شعر الرأس والذقن، وغيرها. والاتجاه الغالب عليها-بالإضافة إلى تميزها من رموز الكبار أو تلك التي يرضونها-هو إزالة عدد من الفوارق التي تميز بين الجنسين الذكور والإناث. وبهذا يعارضون قيمة هامة من قيم الكبار، ونعني بها تلك التي تفصل فصلا حادا وحاسما بين الجنسين (وان كان جيل الشباب لم يستطع أن يخلص من هذه النظرة-على نحو ما سنبنيه في فقرات لاحقة). وفي حين يكتفي الذكور بقدر من هذه الرموز، فان الإناث تشغلن بها وتمعن فيها إلى حد كبير.

وهذه الأزياء والمظهر والسلوك-التي تبدو غريبة للكبار وغير متفقة مع قيمهم في «النظافة» و«الجمال» و «التصرف المهذب»، هي تعبير عن قيم جديدة، وتأكيد «للخلفة» وتكريس لها، بل هي محاولة لتدعيم «الهوة» التي تفصل بين الجيلين.

وهناك، من ناحية ثانية، موسيقى الشباب وفنونهم الأخرى، وتصدر كلها عن قيم تختلف اختلافا جذريا عن القيم التي تصدر عنها فنون جيل الكبار، وتأخذ في التعبير عنها أشكالا تثور على «القوالب» التي تتشكل فيها فنونهم. فالموسيقى والرقص كلها صاخبة سريعة الإيقاعات إلى درجة «الجنون». وبهذا تمثل رفضا للنزعة العقلانية الشكلية والجادة-أو التي تبدو كذلك-التي يفرضها عليهم، أو يطلبها منهم الكبار هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، يعبر بها الشباب عن انطلاقهم وتفتحهم للحياة بالتحلل من ضغوطها التي يخلقها الكبار، «ورد الاعتبار» للمحسوس و «التجربة الحسية»

بعد أن حاول الكبار أن يجردوهما منه. والأغاني ذات مضمون جنسي أكثر إثارة وجرأة من الأغاني التي يستسيغها الكبار أو حتى يقبلونها، بل إنها تصل في بعض الأحيان إلى حد كونها «فاضحة». بالطبع، يوجد نوع من الأغاني يمكن أن يطلق عليه «أغاني الشباب»، ولكن ثمة فئة توجه إلى الشباب وتخاطبهم بلغتهم، ومن ثم يقبلون عليها وتصبح مرتبطة بهم إلى حد بعيد.

يحرص كل مجتمع على توجيه القيم الخاصة بالجنس في قوالب خاصة. كما يحرص، بدرجة اكبر، على تنمية السلوك الجنسي في مسارات معينة. ويعتمد المجتمع في ذلك على عديد من الأساليب والقيم والنظم والقوانين، يحميها بنظم للجزاء من أتقوى نظم الضبط الاجتماعي وأشدها صرامة. غير إن الممارسة اليومية للجنس تختلف عن النسق المعياري الذي يفترض منه أنه يوجهها وينظمها بدرجات تتفاوت من مجتمع إلى مجتمع وربما من حضارة فرعية إلى حضارة فرعية أخرى.

ولكن مع تقدم حركة «تحرير المرأة» في العالم العربي-منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بصفة خاصة-بدأت الأحكام الاطلاقية على الجنس عند المرأة تطرح للمناقشة وربما للرفض. وان كان ذلك ما زال قاصرا على فئات غير واسعة من الشباب. وقد ساعد في طرح هذه الأفكار للمناقشة:

1- تخلص بعض الإناث من سلطة الأسرة نتيجة لاغترابهم للدراسة أحيانا والعمل في حالات كثيرة.

2- تخلص المرأة العاملة من التبعية الاقتصادية لأهلها وزوجها فيما بعد.

3- الاختراعات التي يوفرها تقدم تكنولوجيا الطب ومن أهمها موانع الحمل.

4- تأخر سن الزواج بالنسبة للجنسين في الدول التي قطعت شوطا واضحا في طريق التحديث والتحضر.

5- الدور الأثري لوسائل الإعلام، الصحف والمجلات والسينما، ووقوع الشباب تحت تأثير قوى متعارضة.

وبالنسبة للذكور والإناث على حد سواء، ثمة ما يوحي بأن السلوك الجنسي للشباب في العالم العربي يأخذ أشكالا جديدة، أكثر «تحررا» و

«انطلاقا» مما كان عليه منذ ربع قرن مثلا. ويرجع هذا إلى أزمة الصراع بين الأجيال التي تزداد حدة حقبة بعد حقبة، وحالة الرفاهية التي تعيشها بعض قطاعات الشباب في عدد من الدول العربية، وكذلك فلسفة الاستمتاع بالحياة التي تأتي معها، وعدم الاستقرار الذي تعاني منه نسبا متزايدة من الشباب. ومن ثم يحن بعض الشباب إلى الخبرة مع الجنس الآخر بجرأة تصدم جيل الكبار، ويمارسون الجنس بحرية تتحدى «الفضيلة» كما يتصورها آباؤهم ومربوهم.

ويمثل شرب الشباب للخمور وتعاطيهم لبعض العقاقير، أحدالهموم المقلقة للأباء والمربين والمسئولين على السواء. وبالرغم من أهمية الموضوع وخطورته، فما زال يكتنفه شيء كثير من الغموض، وما زلنا لا نعرف بالضبط مدى انتشاره، ولا أي فئات الشباب تتعاطاه، ولا في أية ظروف يبدأ التعاطي ولماذا؟ ولا إلى أي نتيجة ينتهي؟ فضلا عن الاستجابة الأكثر واقعية وجدوى.

وبالإضافة إلى الخمور-وهي معروفة-ثمة عدة أنواع من العقاقير-من أهمها:

1- مركبات الأفيون، ومنها الهيروين والمورفين
2- عقاقير الهلوسة كالماريجوانا.
3- المنبهات مثل الامفيتامينات والكوكايين

وليست كلها على درجة واحدة من الخطورة في التأثير ولا الاعتياد. فشرب الخمور لا يقود إلى الإدمان إلا في حالات شاذة وتحت ظروف استثنائية، وان كان يخلق في الفرد ميلا قويا له يصل إلى حد الاعتماد الضار عند البعض. أما تعاطي مركبات الأفيون، فانه ينتهي عادة إلى الإدمان. (4)

والمواد الجديدة نسبيا-عقاقير الهلوسة والمنبهات وغيرها-أخطر في تأثيراتها الضارة من المواد التقليدية، مثل الحشيش والأفيون. ويكمن خطرها في صعوبة تقدير الكمية التي إذا تخطاها المتعاطي تصبح حياته في خطر. وأخطر من هذا أن توقف الشخص المدمن فجأة عن تناول الجرعات المعتادة منها قد يؤدي إلى انهياره وربما لوفاته. ومن هنا يلزم أن يتم الإقلاع عن إدمانها تحت إشراف طبي.

ولقد أدركت كثير من الدول خطورة إساءة استخدام بعض المواد «النفسية»

المخلقة معمليا، المهلوسة، والمنشطة، والمهدئة، والمنومة (ولها أسماء طبية فنية)، وعقدت معاهدات دولية تنظم تداولها، حتى الآن لم ينضم لها غير عدد قليل من الدول العربية. وحتى من انضم إليها من الدول، لم يأخذ نصوصها بجدية. وما زالت عمليات تهريبها إلى داخل المنطقة العربية وتركيبها معمليا وتداولها لا تخضع لرقابة دقيقة صارمة.

ويختلف تأثير كل من هذه العقاقير عن تأثير الأخرى، ويتوقف الأمر إلى درجة كبيرة على حالة الشخص المزاجية وظروف التعاطي. ومن بعض تأثيرات عقاقير الهلوسة [5] الخلط بين وظائف الحواس: فالشخص يسمع الألوان، ويشم الأصوات، ويرى الأفكار، وهكذا. ويصل بعض متعاطيها تحت تأثيرها أما إلى حالة من نفاذ البصر في الواقع تتخطى الدفاعات العقلية العادية وتتغلب على الحوافز والضغوط وألوان «الكف» الحضارية، أو إلى حالة تنحرف فيها رؤيته للواقع وتصبح زائفة. ويكمن الخطر في السلوك العنيف الذي تستثيره والإدراك الخاطئ للذات والواقع الذي تؤدى إليه، والذي قد ينتهي نهايات مؤلمة كالتدمير مثلا.

وتتفق هذه المواد كلها في أن تعاطيها يؤدي إلى نتائج معينة من أهمها كف التفكير النقدي، وإضعاف الضوابط القوية على السلوك، وإطلاق الدوافع التي لا تجد مجالا آخر للتعبير عن نفسها، ومن ثم، يقال: «أن الأنا الأعلى هو ذلك الجانب من شخصية الإنسان الذي يتحلل في الكحول-الخمور».

وتعاطي الشباب العربي-أو بعض فئاته وفي مناطق محدودة فقد بتعبير أصح-للخمور والعقاقير مازال محدودا فيما يبدو. ولكنه بدأ ينتشر أكثر منذ أوائل السبعينات على وجه التقريب. ويبدو مما تنشره وسائل الإعلام في الموضوع أنه يتزايد سنة بعد سنة، وأن تزايده يأخذ اتجاهات شبه محددة:

1- بدأت ظاهرة التعاطي بين الفاشلين دراسيا أو الذين يواجهون أزمة من نوع ما، ثم انتشرت بين فئات ليس ثمة ما يوحي بأنها تواجه أية أزمة محددة، كالطلبة والمثقفين والفنانين وغيرهم.

2- كان التعاطي قاصرا على طلبة الجامعات أو مركزا فيهم، ثم أخذ ينتشر-ولو على نطاق أضيق-بين طلبة المرحلة الثانوية أو الوسطى.

3- لم يعد التعاطي قاصرا على أبناء الطبقة الدنيا، بل انه لم يعد منتشرا بين أبناء هذه الطبقة بقدر انتشاره بين أبناء الطبقة الوسطى أو العليا. ويبدو أن ذلك راجع إلى أن أبناء الطبقتين الأخيرتين، أو معظمهم، يتأخرون في الاستقلال الاقتصادي والعمل والزواج «واستقرار الهوية» عن كثيرين من أبناء الطبقة الدنيا.

4- كان التعاطي قاصرا على الذكور أول الأمر، ولكنه بدأ يمتد تدريجيا بالطبع-ليشمل بعض فئات الإناث، وان كان بنسب أقل.

وثمة فيما يبدو ثلاثة أنواع من متعاطي الخمور والعقاقير من الشباب.

الأول: طلاب المتعة وحب الاستطلاع الذين يسيرون وراء الحالة المزاجية الطيبة التي يضعهم فيها التعاطي أو يتوهمون أنه يضعهم فيها.

الثاني: الأشخاص في أزمة الذين يطلبون من التعاطي أن يخرجهم من حالة الوعي التي يواجهون فيها مشاكلهم-الإخفاق في حمل بعض المسئوليات الاجتماعية، أو أزمة عاطفية، و فقدان صداقة، الإخفاق في المدرسة. وفي مثل هذه الحالات يكون تعاطي الخمور والمخدرات-في بعض جوانبه على الأقل-أسلوبا للهروب من واقع مرهق برتابته وآليته أو آلامه وهمومه، وتأجيجا للتجربة الجمالية، التي يدعو المخدر إلى القيام بها، أو يوهم بالقيام بما تمثل في بعض معانيها مظهرا من مظاهر رفض مجتمع لا تطيب الحياة فيه.

والأخيرة، فئة من المثقفين، تبحث عن التجريب والخبرة، ومنهم الفنانون فهم لا يبحثون عن الهروب، وإنما هم يبحثون عن المعرفة.

صحيح أن الأسفار التي يدعو المخدر إلى القيام بها تحل مشكلات الواقع بالهروب منها. ولكن الشيء الذي لا يمكن إنكاره أن هذه الأسفار تمثل مظهرا من مظاهر رفض مجتمع تستحيل الحياة فيه-فالمدمن على المخدرات ليس جانحا، بل هو إنسان مريض. ومنشأ مرضه اجتماعي. وليس من المستطاع وضع حد فعلي لاستعماله للوسائل التي تتيح للمرء أن يهرب من العالم إلا بخلق عالم لا يولد الرغبة في الهروب منه.

ويتعاطى بعض الشباب هذه العقاقير، أو يبدءون في تعاطيها بعبارة أدق تحت تأثير رفاق السن، أي أنهم يفضلون الانصياع والمسايرة على أن يتهموا بالجبن.

وبالرغم من الميل الواضح في بعض وسائل الإعلام ومن الكبار إلى الربط بين تعاطي الشباب للخمور والعقاقير المخدرة وبين «الجناح» فان المعلومات الدقيقة التي يمكن أن نستند إليها في تأكيد هذه العلاقة غير متوافرة حتى الآن.

ولا يخلو موقف الكبار من الموضوع من غرابة. فهم يسمحون لأنفسهم بتعاطي المخدرات والإفراط في ذلك في حالات كثيرة، ثم يحرمونها على الشباب على أساس الفارق في السن. ومن المثير للدهشة حقا، أنه في الوقت الذي تنتشر فيه عقاقير بالغة الضرر بين فئات غير قادرة على التمييز من الشباب تأكل جهدها وتنحرف بقيمها وسلوكها، وتخرب مستقبل بعضها، يستنفد المجتمع أو المؤسسات المسئولة فيه الوقت في جدل عقيم حول إجراءات ومشروعية تحريم الاتجار فيها، بل ومشروعية ذلك.

صحيح أن حضارة الشباب الخاصة أو أعمالهم الخاص يستند في ظهوره وتمييز ملامحه وتعاظم أهميته على ظروف «نظام السوق» كنظام اقتصادي على أساس أن ثمة ربحا ماديا يتحقق من ترويج السلع التي تقوم عليها حضارة الشباب الخاصة (الأزياء والأغاني والموسيقى والمخدرات وبيوت الدعارة والسلع الأخرى) بغض النظر عن الضرر الاجتماعي الذي ينطوي عليه ترويجها، (فمن المفارقات الطريفة أن الذين يخلقون هذه السلع والخدمات ويتعاملون فيها ويروجونها ليسوا من جيل الشباب، وإنما هم أفرادا كانوا أو مؤسسات من جيل الكبار).

وصحيح أيضا أن جزءا كبيرا من حضارة الشباب تعتمد على الصورة التي تقدمها وسائل الإعلام المختلفة-من الصحافة إلى الإذاعة إلى التليفزيون إلى السينما إلى الكتاب وغيرها-واستغلالها للموضوع جذبا لقطاع كبير من الشباب من ناحية واستثارة لفضول الكبار من ناحية أخرى. (ومن هنا، وبسبب القيد الإدارية والحضارية التي تفرض على تناول وسائل الإعلام بموضوع في العالم العربي، فان حضارة الشباب العربي ليست من التطور والوضوح والصراحة التي لها في مجتمعات أخرى في أوربا والأمريكتين مثلا).

ومن هذا كله لا يلغي أهمية-بل وضرورة-الظروف الموضوعية التي تؤدي إلى ظهور حضارة الشباب، والوظائف الحيوية التي تقدمها لهم.

ثالثا

لما كانت مرحلة الشباب فترة توتر وعدم استقرار وقلق ومعاناة، فان الشباب يحتاج إلى الإيمان-دينيا وفلسفيا وأخلاقيا . ويتمثل ما يحتاجه الشاب في مجال الإيمان العقيدي في:

ا- معنى للحياة يدفعه إلى-أو يحفزه على-أن يتخذ موقفا إيجابيا منها فيقبل عليها ويستمتع بها ويعمل من أجلها .

2- مجموعة من القيم والمعايير تنظم علاقاته بنفسه، والآخرين، وبالواقع.

3- تفسير مقبول لعلاقة الإنسان بالكون ومسئولياته وحقوقه فيه.

ولا نعتقد أن عدم مواظبة بعض الشباب على ممارسة الشعائر الدينية دليل على انهم لا يأبهون بموضوع الدين. حقيقة الأمر أنهم يمرون بمرحلة تتطلب فهما انضج للإيمان والتزامات الإنسان فيه.

وتشير استطلاعات الرأي وقياسات الاتجاهات بين الشباب العربي في مستوى التعليم الثانوي والعالي إلى أن من لا يهتمون منهم بمشكلات الإيمان هم قلة قليلة. أما النسبة الغالبة منهم فإنها تبدى اهتماما حقيقيا بعملية إعادة بناء نسق الإيمان والقيم والنظرة إلى الحياة. ويحدث هذا بصفة خاصة بين من هم فوق متوسطي الذكاء، وحول سن الخامسة عشرة، ويشيع بين الذكور أكثر مما هو عليه بين الإناث.

ويدفع الشباب إلى هذا ظروف كثيرة منها :

ا- اكتمال نضجهم العقلي، ونمو القدرة على التحليل والثقة.

2- نمو حصيلتهم من المعارف-الخبرات. بفضل نظام التعليم الحديث من ناحية، وبفضل تجاربهم في الحياة من ناحية أخرى.

3- الأزمة التي يعيشون فيها نتيجة لما يلاحظونه من انفصام بين ما يقال وما يحدث أو بين القيم والسلوك.

ويلاحظ الشباب بأسى أن ما لقنوا من تعاليم دينية وقيم أخلاقية ونظرة إلى الحياة لا يساعدهم في الوصول إلى فهم موضوعي لذواتهم وتقبلها، ولا يصلح أساسا سليما لعلاقات سوية بينهم وبين الآخرين، ولا يسهم في تنمية إحساس بالإيجابية تجاه الحياة ولا يفيد في تهوين متاعبها ومواجهة مشكلاتها .

فالأفكار التي تقدم مادة لإيمان الشخص في طفولته تفقد قدرتها على

ذلك في شبابه، وبخاصة حين يراها منفصلة عن واقع الحياة تحرم وتجرم وتعد وتتوعد بدون اعتبار لازمته هو كشاب له آلامه وآماله ومخاوفه وتطلعاته. وحين تلقن وتدين أو تقبل وتبارك بغير اتساق موضوعي في نظره هو. وللطريقة القطعية التي تقدم لهم بها هذه التعاليم والتناقضات الحادة بين ما يقال وما يحدث حتى في سلوك من يقدمون إليهم هذه التعاليم فبعض المربين يستعملون أقذع ألوان السباب في التعامل مع الشباب، والآباء لا يكفون عن النصح والوعي بشكل لا يستقيم مع سلوكهم اليومي وتصرفاتهم العادية.

ولهذا يستجيب الشباب لازمتهم الإيمانية استجابات متطرفة: بعضهم يدفع في طريق الشك الذي قد ينتهي به إلى الإلحاد، وبعض آخر يسير في طريق الهوس الإيماني إلى أبعد مداه، وقد ترتكب في سبيله حماقات لا يمكن أن تستقيم مع الإيمان السليم، وهم في كلتا الحالتين فرائس القلق والألم والمعاناة وعدم الاستقرار.

والذين يلومون مرحلة الشباب في حد ذاتها على ما تخلفه من أزمة في موقف الشباب من الإيمان، أو يصبون اللعنات على نظام التعليم الحديث والثقافة «الليبرالية» على ما يبديه الشباب من تمرد على إيمان مرحلة الطفولة، يخدعون أنفسهم والآخرين. فالمشكلة تكمن في أن المجتمع يخفق في مواجهة شكوك الشباب وأسئلتهم واستفساراتهم بصدق وصراحة. وبدلا من أن يقدم شيئا عقلانيا مرنا يخلص الشباب من الأزمة أو يهون من وقعها عليهم، يحاول تفاديها ويحظر طرحها للتحليل والمناقشة، ويفرض نوعا من الصمت على الموضوع كله.

وفي حين يمكن أن يكون التدين سندا وجدانيا هاما، يمد الفرد بالمعنى في الحياة والقدرة على احتمال متاعبها والأمل في المستقبل، فانه قد يقود إلى نوع من المثالية الساذجة توقع الشباب في صراع عنيف مع الواقع وتدفعهم إلى موقف إدانة لأنفسهم والآخرين. يقول شاب: «أصبحت أنظر إلى نفسي نظرة صارمة باعتباري مدرسا للدين، عليه مسئولية خاصة، ويجب أن يكون قدوة حسنة ومثلا أعلى. وقد بحثت عن المثالية وفتشت عن جميع جوانبها حتى أرهقتني، وكنت لا أسمح لنفسي حتى بالكذبة العابرة، وكنت أضيق بنفسي حين تخطئ كبقية الناس» [7]. وغالبا ما ينتهي الأمر

بمثل هذا الشاب إلى الثورة على النفس والآخرين والواقع، والى التشكك في كل القيم والنظرة التي تتسم بالتشاؤم الشديد.

رابعا

حضارة الشباب الخاصة، ليست إذن-كما يتصورها معظم الكبار-مجرد سياق للانحلال، ولا تصدر عن قرار نهائي بالهروب من مواجهة مشكلات الواقع وكل مسئولياته. وإنما هي-في بعض جوانبها على الأقل-محاولة لاكتشاف الحياة الحقيقية لا من «تزييف» الكبار لها بل من خلال «معايشتها» و «معاناتها». ومن ثم فهي بالنسبة للفنانين والمفكرين من الشباب، بصفة خاصة، فرصة حقيقية لاكتشاف الذات والعالم والنمو.

ومن أهم ما يدفع الشباب إليها التناقض الذي يجدونه في حضارة الكبار أو تلك التي يريدونها لهم، وبخاصة تعارض الممارسة الفعلية فيها مع القيم والمعايير التي يدعي أصحابها أنها تقوم عليها وتصدر عنها، وهو تعارض يبلغ من القسوة حد التشكيك في أمانة الدعوة لا، ويصرف عن احترامها والالتزام بها.

حضارة الشباب الخاصة هي-كما يفضل البعض أن يراه-نوع من «نقطة انتقال» من مرحلة الطفولة-حيث يختلط العمل باللعب بالحب في كل غير متمايز، وحيث القيود على الخيال لا تعيق انطلاقه إلا في حالات قليلة-إلى مرحلة الرشد، حيث مسئوليات الكبار وحيث الفصل الحاد بغير معنى ولا ضرورة بين اللعب والعمل والحب إلى دوائر متمايزة غير متداخلة. فهو-عالم الشباب-إذن، بمثابة «معبر» فوق الهوة الواسعة التي تفصل بين جيلي الأطفال والراشدين، ومن هنا كانت أهميتها القصوى.

والميل إلى الإعلاء من شأن أسلوب الحياة الخاص بالشباب هو-في بعض معانيه على الأقل-محاولة من جانب الشباب لإضفاء قيمة على وجودهم حرمهم منها المجتمع الكبير.

وأسلوب الانطلاق غير المسئول أحيانا الذي تتسم به تصرفاتهم يوفر فرصا للاختيار من البدائل المختلفة المطروحة أمامهم-من المجتمع الكبير ذاته-بحرية ودون خوف بحيث يمكن الاختيار منها دون مجازفة كبيرة. هو إذن نوع من المران والتدريب-الطليقين-على تحمل مسئوليات الرشد.

والتوحد مع رفاق السن هو نوع من الهروب من سلطة الكبار وتسلطهم بدون إحساس بالضياع التام. ففي مثل هذه الجماعات يجد الشاب-كما أكثرنا في موضع آخر-إشباعا نفسيا وماديا لا توفره علاقته بالكبار.

أما الرموز الخاصة-إطلاق الشعر، أو مودات الملابس وألوانها، أو غيرها- فهي بمثابة «شارات عضوية» تميز الشباب وتعزلهم عن الكبار، أو تعزل الكبار عن عالم الشباب بمعنى أدق. والتأكيد عليها يعني التأكيد على اختلاف عالم الشباب عن عالم الكبار اختلافا نوعيا.

وحضارة الشباب هي نوع من رد الفعل «لازمة الهوية»، «وغموض المركز الاجتماعي» للشباب في عالم الكبار، ومحاولة لتحديد هذا المركز في الوقت نفسه. وهي، إذا كانت في بعض جوانبها تعبير عن رفض لبعض قيم الكبار، والتمرد على القيود التي يضعونها أمام الشباب، وعلى النظام الاجتماعي الذي لا يستجيب لما يجرى حوله من تغييرات وتحولات. فإنها، من ناحية أخرى، تنطوي-بدون صراحة-على تبني بعض أساليب سلوك الراشدين وقيمهم على أساس أن ذلك يرمز الأقل تخطي الشباب لمرحلة الطفولة وبلوغهم سن الرشد.

الهوامش والمراجع

١- مصطفى سويف، «الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي: دراسة تحليلية ارتقائية»، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة، 1970، ص 227-228.

2-C.M. Fleming, Adolescence: Its Social Psychology. 1957,. London: Routledge and Kegan Paul, Ltd. Pp 177- 164.

3- سويف، مرجع سبق ذكره، ص ص 270- 272.

4-Hans Sebald, Adolescence: A Sociological Analysis New York: Appleton-Century-Crofts, 1968. Pp. 458-9.

5-ibid., p 460.

6- روجيه جارودي، «البديل»، ترجمة جورج طرابيشي، بيروت، دار الأدب، 1972، ص ص 35-36.

7- صمويل مغاريوس، «أضواء على المراهق المصري»، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1957، ص 40.

خاتمه

نحو رؤية موضوعية

أولا

أزمة جيل الشباب أو مشكلته الرئيسية ليست في مجرد«عدم كفاية الأجهزة المسئولة عنه في توفير ظروف ملائمة لإشباع حاجاته وتربيته تربية سليمة يكون بها قادرا على حمل مسئولياته الاجتماعية »-كما تذهب وثيقة هامة أصدرتها وزارة الشباب في مصر مع اكبر مراكز البحوث الاجتماعية في العالم العربي [1]. وإنما هي ترجع إلى طبيعة بنية المجتمعات العربية تخلف نظام الإنتاج، والعلاقات الاجتماعية، و قصور أسلوب العمل العام فيها. وهذه هي القضية التي تصدت لها هذه الدراسة، وحاولنا أن نحللها ونناقشها في فصول الكتاب المختلفة.

واضح أن جيل الشباب العربي المعاصر جيل غاضب غضبا شاملا. غاضب من الأجيال التي سبقته، والمجتمع الذي ينتمي إليه. يجمع أفراده تخاصم عنيف مع الواقع الذي يعيشون فيه وحتى مع أنفسهم، ويسرى الغضب في اتجاهاتهم وأحاديثهم وتصرفاتهم«كنغمة دالة»، وأن اختلفت بمستواها من فئة إلى فئة ومن موقف إلى آخر.

وغضبهم غضب«موضوعي» في بعض جوانبه

على الأقل. فهم يرون أن الأشياء تهتز أمامهم، وأنه لا شيء يسير كما ينبغي أن يسير عليه. ويعتقدون أن الحياة قد تصدعت إلى حد ما. هم يعيشون في عصر تمزق تسقط فيه الأحلام صريعة واحدا بعد الآخر، وينبت الشك واليأس محل الثقة والأمل. ومما يزيد من قسوة وطأة الوضع عليهم انهم«ولدوا مقطوعي الصلة مع الجيل الذي سبقهم» على حد تعبير أحدهم[2]. ويعتقد كثيرون منهم انهم خدعوا، ويذهب البعض إلى أن كل ما حولهم باطل وزيف. وهم يرفضون هذا القصور في الحياة، ويحرصون على أن يوصلوا رفضهم له للآخرين.

وموقف المجتمعات العربية من الأزمة التي تكاد تعصف بجيل الشباب لا يخلو من غرابة فعلى حد قول أحد الكتاب العرب:«ويخيل إلي أننا في بلادنا العربية أكثر شعوب الأرض جهلا في مواجهة هذه الثورة (ثورة الشباب)... أما بإجهاضها تماما وقتل الشخصية المستقلة (للشاب) أو بالاستسلام تماما لها بالتدليل والتلبية لكل (الرغبات). لم ندرك بعد أنها ليست مسألة هينة-نسميها فقط مشاكل المراهقة وما هي بمشاكل، وما هي بمراهقة.. وإنما هي ثورة ميلاد. اجل عيب الأبوة-والأمومة-فينا أنها أما إننا نحاول أن نتلاشى فيها كل ما وقع علينا من قسوة ونحن صغار فنترك (للابن)... الحبل على الغارب، أو نفعل العكس تماما، وبقسوة صارمة نحاول أن نفرض (عليه)... نموذجا حديديا رسمناه... أما (إحياء) للنموذج القديم الذي نشأنا عليه، وأما تصورا متزمتا لما نعتقد انه (الصواب) في التربية».[3]

يتعرض الناس لتحولات هامة بتغير مواد في دورة الحياة-من الطفولة إلى المراهقة فالشباب والرشد والكهولة والهرم، والمفروض أن تكون العلاقات بين بعضهم والبعض الآخر من المرونة بحيث تستجيب لهذه التحولات ويعاد تكيفها لتتلاءم مع الأوضاع والظروف المتغيرة.

ومرحلة الشباب هي من أخطر مراحل دورة الحياة نظرا لاتساع ما يحدث فيها من تحولات، وعمق تأثيره في الذات وعلاقاتها بالآخرين والواقع. ومن ثم، فإنها المرحلة التي تتطلب اكبر قدر من إعادة تنظيم العلاقات بين الفرد والآخرين المهمين في حياته، ومن أهمهم أبواه، واخوته، وأصدقاؤه، ومربوه. إلا أن ما يحدث هو عكس ذلك إلى حد بعيد. صحيح أن علاقات الشاب بالآخرين وبخاصة في أسرته تمر بعملية إعادة تنظيم. ولكنها تكون

عادة أعقد واقل سلاسة وسواء وجدوى من الحالة التي كانت عليها في مرحلة الطفولة. فحتى الفرد الذي نشأ على حب أبويه له وقيمتهما في نظره، تثور لديه شكوك عديدة في حسن تقلبهما له ودفء عاطفتهما نحوه، ومن ثم يفقدان جزءا كبيرا من قدرتهما على الإلهام والاستثارة العقلية.

ومن جهة أخرى، فان تعودوا الذين من الطفل أن يكون وديعا رقيقا مطيعا مقدرا لحبهم حافظا لجميلهم، يجدونه، كشاب، خشنا فظا، رافضا لهم، متمردا على علاقته بهم، ناكرا لجهودهم من أجله غير مقدر لحبهم له.

ولكل من الطرفين مبرراته في موقفه وتصرفاته، فمطالب الشاب العاطفية والمادية جديدة بالقياس إلى ما آلفه أهله منه، وهي أعقد مما تعودوا منه وأكثر تكلفة، وربما كانت لذلك اقل منطقية أو مشروعية. ويخطئ الأهل من ناحيتهم حين يصرون على التعامل مع الشاب بالمنطق نفسه، والأساليب ذاتها التي تعودوا معه بها حين كان طفلا، وحين يرفضون إعادة النظر في فهمهم له وتقديرهم لمطالب نموه واستعدادهم لدفع ضريبة هذا النمو.

لم تعد الأسرة تدرب الشباب على تحمل مسئولياتهم في الحياة. والتعليم الذي حصلوا عليه لا يقدم لهم غير القليل من المعارف العصرية ويعطل فرص اكتساب خبرات حية تؤهلهم لتكيف مجد مع الواقع، بل انه يقتل فيهم روح الابتكار والإيجابية ويربيهم على السلبية والمسايرة والانصياع.

أما علاقة جيل الشباب العربي بالأجيال السابقة، فهي بالغة التعقيد. ليس صحيحا ما يقوله بعضهم من أنهم«جيل بلا أساتذة» بالمعنى الحرفي للعبارة، فان جيلا ما لا يأتي من فراغ ولا ينشأ من العدم. والصحيح أنه سواء في سياق الأسرة أو معاهد التعليم أو الحياة العامة، تفرض الضرورة الاتصال والتفاعل بين الأجيال، وتتأثر الأجيال اللاحقة بالأجيال السابقة. وقيم جيل الشباب وهمومه وتصرفاته هي-في جزء كبير منها-استمرار لتراث الأجيال السابقة. وإنكار جيل الشباب لتأثير جيل الكبار هو إما محاولة لتأكيد ذواتهم والحصول على الاعتراف بهم في عالم يضغط عليهم للمسايرة بالانصياع، أو من باب التمرد والثورة.

ومن ثم فان ما يقوله الشاب في هذا المجال له ما يبرره. فالهوة بينهم

وبين جيل الكبار تتسع بدلا من أن تضيق. والدفء والرعاية والتوجيه والحفز التي كانت توفرها علاقات الكبار بالشباب أصبحت من ذكريات عهود خلت (فمشاغل الحياة لم تعد تترك للأب-وربما للأبوين-الفرصة لكي يقيم علاقة حميمة مع أبنائه. وأعباء التدريس التي تفوق طاقة البشر في بعض الأحيان، والأوضاع المعيشية غير المريحة ذهبت بالعلاقة التقليدية«شبه الشخصية» بين الطالب والأستاذ. وفي الحياة العامة، ولت المنتديات السياسية و«الصالونات» الثقافية والفنية، بل وجمعيات الشباب الرياضية، ولم يعد ثمة ما يجمع الشباب غير مدرجات ملاعب كرة القدم، أو كافتيريا الجامعات، أو نواصي شوارع المدن، أو المقاهي، أو ما هو أسوأ).

وبتعبير أديب شاب،«فالظروف التي يعيشها (نفر من جيل الشباب) تدفعه في اليوم ألف مرة لان يكفر بالثقافة ولان يهتف... الكل باطل وقبض الريح. يكفر بالثقافة، ثم يلوح له شيء يدفعه إلى معاودة الإيمان من جديد. ولكنه لا يلبث أن يصطدم بجمود جديد وعراقيل جديدة وتشوهات جديدة، ويستمر (كسيزيف) يدفع الصخرة ولا يصل بها إلى قمة الجبل أبدا. لأنه يصطدم بمفاهيم الأجهزة الثقافية المتخلفة، وباكتظاظ الحقل الثقافي بالمدعين وعديمي الموهبة، وبعشرات الناس الذين يتسللون إلى واجهات الحياة الثقافية كوباء. بل بكثير من الأدباء الشبان.. الذين لا يعرفون ماذا يريدون، ولا يقرءون أو حتى يعيشون.. لكن أهم الأشياء التي يعاني منها (الشاب).. هي افتقاره الشديد للنموذج الذي يمكن أن يحاذيه فكريا وثقافيا وأخلاقيا».

وفي حين كان في مقدور الجيل السابق«أن يقول ما معناه أن الحقيقة مكتملة وأن معرفتنا بها هي الناقصة، فان جيل الشباب قد أيقن أنه أصبح في حكم اليقين أن الحقيقة أيضا ناقصة، وأنها لا تسير بالحتم نحو الكمال»، فقد دفعت تطورات الحقب الماضية الجميع-حتى جيل الشباب-لان يفقدوا الأمل في تحقيق«الفردوس»، وكشفت عن أن«صناع الفردوس»-الذين وعدونا به-لم يكونوا كما صورهم الكبار قديسين ولا أقرب إلى القديسين.

وكان طبيعيا ألا يظل الشباب أسرى الامتنان العميق لمن سبقوهم. فما نقلوه إليهم من القيم والمعتقدات والمعارف والأفكار أصبحوا هم أنفسهم غير قانعين به غير مقتنعين بقيمته.

وفضلا عن هذا، فقد خلق التوسع الهائل في التعليم والزيادة المطردة في حجم مؤسساته من المدرسة والجامعة«منظمة رسمية»، فيها كل عيوب هذا النوع من المنظمات. ومن أهمها:

1- انفصال المنظمة عن أهداف نظام التعليم الأساسية إلى أهداف فئوية للإدارة أو هيئة التدريس أو شخصية لكل من العاملين فيها.

2- الانفصال بين الإدارة وهيئة التدريس من ناحية والطلبة من ناحية أخرى بحيث لم يعد النبض الحقيقي لمشكلات الطلبة مسموعا، أو مسموعا بدرجة كافية على الأقل.

3- الانفصال بين الإدارة وهيئة التدريس على أساس تعارض مصالحها كفئتين.

4- تسطح العلاقات بين الطلبة بعضهم والبعض الآخر.

وحين يفرغ الشباب من«عهد الطلب»، بعد جهد ومعاناة، لا يجدون عملا في حالات غير قليلة. ومن يوفق منهم في الحصول على عمل يجده غير متسق مع استعداداته ومهاراته، غير مرض لطموحاته وتطلعاته، قاتلا لآماله في بعض الأحيان.

ويتطلع كثيرون منهم إلى الاستقلال والى الدور نشيط في الحياة العامة يحققون به ذواتهم من جهة، وينفذون من خلاله المشروعات التي حلموا بها طويلا من جهة أخرى. ولكنهم يواجهون مجتمعا ينكر الاعتراف بحقهم في الاستقلال، ويفرض عليهم وصايته إلى غير نهاية فيما يبدو-فما يتاح لهم من فرص الحياة لا يسمح لهم بالزواج والاستقرار، وحريتهم في القول والعمل مقيدة، بل إن تفكيرهم يوجه في المسارات والقوالب التي يحددها له الكبار.

وفي مجال الحريات الشخصية، مثلا، يلاحظ الشباب بأسى انه على الرغم من أن التطور الاجتماعي قد عدل في وضع المرأة في المجتمع، فثمة من يقول بأن زوجة الأمس كانت أسد وأهنأ من زوجة اليوم فقد كانت تجد سعادتها في خضوعها لرغبات الزوج وإرضاء شهواته، أما الآن-وبالتأكيد المتزايد على حق المرأة في الاستمتاع بالحياة الزوجية وبمركز أفضل في البيت-فقد ضاعت منها الفرصة القديمة في وقت وفر عنها التقدم العلمي والتكنولوجي والتطور الاجتماعي كثيرا من أعباء الأمومة والزوجية، فلم

تعد نجد فيهما تحقيق ذاتها.

ويثير البعض تحفظات جوهرية على نسق القيم الذي يأخذ به الكبار. فمثلا، لماذا تزعجنا إلى درجة خطيرة دعارة المرأة-أو اتجارها بجسدها بدون تمييز-ونكاد نقيم الدنيا ونقعدها حين نعرض لحالة من هذه الحالات، ولا يزعجنا-بالقدر نفسه على الأقل-تنازل الرجل عن كبريائه أو خيانته للأمانة وتهاونه في المسئولية. ما الفرق بين أن تبيع المرأة جسدها تحت ظروف قهرية عادة، وأن يبيع الرجل-أو يتجر-بكرامته تحت ظروف اقل قهرا؟ والضرر في الحالة الأولى ينحصر في نطاق شخصي بدرجة أساسية، ولكنه في الحالة الثانية مادي ومعنوي وينطوي على أضرار كبيرة-أحيانا بالآخرين وربما بالمجتمع كله.

وفي ظل التخلف الرهيب يدفع الواقع في الشباب الذي يزداد مداه وخطورته سنة بعد سنة، والهزيمة في الصراع الحضاري، يأسا قاتلا بسبب الشعور بالعجز، وتمردا رافضا بسبب فقدان الثقة في جيل الكبار، الذي يعتبرونه مسئولا عن آلامهم ومتاعبهم. ويصل اليأس حدودا بعيدة، ويصل فقدان الثقة من الكبار نقاطا حرجة، حين يشاهد الشباب أن كل الشعارات التي رفعت والتضحيات التي قدمت والدم الذي بذل في مخاض الشعب العربي في عملية التحديث لم تسهم في خلق البناء الذي كانوا يحلمون به، ولا حتى الذي وعدوا به.

وفي ضوء هذا الواقع القاسي، يبدو من غير الواقعي أن يطلب من الشباب موقفا ناضجا واعيا من الحياة، أو أن يتوقع منهم تكيفا وتوافقا يرضياننا نحن الكبار، أو أن ينتظر منهم أن يكونوا استمرارا لنا وامتدادا على صورتنا. وكيف ننتظر منهم منهجا فكريا متماسكا أو حتى نظرة مترابطة للحياة في وقت لا نقدم لهم من فرص تكوين مثل هذا المنهج أو بلورة مثل هذه النظرة فرصا كافية، إذا كنا نقدم لهم شيئا على الإطلاق؟. وكيف نفرض عليهم انسجاما مفتعلا مع واقع لا يفهمونه جيدا، ولا يتفق ما يفهمونه من جوانبه مع استعداداتهم ومهاراتهم، ولا يلتقي مع طموحاتهم وتطلعاتهم، وإنما يفوقها أو يقتلها؟. وكيف، أخيرا، نتوقع من تطورهم أن يكون امتدادا طبيعيا لجيلنا نحن، أو لأجيال سابقة، في حين أنهم لا يحسون بالانتماء العضوي إليها، وفي حين أننا نعلمهم أن الاختلاف بين الأجيال لا

التطابق ولا حتى التشابه، هو الذي يضمن التقدم ويساعد في تفادي التحجر والجمود.

أزمة جيل الشباب العربي-إذا نحن صرفنا النظر عن المبالغة والتشنج والإدانة للكبار التي يقدمها بها بعض الشباب، ورد الفعل الثائر للكبرياء الرافض لنكران الجميل الذي يصدر عن معظم الكبار-هي أزمة حقيقية تضرب بجذورها بعيدا في تركيب المجتمع العربي.

فمعظم عناصر جيل الشباب المتعلم-مع شيء من التبسيط-من أبناء الطبقة الدنيا والبورجوازية الصغيرة-صحيح أن نسبة منهم من أبناء الطبقة الوسطى والشرائح الأرقى، ولكن هؤلاء لا يمثلون أغلبية، بل ولا يشكلون قطاعا كبيرا منه-من أبناء الموظفين والحرفيين في المدن وصغار الملاك والحائزين ومتوسطيهم في القرى، وصلت بهم إلى التعليم الرسمي ظروف عديدة من أهمها، ضيق الرقعة المزروعة عن استيعابهم، ومجانية التعليم في أغلب مراحله، وآمال أهليهم في مستقبل افضل لهم.

انطلقت هذه القاعدة المريضة عبر مراحل التعليم المختلفة تحدوها آمال كبار وتطلعات إلى الصعود في السلم الاجتماعي الاقتصادي لم تخطر ببال آبائهم. يقول أحدهم:«موقفي هو موقف ابن الطبقة الوسطى الصغيرة... يحاول أن يتخطاها ليصبح ثائرا وليس انتهازيا متطلعا». ويحدد آخر المؤثرات في وجدانه، فيذكر من بينها:«بيئة بورجوازية بمناقضاتها الحادة وزيفها الصارخ وتعصبها التشنجي». ويضيف آخر-بلغة لا تخلو من المباشرة والقسوة«نحن أبناء الآباء الفقراء المرضى بالبلهارسيا الذين ماتوا في الشوارع وخلف التحصينات... نحملهم في قلوبنا ونحن ننطلق من الدور والمخيمات نقتل عدونا ونبني دارنا، نحن استمرار لملحمة خالدة هي كراهية القهر والخوف والفقر والتخلف».

ولقد ساعد في تغذية هذه الآمال وتأكيد مشروعية هذه التطلعات لدى الشباب، أنهم عاشوا فترة أحلام. فعلى المستوى المحلي رفعت كثير من نظم الحكم الوطنية في المنطقة العربية-بقدر كبير من حسن النية-وقدر لا يقل عنه من الاندفاع ونقص الوعي التاريخي والسياسي-شعارات عديدة في التحرر الاقتصادي والتنمية والوحدة والاشتراكية أو العدالة الاجتماعية على الأقل. واعتمدت في طرح هذه الشعارات على الشعور القومي الجريح

بسبب الاستعمار والتخلف المتطلع إلى إرضاء كبريائه الحضاري، وخاطبت رومانسية الشباب وطموحاتهم القومية، فاستلبت لبهم، واستولت على خيالهم، واستقطبت جهودهم ونشاطهم.

هم، إذن، جيل حلموا بالكثير ووعدوا به. وحين وصلوا إلى مرحلة الوعي، بدأت أحلامهم تتهاوى أمام أعينهم واحدا بعد الآخر.

صحيح أن حركة التحرير الوطني قد نجحت في فك قيود العالم العربي وتبعيته لأوروبا بفضل ثورات مسلحة، نادرة في تكلفتها والبطولات التي كشفت عنها. ولكن الواقع يقول أن موجة استعمارية جديدة قد نجحت في امتهان كبرياء الأمة العربية واحتلال جزء من أرضها.

وفي معظم الاختبارات التي تعرضت لها هذه الشعارات التي رفعت (التحرر والتنمية والاشتراكية والوحدة وغيرها) كان إخفاقها بشعا زاد عمق الجرح في الشعور القومي بدلا من أن يساعد على التئامه. ولم يكن ما استثارته الهزائم من ألم ومرارة ويأس راجعا إلى الإخفاق في حد ذاته، وإنما كان ذلك لان بعض النظم الوطنية قد كشفت عن الأسس الهشة التي تقوم عليها. وأحس الشباب بأنهم ضللوا لا عن حسن نية أو سذاجة، وإنما بقدر من التعمد والقصد.

ولقد نجحت كثير من النظم الوطنية في الوصول إلى طريق«التحديث»، ولكنها ما زالت تتمثل في خطواتها الأولى فيه. نجحت في استصلاح أراضي وإقامة مصانع وتشييد مدن وتبنى آخر صيحات الاستهلاك في العالم، ولكن إنتاجها مازال منخفضا، ومعدلات نموها متواضعة، والهوة بينها وبين الدول المتقدمة تتسع بدلا من أن تضيق.

بل إن الدفعة الأولى التي انطلقت بها بعض هذه النظم في طريق«التحديث» قد خنقت. يقول شاب«وما زلنا مجتمعات زراعية فقيرة عاجزة تواجه مجتمعات صناعية متقدمة تمد أذرعا فولاذية تطول بها العمر، وتمد ذراعا استعمارية تغرس كفها في أرضنا، وتدفع أصابعها لتدخل في أعناقنا وتأخذ برقابنا. إن التخلف بالنسبة لنا يعني الموت، الموت بكل معنى الكلمة خلوا من المبالغة أو (التهويش)» ويضيف إلى ذلك«ليس عيبا أننا متخلفون.. الجريمة هي أن ننكر تخلفنا ونجعجع بالترهات (و) تلك جريمة يمكن أن يكون عقابنا عليها الموت»».

ويشعر الشباب العربي بشيء كثير من الألم واليأس حين يقرءون كيف كيف كافحت«صفوة التحديث» في تاريخ أوروبا الغربية، مثلا: ادخرت واستثمرت وتعبت وتنقلت وهاجرت وغزت آفاقا لم يكن للإنسان عهد بها، وأبدعت ما تزهو به الإنسانية في مجالات الفن، والعلم، والأدب، فضلا عن التكنولوجيا.

ومصدر الألم واليأس هو-كما نلاحظ جميعا-إن الصفوة المسئولة عن تحديث العالم العربي تسير في طريق شبه مسدود، هي تكسب كثيرا دون تعب يذكر، ومن ثم تتجه إلى الاستهلاك والاستمتاع دون أن تأبه كثيرا بمسئولياتها التاريخية، بل إنها لا تتحمل مسئولياتها الاجتماعية الراهنة. والخطير في الأمر أنها تملك من إمكانيات التسلط والقهر أضعاف ما كان متاحا لطلائع تحديث أوروبا الغربية.

وبعض الدول العربية تقف حائرة عاجزة وسط عالم لا تباشر دورا إيجابيا في تسيير أموره. وهو ما ينعكس في وجدان شبابها بالتمزق والانفصال عن الأحلام، بل والخوف الذي يصل إلى حد القلق من أنه يمكن أن يقضي عليه في أية لحظة طيش، وهو موقف تختلط فيه الرغبة في الحياة بالرغبة في الخلاص بالموت. ومن ثم فانه ليس من باب الصدفة أن الأغلبية من نزلاء مستشفيات الأمراض النفسية والعصبية والعقلية من الشباب أو ممن لم يتخطوا مرحلة الشباب إلا من سنوات قليلة. ومعظم هؤلاء من طلاب الجامعات والمدارس الثانوية، اغلبهم مصابون بشعور دائم بالقلق والصرع والتشنج الهستيري، بالإضافة إلى مشكلات ضعف ونقص القدرة على التركيز والخوف من الامتحان.

ولا ينكر أحد أن التطور في معظم بلدان العالم العربي قد أزاح الطبقات شبه الإقطاعية والاوتوقراطية. ولكنه أتى في بعض الحالات بشرائح لا تقل عنها استغلال، بل تزيد عليها في طفيليتها. وما زالت صورة المجتمع الذي تصبح فيه المصلحة الاجتماعية هي مصلحة الجماهير الكادحة حلما بعيد المنال.

ويشعر الشباب بشيء كثير من الحيرة حين ترفع شعارات تقول أن الشباب هم غاية التنمية، في حين أنهم يجدون ليسوا سوى أدوات فيها يتحملون تكلفتها دون أن يستفيدوا فائدة حقيقية من عائدها.

وشيئا فشيئا، تصل عناصر غير قليلة من جيل الشباب إلى اقتناع لا يخلو من المبالغة في التشاؤم-بأن كل شيء زائف وباطل. وهو اقتناع يزيد من مرارة وقعه في النفس إحساسهم بالعجز عن المشاركة في عمل شيء يساعد في تفادي«الكارثة» واضطرارهم إلى أن يقفوا موقف المتفرج أو المراقب و«السفينة تغرق بكل من فيها»-هم والكبار.

ويصور شاب هذا الشعور باليأس الذي يعاني منه الشباب العربي بقوله:«إن الإنسان قد يقر بعجزه، لكنه مع ذلك لا ينزل عن طموحه... وإني لأتساءل: هل بقى لنا-نحن الشباب-شيء نحققه؟ إن لدينا الطموح، لكنهم نزعوا من أمامنا الفرصة امتصوا المقدرة، إن انتفاء المقدرة لا يحقق الطموح وانتفاء الطموح يجعل المقدرة تترهل».

ويقول شاب آخر:«إني لحائر بين هذين الطرفين، فهل أنشد القيم والمثل، غير عابئ بما تجره علي من متاعب... أو أتناساها وأسير في تيار التكالب على المنفعة المادية الذاتية، مضحيا بجوهر إنسانيتي، وهابطا إلى مستوى الحيوان الذي ينحصر همه في طعامه وشرابه؟» [4].

ومن الأمور الدالة أن القضايا التي تختلف فيها طليعة الشباب مع بعض نظم الحكم في المنطقة العربية هي نفسها تلك التي يثبت التاريخ أنها المصيرية، وأن النهج الذي تدعو هذه الطليعة إلى السير فيه في معالجة القضايا هو نفسه الذي يؤكد التجارب سلامته وأمانة، وان الأحكام التي يصدرها جيل الشباب على بعض صفوات الحكم-والتي تبدو بالغة القسوة متطرفة في الإدانة أحيانا-هي الأحكام نفسها التي يصدرها التاريخ على تلك الصفوات بعد أن«تزول دولتها»، وتتوقف عن التأثير الذي يشوه أحكام الناس عليها، ويصبح من الممكن الحكم بما لها وما عليها.

وفي تحليل لبعض ملامح أزمة العصر على المستوى العالمي، يقول زكي نجيب محمود [5]«نعم، أنه عصر ملئ بالمفارقات العجيبة: فلقد ازداد الإنسان وعيا بحقوقه، ومن أهمها حق الحرية، حتى ليتميز بكثرة الشعوب التي ظفرت بحريتها ممن كان يستبد بها-من خارجها أو من داخلها-لكن هذه الحرية نفسها سرعان ما أوقعته في حيرة، متسائلا بينه وبين نفسه: كيف يحياها؟».

« وهو عصر زودته علومه بوسائل اتصال لم يقع لها شبيه في أحلام

الحالمين، وكان المنطق يقتضي أن يؤدي هذا الاتصال اليسر السريع إلى تقارب بين الشعوب، لكن التاريخ لم يشهد عصرا كعصرنا، حرصت فيه الشعوب على مميزاتها التي تنفرد بها، حتى لا ينجرف شمب فتضيع هويته في هوية سواه ومعنى ذلك، هو إن المساواة المزعومة بين الناس وبين الشعوب، لم تزل لفظا على الشفاه، إذ لا يزال الناس رجلين-كما كانوا في عصر الكهوف-آكل ومأكول».

«وهو عصر ازدادت فيه الدنيا ثراء بغزارة إنتاجها، لكن ساءت وسائلها في توزيع تراثها سوءا زاد الهوة اتساعا بين الفقر والغنى، خصوصا بين الأمم، مما يضع الشعب الفقير في منزلق يخشى معه في كل لحظة أن تنزل به ضربات الغنى فيهوى إلى غير قرار».

»انه عصر وضع فيه الإنسان قدميه على سطح القمر، من التقدم العلمي الذي حقق له ذلك ترك الأمراض تنهش الناس على الأرض نهشا، لقد كانت عملية العصر تقتضي مزيدا من العقلانية التي تكبح النزوات في صدور أصحابها».

«ومع ذلك، فقد رأينا تيارا يجرف الناس-والشباب منهم بصفة خاصة-نحو عفوية الطفولة، وأرادوا أن يلفتوا الأنظار إلى الوجهة الرومانسية الجديدة، ففعلوا ذلك عن طريق الأغراب في الشباب وفي عشوائية السلوك، وإذا قال لهم قادتهم أن إصلاح الحال بطئ الخطى، وأن عليهم أن يصبروا إلى حين، صاحوا بشعارات تقول: الحرية الآن!! الازدهار الآن!!».

ويتابع زكي نجيب محمود تحليله فيقول:«خلاصة هذا كله. على أنني أؤكد انه في بلادنا أقل منه في البلاد التي العصر كله. على أنني أؤكد أنه في بلاد أقل منه في البلاد التي أخذت سيادتها تتحصر عما كانت منذ حين تسيطر عليه، فبينما شباب تلك البلاد ينظر إلى وطنه وهو ينكمش بعد اتساع، ويهبط بعد صعود، فشبابنا يجب أن يدرك أننا على طريق الصعود، نسترد ما كنا فقدناه، وأن ذلك ليتم على أيدي هؤلاء الشباب أنفسهم بأذن الله». [6]

يكشف هذا التحليل عن بعض ملامح أزمة الإنسان المعاصر. ولكنه ينطوي على خطر الإيهام بأن الأزمة واحدة بالنسبة لكل المجتمعات أو هي أهون في مجتمعاتنا، هي ليست كذلك بالقطع. فأزمة المجتمعات المتقدمة

أو أزمة العقل فيها تتمثل في أنها لم تعد قانعة بما حققت وإنما هي تسعى إلى تجاوز الآفاق التي بلغتها. أما المجتمعات العربية فما زالت تخوض معركة قاسية مع الخرافة والأسطورة محاولة أن تجد لنفسها موضعا لقدم على طريق التقدم الحقيقي. المجتمعات المتقدمة تعيش، بعبارة فؤاد ذكريا[7]، أزمة«ما بعد العقل» أما المجتمعات العربية فإنها تعيش أزمة«ما قبل العقل». أزمة الأولى هي أزمة ضيق الإنسان الغربي بنمط الحياة البورجوازي السائد وبحثه عن بديل أفضل، فهي أزمة عقل في موقف هجوم وتمرد. أما أزمة العقل العربي فهي أزمة وضعه فيها تشبث العناصر التقليدية... بمواقفها ومقاومتها للتغير.. فهي أزمة عقل في موقف دفاع. والمؤرق أن الهوة بين مجتمعاتنا والمجتمعات المتقدمة في هذا الصدد تزداد اتساعا بدلا من أن تضيق.

ثانيا

على أن للقضية وجها آخر. فكثيرون من جيل الشباب ضيقو الصدر، ينفعلون بحدة لأبسط تأثير، ويندفعون بسرعة نحو الرفض والتمرد والتدمير. وقد توجه طاقة العصبية والتدمير نحو هدف برئ، وحين يعجزون عن تدمير ما يستعصي على التدمير، لا يتردد بعضهم في تدمير أنفسهم فغرور بعضهم لا يقف عند حد الإحساس بالكبرياء، وإنما قد يصل إلى صور مرضية، وبخاصة في حالات الشباب فقير الإمكانيات«غير الواعد» الذي يكون غزوه حاجزا يقيمه بينه وبين المحاولة والخطأ والتجربة.

وحين يناقشون علاقتهم بالجيل السابق عليهم، تصل أدانتهم له إلى آفاق بعيدة مفرطة في المغالاة تتلون بالاحتقار والاستعلاء في أغلب الحالات. ولكن أيا كان الحكم، يتحول الكبار في نظرهم أشباح«هزيلة» أو«عواجيز انتهى دورهم في الحياة» أو«آلهة موتى أيديهم متشنجة على عروشهم». الواعدون من الشباب فقط هم أولئك الذين يرجعون الخلاف-أو الصراع- بينهم وبين جيل الكبار إلى الاختلاف في رؤية الأشياء اختلاف يرجع إلى تباين الظروف الموضوعية، ويحتم إيجاد قيم وأساليب تعبير وعمل ونظم جديدة.

فقطاع كبير من جيل الشباب يتعجل النجاح في الحياة فيهدر كثيرا من

الفرص التي تتاح لهم للنضج. وهؤلاء يريدون أن يحققوا طموحاتهم في الحياة بدون تحمل ضريبة ذلك من الكفاح والمعاناة.

صحيح انهم يجدون أنفسهم في وسط تشيع فيه النفعية والوصولية، ولكنهم يتورطون فيما يتمردون عليه، ويسلكون الطريق نفسه الذي يعيبون على الآخرين السير فيه-غير مستعدين للاستفادة من تجارب الفشل، غير مقتنعين بأن الأمر يتطلب جهدا ومجاهدة، مجاهدة النفس ومجاهدة الواقع.

وهم على حد قول بعضهم«أنانيون» و «عصبيون» و«متحاسدون» و«يغربون في كل اتجاه-وفي الاتجاه الخطأ في أحيان كثيرة».

وإذا كانوا يشكون من«الشللية» فانهم يفعلون ذلك-في رأي بعضهم-حين يعجزون عن تطويعها لتحقيق مشروعاتهم الخاصة، ذلك لأنهم يساعدون في استشرائها، إن لم يكونوا هم خالقيها.

وموقف بعض جيل الشباب من الثقافة-العامة والمتخصصة على السواء-موقف غريب في نظر بعض الكبار، فهم قد قطعوا صلتهم بالتراث العربي-حتى مراحله المعاصرة لهم، واكتفوا منه بعناصر تافهة. وفي الوقت نفسه لم يستوعبوا التراث العالمي-حتى ما أتيح لهم منه. وبالرغم من أن بعضهم يدعى سعة الاطلاع عليه، فانهم لا يفهمونه جيدا، ولا يستطيعون الوقوف منه موقفا نقديا.

»وأن نظرة واحدة إلى الأجيال الجديدة من دارسينا لتقنعنا بأن قدرة هذه الأجيال على استيعاب الثقافات العالمية الجادة متضائل دواما. ويزداد كل يوم الاتجاه إلى الاكتفاء من هذه الثقافات بالقشور، والاعتماد على مترجمات ركيكة معيبة غير علمية تعد هي الزاد الأكبر لدى نسبة كبره ممن يعتمد عليهم في«النهوض بثقافتنا في المستقبل» (8) بل إن الكثير من الشباب لا يقرءون ما فيه الكفاية. حتى ما يقرءونه لا يهتمون بتمثله. ومع هذا فانهم يميلون إلى التعجل في النشر يهدفون منه إلى تحقيق مصالح مادية أو حتى استعماله للابتزاز.

لا يختلف كثيرون حول جوانب القصور العديدة التي تعيب نظام التعليم وأجهزة الثقافة، بل والمناخ الحضاري العام«فنحن» بعبارة فؤاد ذكريا«ندين أنفسنا كلما اتهمنا شبابنا بالتقصير في طلب العلم والثقافة. ولن يكون لهذا الاتهام أساس إلا لو كان جيل الكبار قد أدى بالفعل واجبه كاملا نحو

الجيل الذي سيتحمل الأمانة من بعده» [9]. ولكن ليس ثمة شك في أن كثيرين من الشباب يهدرون الفرص التي تتاح لهم مهما كانت قليلة، وينتهون إلى حالة مخيفة من السطحية أو ضيق الأفق. فشكاواهم موضوعية في حالات كثيرة، ولكنهم يبددون طاقاتهم في الشكوى ويصدرون أحكام الإدانة والرفض الشامل، بدلا من الاستفادة من الشيء القليل المتاح.

ومن ثم، فان رفضهم المطلق للماضي والحاضر، وتحليقهم الطليق في المستقبل اللامتعين، ينتهي ببعضهم إلى موقف يعجزون فيه عن عمل شيء لتحقيق أحلامهم ويتسببون للواقع الذي يرفضونه بأن يستمر ويتدعم.

ثم انهم-حتى من يعتبرون أنفسهم«مثقفين»-لم يتخلصوا من رواسب الفكر التقليدي ومخلفاته في وجدانهم وضمائرهم، وما زالوا ضحايا لقيم عتيقة مفروضة بحسب منطقهم هم أن يكونوا قد تجاوزوها، أسرى للخرافة، يشكون في قيمة العلم من أعماقهم.

فإذا أخذنا مجال العلاقات بين الجنسين-على سبيل المثال-راعنا أن قيما تقليدية هي من أهم أهداف ثورتهم-أو شعاراتهم بمعنى أدق-مازالت تسيطر على وجدانهم وتوجه أحكامهم وتصرفاتهم. ومنها: [10]

1- إن المرأة خلقت لإمتاع الرجل ولتخفف قسوة الحياة عنه، ومن ثم يجب أن يتجه أعدادها وفرص الحياة التي تتاح لها لتحقيق ذلك.

2- إن المرأة ينبغي ألا تسبق شريك حياتها في التعليم أو الثقافة أو المركز، وان مكانها الطبيعي هو البيت ووظائفها تنحصر في الزوجية والأمومة.

3- الأخذ بازدواج في القيم المتعلقة بالجنس ينكر على المرأة حق المبادلة في الجنس، بينما يتطلبه من الرجل، ويستنكر«فكرة» حقها في التجربة الجنسية قبل الزواج فضلا عن خارج علاقة الزواج، في حين يستسيغها، بل ويستحبها، في الرجل.

4- النظر إلى المرأة على أنها«شريرة بطبيعتها»، أو على الأقل«هوائية»،«ناقصة العقل»،«لا تستطيع أن تحمي نفسها من الرجل». ومن ثم يصبح للرجل-الزوج-أن يتسلط عليها وأن يقوم اعوجاجها حتى بالعقوبات البدنية.

ومن المؤلم-والمؤسف حقا-أن مثل هذه القيم والاتجاهات والمعتقدات

تشيع بين الإناث كما تشيع بين الذكور وان كانت أوسع انتشارا بين الذكور. والخطر في الأمر إن هذه القيم والاتجاهات ليست في المحل الأول قيودا يفرضها المجتمع-من الخارج-على اختيارات الشباب، وإنها هي تصدر عن نوع من الاقتناع الداخلي دون إرغام. صحيح أنها رسخت في ضمائرهم وأصبحت تجري في دمائهم بعد عمليات تعليم طويلة معقدة، ولكنها بالرغم من ذلك لا يجوز أن تكون قدرا محتوما لا يستطيعون الخلاص منه.

ثالثا

إن حساسيتنا نحن الكبار لنقد الشباب للنظام الاجتماعي، ورفضهم له وتمردهم عليه، لها ما يبررها من الناحية الإنسانية: فكل دعاوى الشباب تدين الأجيال السابقة، وأي تحول ينادون به لا يمكن أن يتم إلا على حساب مصالح«الكبار»، والطريقة التي يعتمدون عليها في تحقيق ذلك تكشف عن كثير من جوانب القصور في الحياة.

ولكن الذين يرفضون على الشباب حق الاختلاف معنا في تقييم واقعهم، والأساليب المختلفة للتفاعل والتكيف معه، وتصور مستقبلهم واختيار طرق تحقيق أحلامهم وتحمل مسئولياتهم فيه، يتناقضون مع أنفسهم، فقد طالبوا هم أنفسهم بهذا الحق في شبابهم وأصروا عليه.

بعض تمرد الشباب ورفضه صحي ومفيد، ويجب ألا نحاول قمعه. وبعض آخر منه مؤشر على أزمة، ربما تكون حادة، ويستدعي أن نتجه إلى الأزمة نحاول حلها بدلا من أن نركز على التمرد لقمعه.

هم يقولون انهم يبحثون عن صيغ جديدة للتكيف في همهم وأفكارهم ومعتقداتهم وأساليب سلوكهم تتلاءم مع الوضع الجديد المتغير من حولهم فهم يتحركون في اتجاه المستقبل.

وتدلنا تجارب تاريخية عديدة على أنه بقدر حيوية جيل الشباب وحركته في مجتمع ما، يكون قدرة المجتمع على تجاوز الحدود التي بلغها والانطلاق نحو آفاق جديدة. فالشباب من فائض العمالة في إقطاعيات العصور الوسطى في أوربا الذين ثاروا على جمود مجتمعاتهم الزراعية وارتادوا آفاق التجارة، ثم الصناعة، هم الذين حققوا إنجاز أوروبا الفذ: المدنية الرأسمالية الحديثة. وشباب العمال والفلاحين الذين تمردوا على انحلال

المجتمع القيصري وظلم السادة في روسيا، هم الذين قدموا التجربة الثانية في التطور الاجتماعي في العصر الحديث«التجربة الاشتراكية». وبدون جهود أولئك وهؤلاء، ما كان العالم ليخرج من ظلام العصور الوسطى. والشباب في هاتين المدنيتين هم الذين يحملون الآن لواء الثورة لتخليصهما من الجمود والتحجر والمذهبية التي جلبها لهما جيل الكبار.

والحقيقة الواضحة-المؤلمة للبعض-إن رفض الشباب لبعض صور الفساد الاجتماعي، وتمردهم على بعض صور الظلم، وثورتهم من أجل مجتمع افضل، تكثيف كلها عن درجة من الوعي والأمانة والإحساس بالمسئولية والشجاعة اكبر مما لدى معظم الكبار. (وان كان هذا لا ينفي أن موقف الشباب من القضايا التي تهم من قريب-الدراسة، والحب، والزواج، والعمل، وما إليها من الحريات الشخصية والمدنية-ينطوي على قدر من الأنانية، يعكس مواقفهم من القضايا العامة).

وعلى سبيل المثال، كلنا يلمس أضرار إطلاق حرية الرجل في تعدد الزوجات والطلاق، ونلاحظ كيف أن الحقوق الأساسية للمرأة والطفل في حاجة إلى قدر كبير من الدعم والحماية، ونشاهد الأخطار الحقيقية لزيادة النسل بمعدلاته الحالية (في بعض الدول العربية) ولكن المجتمع لا يزال يتخذ من هذه المشكلات موقفا سلبيا. ولا بد أن يؤدي مثل هذا الموقف إلى توتر حاد يصل إلى حد الانهيار أحيانا حين يجد الشباب أن سير الأمور في بلادنا يتعارض مع ما يقتضيه المنطق والعقل [11].

فنظام الدولة الحديثة يدفع في نفوس الشباب إحساسا بأن الحياة تمضي بدونهم، وانهم لا يقدمون شيئا مفيدا يجعل لهم دورا هاما فيها. فبعد أن تخطت المجتمعات الغربية مرحلة الكفاح من اجل الاستقلال السياسي-التي لعب الشباب فيها دورا حاسما-فان عملية التنمية تسير بشكل يوحي للشباب أنهم أصغر من أن يشاركوا في وضع استراتيجيتها وخططها ومتابعة تنفيذها. وبهذا يخلق لدى الشباب شعورا بأن جيلهم لم يعد كما كانت الأجيال المماثلة في حقب تاريخية سابقة-ذا دور إنتاجي هام، وانهم اصبحوا عبئا اقتصاديا ونفسيا.

والمجتمع الحديث بنظمه وانساق القيم فيه يمر في اتجاه إلغاء تميز فترة الشباب. وذلك لأنه لم يعد يسمح للشباب بأن يعيشوا حياة تتناسب مع

متطلبات النمو في مرحلة العمر. وهو بتعقيداته ونقص مرونته يجعل من بعض فضائل مرحلة الشباب-الحماس، و الرومانسية، و التفاؤل، والأمانة، وغيرها-رذائل تنطوي على خطر على الحياة بدلا من أن تساعد في تطويرها واثرائها.

وحين يجد-أو يتصور-بعض الشباب أن المجتمع قد سد طريقهم في الحياة، ولا يوفر لهم فرص تحقيق التطلعات التي يحلمون بها، فانهم ينسحبون-جزئيا على الأقل-من مجال النشاط العام بعد أن يفقدوا حماسهم للقضايا العامة إلى مجال خاص محدود لا يشغلون أنفسهم فيه بغير شئونهم الخاصة. وهؤلاء ليسوا بالضرورة أنانيين يبحثون عن أمنهم الخاص على حساب مسئولياتهم الاجتماعية، وإنما هم أشخاص أخفقوا في محاولات أداء دور عام ذي معنى.

ليست مسئولية جيل الشباب أن أهدافهم غير واضحة، أو غير طموحة، ولا مفيدة اجتماعيا، ولا أن وسائلهم إلى تحقيقها تنقصها الكفاءة والفاعلية في بعض الأحيان-فهذه مسئولية المجتمع في المحل الأول. ولعل هذا أوضح ما يكون في حالة المرأة التي تعدها كل وسائط التطبيع الاجتماعي للزواج والأمومة، ثم يؤخذ عليها بعد ذلك أن طموحاتها وتطلعاتها لا تخرج عن نطاق الحياة الأسرية: وبالذات لا تتسع لتشمل القيام بدور هام في عملية الإنتاج الاجتماعي-لا الإنتاج البيولوجي.

والذين انطلقوا بالآلاف يحطمون السيارات، ويؤذون الناس، ويشعلون النار في بعض المرافق، في عدد من المدن المصرية في يناير 1977، لم يكن في وجوههم ملامح الرضا ولم تكن تصرفاتهم تعبر عن راحة داخلية. بعضهم يفتقدون الحب في بيوتهم ومدارسهم. وهم إذا كانوا في مدارس لا ينادون بأسمائهم، تنصب عليهم الشتائم من كل الكبار، مساكنهم أضيق من أن توفر لهم الحد الأدنى من حاجتهم، والمجتمع لا يبدي نحوهم من العطف-بل ولا من الاهتمام-ما هم جديرون به كمواطنين. كيف إذن يشعر هؤلاء بالحب الذي يفتقدونه، أو الوعي الذي لا يجدونه في الآخرين.

رابعا

يختلف موقفنا من أزمة الشباب وتعاملنا معها باختلاف التحليل الذي

نختاره لها والتفسير الذي ننتهي إليه فيها. فإذا نحن رأيناها في ضوء الحتمية البيولوجية، عند هول مثلا، فليس ثمة ما يلزم أن نفعله بازائها سوى أن نحتمل وننتظر حتى تمر العاصفة، وتهدأ الأزمة. وإذا تبنينا نظرية فرويد-والتحليل النفسي بعامة-فان الحل يتمثل في العمل مع الشباب كأفراد، وبتبصيرهم بدوافعهم وكوامن اللاشعور عندهم ومساعدتهم في في فهم مشكلاتهم، واكتساب القدرة على حل صراعاتهم الداخلية. أما إذا أخذنا بوجهة نظر علماء الاجتماع والأنثروبولوجيين فان الأمر يتطلب منا أن نبذل جهدا جادا لتغير الواقع الموضوعي: البيئة الاجتماعية والأنساق الحضارية، أي تعديل السياق الذي تظهر فيه الأزمة.

ولقد ترتب على هذا التباين الشديد بين مواقف النظريات المختلفة من أزمة الشباب أنه لم يتحقق تقدم يذكر في مجال الوصول إلى تحليل لها مقنع لكل من يتعاملون معها. وهذه أولى العقبات في طريق وضع برامج لحل أزمة الشباب ومشكلاتها.

وإذا كان صحيحا أن طرح المشكلة بصورة سليمة (شاملة ومتعمقة، يقتضي منا نظرة تاريخية واجتماعية حضارية مقارنة لا تكتفي بتحليلها في مجتمع ما، وإنما تتسع لتراها في مراحل تاريخية مختلفة، وسياقات حضارية واجتماعية متباينة، فان الحاجة اكثر إلحاحا إلى«روح» ومهارات جديدة للتعامل مع جيل الشباب. وذلك لان حتى أكثرنا ثقافة مازالوا يتورطون في أخطاء في تسليمهم بمشروعية طلبات الشباب وأساليب التعامل معهم.

ولقد تبين لنا أن أزمة جيل الشباب العربي تضرب بجذورها بعيدا في أعماق بقية المجتمع: النظام الاقتصادي، ونسق القيم، والعلاقات الاجتماعية، ونظم الأسرة والتعليم والسياسة وما إليها. ومن ثم فان حل الأزمة-وحتى احتوائها-يتطلب التعامل معها في كل هذه الأنظمة والمجالات.

وواضح أن الأجوبة القديمة للأسئلة التي تثيرها الأزمة غير مفيدة، وهو أمر أثبتته تجارب تطبيقها. ونحن لا نستطيع أن نستمر في أسلوبنا الحالي للتعامل مع الأزمة بالرد على الأسئلة المتعددة بإجابات قديمة وبصورة تجريبية.

وليس من الجائز أن يستمر بعضنا على حالة اللامبالاة تجاه الأزمة، فان الحال الذي يمكن أن يكون عليه في المستقبل متوقف على ما نفعله

الآن. والمستقبل لا متعيّن، وهو رهن تصرفاتنا.

ولا يمكن أن يتحقق شيء تلقائيا، والموقف يتطلب منا أن نفعل شيئا. فعلى حد قول روجيه جارودي Roger Garaudy «إن اليأس لا يتحول آليا إلى حركة مساعدة تطوح بالنظام المولد (له). فلا بد لذلك من مشروع ثوري يزيح النقاب عن إمكانية نظام آخر [12]».

وربما يطرح أحد سؤالا: «ما هو مضمون الثورة التي ننادي بها وندعو لها؟». وعلى الرغم من أهمية تحديد محتوى هذه الثورة، فان هذه الدراسة لم تهدف إلى هذا. فقد أوضحنا أبعاد الأزمة بصورة تحدد اتجاهات الثورة.

على أن الأهم ليس هو أن يتم التغيير بسرعة وبصورة شاملة أو ببطء وفي شكل إصلاحات جزئية. الأهم هو مضمونه واتجاهه. التغير المطلوب هو ذلك الذي يجعل الحياة بالنسبة للشباب أغنى وأجدر بأن تعاش.

إن قبول الشباب بأعداد أكبر في مستويات اتخاذ القرار وتنفيذه-على الرغم من أهميته الكبرى-لا يحل مشكلة جيلهم. وذلك لان الغرض منه عادة ليس حل مشكلة صراعهم مع جيل الكبار، وإنما احتواء غضبهم وتمردهم، ومن ثم فانه يشعرهم بالعزلة اكثر، ويبرز التناقض بينهم وبين جيل الكبار، ويظهر عجزهم بصورة واضحة حاسمة.

قد لا نختلف مع أستاذنا زكي نجيب محمود كثيرا في تشخيصه بعض جوانب أزمة الشباب في عبارته: «لعلي ألمس أكثر مما يلمس غيري حاجة شبابنا الشديدة إلى الهداية نحو ما يمكنهم فعله لتطمئن به قلوبهم وعقولهم، فهم في ذلك حيرى يتخبطون وليسوا في ذلك بدعا وحدهم بل هي حالة تعم جميع الشباب في كثير من بلاد الأرض. ويكاد الرأي يجمع على أن ثمة فراغا في نفوس الشباب يريد أن يمتلئ، كما يكاد الرأي يجمع كذلك على أن ملء هذا الفراغ إنما يجيء عن طريق الإيمان القوي بعقيدة الدين، لان عاملا من عوامل الحيرة عند شباب هذا الجيل-في أرجاء العالم كله-هو عجزهم وعجز القائمين على شئونهم عن جواب مقنع لمن يسألهم عن الهدف الذي من أجله يعملون» [13].

ولكن المشكلة هي الطريقة التي نعيد بها الشباب إلى حظيرة الإيمان. فتغيير الضمائر لا يمكن أن يتحقق بالوعظ والنصح الخارجين عن الحياة ولا بالإرغام والقهر من خارج الذات. والإيمان الصادق، يمكن أن يتحقق في

جو تتعارض فيه القيم بعضها-البعض الآخر وتتناقض فيه الممارسات اليومية مع القيم الشائعة.

التحدي الحقيقي يكمن في التطور بالبناء الاجتماعي بحيث يصير اختيار الأهداف الاجتماعية ووضع استراتيجيات وسياسات تحقيقها، وتنفيذ خططها عملا يشارك فيه الجميع مشاركة حقيقية، لا قرارات تصدر من أعلى من مستوى صفوات التحديث. وهذا يعني أن تختفي الثنائية والتعارض والتناقض بين الأجيال.

المطلوب ليس هو إجراء تعديلات في تفاصيل النظام القائم، ولا خلق حوار بناء بين الشباب والكبار، ولا«رشوة» الشباب ببعض الإصلاحات والامتيازات. فقد تفيد هذه الإجراءات في تسكين ثورة الشباب وتخفيف حدة الأزمة، ولكنها لا تفعل ذلك إلا إلى حين ولا تصل إلى أعماق المشكلة.

المطلوب هو استراتيجية شاملة للتغيير الحضاري، التنمية الاقتصادية والتطوير الاجتماعي في ظل«حركة تنوير»، بهدف تصحيح العلاقات الاجتماعية، وتحقيق الاتزان في الحياة للإنسان.

قد تبدو هذه مهمة صعبة، ولا تحقق شيئا على المدى القريب، ولكنها وحدها القادرة على تحقيق شيء.

وهنا يثور سؤال هام:«من أين نبدأ؟،»هل نبدأ بتغيير الإنسان، وقيمه وأساليب تفكيره بصورة خاصة، أم ننطلق من تعديل واقعه المادي والاجتماعي؟ ووضع السؤال بهذه الصيغة يمكن أن ينتهي إلى أحد موقفين: أما مثالية ساذجة، أو مادية ميكانيكية، وكلاهما يعجز عن تقديم إجابة شافية مفيدة. فالحقيقة، عن ناحية أولى، أن ظروف الحياة الإنسانية-بعناصرها المادية والاجتماعية والحضارية-ليست معطيات جامدة محددة سلفا، وإنما هي وقائع من صنع الإنسان، ومن ثم فهي قابلة للتغير بفعل إنساني. ومن ناحية أخرى، فان وعي الإنسان بظروف حياته وموقفه منها وقدرته على التعامل معها ليست انعكاسا سلبيا للواقع تقيده به تماما، وإنما تنطوي على قدر من حرية الفعل والقدرة على التعديل. بعبارة أخرى مطلوب منا أن نعمل في جبهتين: الواقع والإنسان. وجهدنا في تعديل أي منهما يؤثر في الآخر، على أية حالة [14].

الهوامش والمراجع

1- عماد الدين سلطان،«احتياجات طلاب الجامعات»، القاهرة، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ووزارة الشباب، 1971، ص 6.

2-«هكذا يتكلم الآباء الشباب: شهادات واقعية وتعليقات»، الطليعة (القاهرية)، المجلد الخامس (سبتمبر 1969) ص 13-91 وهي مصدر الاقتباسات من أقوال الشباب في هذه الخاتمة.

3- يوسف إدريس، الأهرام القاهرية1977/6/3.

4- زكي نجيب محمود، الأهرام (القاهرية)، 1977/2/4.

5- زكي نجيب محمود، الأهرام (القاهرية)، 1977/3/31.

6- زكي نجيب محمود، الأهرام (القاهرية)، 1977/2/24.

7- فؤاد ذكريا، آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص ص، 18-22.

8- المرجع السابق، ص 41.

9- المرجع السابق، ص 69.

10- جابر عبد الحميد جابر،«الاتجاهات النفسية للشباب نحو وضع المرأة في المجتمع العراقي»،«المجلة الاجتماعية القومية، المجلد السابع (سبتمبر 1970) ص 25-47.

11- ذكريا، مرجع سبق ذكره، ص 22.

12- روجيه جارودي،«البديل» ترجمة جورج طرابيشي، بيروت، دار الآداب، 1972، ص 108.

13- زكي نجيب محمود، الأهرام (القاهرية)، 1977/6/16.

14- أنظر مثلا، جارودي، مرجع سبق فكره، 83.

المؤلف في سطور:

د. عزت حجازي

* ولد عام 1931 في إحدى قرى الشرقية-جمهورية مصر العربية.

* تخرج في قسم الفلسفة بجامعة القاهرة عام 1953، وحصل على رسالتي الماجستير (1964) والدكتوراه (1968) في الدراسات الاجتماعية من جامعة مينسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية.

* في عام 1956، اشتغل باحثا بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، إلى أن وصل إلى درجة أستاذ باحث بالمركز، وفي عام 1974 أعير لجامعة صنعاء أستاذا ورئيسا لقسم الفلسفة والاجتماع.

* من أعماله المنشورة:

* دراسة لنمو سكان العاصمة المصرية، ونتائجه الاجتماعية والحضارية (1971).

* معجم مصطلحات علم الاجتماع (1974) باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية.

* وضع العلوم الاجتماعية، في مصر (1974) بالإنجليزية.

* قائمة ببليوجرافية بأعمال المشتغلين بعلم الاجتماع في مصر (1976)، وهي عبارة عن مسح لتراث العلم في مصر منذ أوائل الثلاثينات حتى عام 1974.

* نشر عددا من المقالات وتقارير البحوث في موضوعات مختلفة في بعض الدوريات المتخصصة العربية والأجنبية.



الأحلاف و التكتلات في السياسة العالمية

تأليف

محمد عزيز شكري